

التعريف بالأدب النونسي

رضوان ابراهيم

الدار العربية للكتاب



التعريف بالأدب التونسي

رضوان إبراهيم

الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس

© جميع الحقوق محفوظة - الدار العربية للكتاب

ليبيا - تونس 1977/1397

الف سلسلة قصص للأطفال ،
ومجموعة قصص « جراح
شعب » ، وكتاب « أزمة
التعبير الادبي » ، وكتاب
« شعراء العرب المعاصرون » ،
و « تيسير مقدمة ابن خلدون » ،
وعشرات المقالات الصحفية
والاذاعية فى الادب والنقد
والمجتمع ، وراسل معظم
صحف واذاعات العالم العربى
والمهاجر ، وله تجارب فى
الشعر الوجدانى .

ترجم عن اللغة الروسية
عشرات الكتب والبحوث .
والمقالات الادبية والنقدية
والقصص والشعار .
عمل باحدى هيئات وزارة
المالية والاقتصاد والتجارة
الخارجية .

توفى عام 1975 .



نشأ فى ريف مصر ،
واتم تعليمه بالقاهرة .

حصل على ليسانس فى
الادب ، ودبلوم فى التربية
وعلم النفس ، ودبلوم فى
الادب العربى المعاصر ، ودبلوم
فى اللغة الروسية .

اشتغل بتدريس الادب ،
وتنظيم المكتبات .

تقديم بقلم الأستاذ أبو القاسم محمد كرو

عرفت المرحوم الاستاذ رضوان ابراهيم أولا بواسطة المراسلة سنة 1953 باشارة من صديق الشابي المرحوم الدكتور أحمد زكي أبو شادي .

وفي صيف 1954 ، التقيت به لأول مرة في القاهرة ، حيث كنا نحضر معا ندوة الشعر الاسبوعية التي ينظمها في بيته الشاعر المرحوم محمد علي الخوماني ، الذي كان قد ظفر بأعجابي وتقديرى الخاص لقصيدة واحدة من شعره المنشورة في مجلة الكتاب المصرية بعنوان « أنشودة الكون » ، والتي نظمها في عيد جلاء القوات الاستعمارية الفرنسية عن سوريا ، وقد بشر فيها بجلاء مماثل لقواتهم عن تونس والجزائر والمغرب .

يقول في طالعها :

يومك الضاحك في نيسان أنسى

كل باك دمه حتى فرسنا

ويقول :

نشطت جلق من أصفادكم

وستقفوها رباط وبلنسا

وستلقى سفن أرسى
 ثغر بيروت لدى وهران مرسى
 وسيصحو القدر الإلهى بنا
 ويرى اللهو بكم أعذب كاسا
 أيها الباكي على اندلس
 وعلى تونس هون وتأسى
 وثب الضيغم من مكنمه
 وانتهى زهجرة ما كان همسا

وجدت في رضوان إبراهيم كل دماء خلق وشهامة نفس ،
 وعزيم همة ، وكرم المعاملة وصدق القول وعميق الوفاء للاخلاء
 والاصدقاء . ومنذ سنة 1953 لم تنقطع بيننا المراسلة حتى آخر
 لحظة من حياته .

ولعل صداقتي له هي الحافز الاول على اهتمامه النشيط بالادب
 التونسي الحديث ، ويكاد يكون الكاتب الوحيد في الشرق الذي
 عايش الادب التونسي ومارسه قراءة وعلاقات شخصية مع العديد
 من أدبائه حتى أمكن له ان يكتب عنه البحوث والمقالات والاحاديث
 المختلفة للصحف والمجلات وللإذاعات العربية ، ثم تخصص في
 الترجمة من الروسية الى العربية ، فكان اهتمامه منصرفا
 بالدرجة الاولى الى ما يكتب عن تونس وأعلامها وأدبها في الكتب
 والمجلات الروسية .

وله فضل السبق والعناية بما كتب أو نشر في روسيا من
 دراسات وكتب عن الادب التونسي ورجالنه .

وقد سبق له أن ترجم كتبيا عن الادب التونسي عهد بنشره
 الى الدار التونسية للنشر منذ عام 1971 ، وتعاقد معها على ذلك عام
 1973 ، حيث كان لي شرف دعوته الى تونس للمشاركة في أعمال
 المؤتمر التاسع للادباء العرب .

وكان لي أيضا شرف نشر أول دراسة ترجمها من الروسية عن ابن خلدون فتم طبعها بتونس عام 1974 تحت عنوان « نظريات ابن خلدون » ، وهي من تحرير الدكتورة سفيثلانا باتسييفا .

وفام رضوان ابراهيم بترجمة اضخم كتاب صدر في روسيا عن ابن خلدون لنفس المؤلفة ، هو « العمران البشرى في مقدمة ابن خلدون » ، وتنوّل الآن الدار العربية للكتاب طبعه لبصدر قريبا في سلسلة مكتبة ابن خلدون .

بعد عودة رضوان من تونس الى القاهرة ربيع 1973 شرع يرسل لي مجموعة من المؤلفات والاحاديث التي يترجمها من الروسية، أو يكتبها للمجلات والاذاعات العربية للتعريف بالادب التونسي ، وخاصة ما ينشره الادباء التونسيون من كتب في القصة والشعر والدراسات الادبية .

وقد تجمع عندي من هذه المقالات الموضوعية والمترجمة عدد كبير ، وكان الكاتب نفسه قد اختار لها عنوانا لينشرها تحته وهو « التعريف بالادب التونسي من خلال مطبوعاته » .

ونظرا لقيمة هذه المقالات ، لا سيما ما ترجمه من الروسية ، ونظرا لعلاقتها الوثيقة بحركة التأليف والتطور الادبي في تونس .

وتحية لكتابها واعتازا بنضاله الذي استغرق ربع قرن في خدمة الادب التونسي من المشرق العربي ... رأيت أن تجمع في كتاب - كما كان ينوّى كاتبها - وأن تعطي نفس العنوان الذي اختاره لها ، وان تبوب الى ثلاثة أبواب رئيسية :

الاول - ما ترجمه عن الروسية حول الادب التونسي .

التاني - ما كتبه عن مؤلفات الشبابي أو الكتب التي كتبت عنه .

الثالث - حول مؤلفات تونسبة أخرى .

واضفت الى ذلك كله مجموعة من التعليقات والهوامش حيث كان ذلك ضروريا . غير أنني خصصت بحث « التجديد في الادب التونسي » الذي ترجمه عن الروسية بطائفة كبرى من التعليقات والملاحظات والتصويبات التي رأيت ان بدونها لا يستساغ نشر مثل هذا البحث المطول في كتاب مثل هذا .

فالبحت على أهميته وجهده صاحبه الكبير ، معشوق باخطاء فادحه ، وأوهام وقع فيها الكاتب الروسي نتيجة تسليمه المفرط بما يراه في مصادر أو بسبب القراءة العاجلة .

واعتقادي ان هذه الهوامش وتلك التعليقات هي بمثابة المساهمة الاخيرة في تبصير القارئ لهذا البحث بكل الحقائق الناصعة والصحيحة عن أطوار الادب التونسي ورجاله ومختلف المؤثرات والتيارات التي احتوى عليها .

ومهما يمكن من أمر .. فان هدفنا الاول والاخير من نشر هذا الكتاب وجمع شتاته هو خدمة الادب العربي في تونس والتونس بشخصية أدبية عربية كرسنا نصف عمرها في خدمة أدبنا والاسادة به والكتابة عنه .

وآثار هؤلاء الرجال النزهاء ، المناضلين حقاً من أجل شرف الكلمة ومجد الادب ، جديرة بالاحياء والنشر والاهتمام والتقدير .

ولا نملك أمام مصابنا بفقد المرحوم رضوان ابراهيم سوى الوقوف بخشوع اجلالاً لذكراه وتمجيدها لنضاله، وترحمنا على روحه .

وان خبر تحية تزجي له ، وخير عرفان يقدم اليه والى السيدة زوجته الفاضلة وأسرتها الخزينة هو نشر كتبه وزيادة تعميمها بين القراء في كل مكان وزمان .

لم يكن رضوان ابراهيم حين توفي عام 1975 قد جاوز الخمسين

من عمره الا قليلا . ومع ذلك ترك عددا كبيرا من الكتب المؤلفه
والترجمة ، ومئات المقالات والبحوث المتناثرة في مجلات وصحف
العالم .

واننا سنحاول نشر ما يتيسر لنا منها ، لا سيما ما لم يسبق
نشره حتى تصان من الاهمال والضياع .

ونحن على يقين بان ما احتوى عليه هذا الكتاب ليس الا جزءا
قليلا مما كتبه عن الادب التونسي ، ولعلنا نستطيع استكمال الباقي
في طبعة قادمة .

كما نرجو ان نتمكن من نشر بقية آثاره المخطوطة الاخرى وان
نعيد طبع عدد من كتبه السابقة ، وفي طلبها مختاراته من مقدمة
ابن خلدون ، ومجموعاته القصصية وما ترجمه عن القصة المصرية
وطه حسين وامين الريحاني .

وعسى أن نرى قريبا كتابه المترجم عن الادب التونسي الذى
مات وهو يتحسر ويشكو من تأخر نشره ، وهو الحريص - طبعه
لتونس وأدبها - أن يراه مطبوعا فى دار نشر تونسية .

ومقابلة الوفاء بالوفاء عملة نادرة فى بلادنا وفى عالمنا الثالث .
ومع ذلك فان أملنا فى انتصار الحق والخير والعدل ، وفى سيطرة
النزاهة والانصاف والوفاء على النفوس مع تطور العقول وبقظة
الضمير القومى ، ما زال كبيرا ، وفى الظروف التى ساعدت على نشر
هذا الكتاب والخوافز الداعية اليه لشجاع من كل ذلك .

تونس فى 19/5/1977

مقدمة

كلمة ..

كلمة لا بد منها بين يدي التعريف الذي أرجو أن أقدم به
الادب التونسي المعاصر من خلال المطبوعات التي تصل إلينا بين
الحين والحين .

ان الظاهرة البارزة التي تتردد على ألسنة الادباء التونسيين
وأقلامهم هي الشكوى من العزلة المضروبة بين الجناح الغربى والجناح
الشرقى من البلاد العربية . والعقبات الاقتصادية والسياسية
والاجتماعية التي تحول دون انتشار الكتاب التونسي فى البلاد
الشرقية .

فالجناح الشرقى يموّر ويضطرب بالافكار والآراء والمذاهب
الادبية والفكرية ، بينما يتحرك الجناح الغربى ببطء وفى اطار
محدود لا يسمح له باختراق الجدار الاصم القائم بينه وبين الجناح
الشرقى .

ولقد كان الاستعمار - وما يزال - يبارك هذه العزلة بين اقطار
الامة العربية ، لانه لا يستطيع أن يحتوى هذه الاقطار فى مناطق
نفوذه الا فرادى منعزلة متفرقة الاهواء ، اذ أن مجرد تجمع هذه
البلاد المتحدة اللغة ، والتاريخ والاهداف والآمال تعنى نهاية
الاستعمار .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهو لا يريد أن تحل الثقافة العربية الاصيلية محل الثقافات الغربية التي يستطيع من خلالها دائما أن يفرض فلسفاته على الامة العربية ، ومن هذه الفلسفات يقفز الى السيطرة الاقتصادية والسياسية على البلاد العربية ، فيسهل عليه بقاؤها الى الابد فى مناطق نفوذه .

ومع أن تونس بالذات قد أتيح لها فرصة الانفتاح على البلاد الشرقية بوسيلة أو بأخرى ، منذ القدم ، وفى العصر الحديث عن طريق التبادل العلمى منذ هجرة ابن خلدون واستقراره بمصر ، وفى وفود الحج والتجارة والاتصالات التقليدية ، وفى انتقال أبنائها الى جامعة الأزهر ، حتى الزيارة التي قام بها الشيخ محمد عبده لتونس ، وأخيرا عن طريق تبادل الصحف وتبادل الاقلام التي تكتب فى هذه الصحف ، وتبادل المطبوعات ، وقيام دور النشر الجديدة فى تونس .

الا أن تونس ما زالت تحس بهذه العزلة احساسا عميقا ، وتعتب على شقيقاتها الشرقيات وعلى أدبائها انصرافهم عنها ، وتجاهلهم لانتاجها ، حتى بعد استقلالها السياسى والاقتصادى الذى اغتصبت منه المستعمرين ، وبعد المساهمة الايجابية التي تقوم فى حل مشكلات الجناح الشرقى بوجه عام .

ومع هذا فنحن جميعا نحس بالحاجة الى تنشيط التبادل الثقافى والادبى والفنى والفكرى والصحفى الى الدرجة التي يحس معها القارئ العادى فى كلا الجناحين بما يجرى داخل الجناح الآخر ، ويلمسه ، ويتذوقه ، ويتفاعل معه ، ويشارك فيه .

وهنا لا بد أن يقوم الافراد وأن تقوم المؤسسات فى مختلف بلاد الجناحين ببذل أقصى الجهد فى هذا السبيل ، لتمد جسرا من التفاهم والتعارف الوثيق بين تونس بالذات وبين شرقنا العربى .

وإذا كان للأفراد بجهودهم المحدودة أن يسهموا في هذا البناء ،
فأننى من هنا أقدم ما تيسر لى الاطلاع عليه من الانتاج الذى تقدمه
مطابع تونس العربية .

نحن نحس في الآونة الاخيرة بأن جهودا كثيرة ومخلصة تبذل
لتقوية الروابط الفكرية والثقافية بين تونس والبلاد العربية ، ممثلة
فى المطبوعات التى تفد علينا من تونس ، وان كانت قليلة وبطريقة
فردية ، ولكنها تؤكد أن هناك نشاطا فكريا وليدا ، ورغبة مخلصه
فى التقارب بين الجبهتين .

ومن خلال ما يتوفر لدى من مطبوعات تونسية سوف أطلع
المستمع الكريم على مضمون الثقافة والفكر العربى المعاصر فى تونس
بقدر ما أستطيع ، وأرجو أن يشاركنى المستمع الرأى فى أن هذا
الجناح الغربى - وفى مكان القلب منه تونس - جدير منا جميعا
بهذا الاهتمام ، وبما يتلوه من تفاعل مثمر للثقافة العربية والمثقفين
العرب جميعا .

وما لم نحتضن هذه النهضة الفكرية الوليدة فى تونس فإن
مصيرها سيكون الانطواء أو الانفتاح على الثقافات المعادية من جديد .

ان فى تونس - بعد الاستقلال والاستقرار - مظاهر ووسائل
لنهضة أصيلة بعيدة عن أن تكون ثورة طارئة ، وانما هى حركة
فكرية أدبية ذات أهداف ، تتخذ لنفسها وسائل حقيقية ، وتسند لها
أيدي وعقول وكفايات تبشر بالاستمرار ، وتدعو الى التفاؤل .

ففى مجال الفن أصبح مهرجان قرطاج الدولى للسينما والمسرح
معترفا به عالميا كائى مؤتمر فنى فى أى بلد من البلاد المتقدمة ، مما
ينبئ بأن وراء نهضة فنية ناضجة مكتملة الدعائم .

كما أنها قد أخذت نصيبها الدورى فاحتضنت مؤتمر الادباء
التاسع ومهرجان الشعر شأن بقية الدول العربية فى المشرق .

وكانت أول دولة عربية في المغرب يستضيف مؤتمر الادباء .

وفي مجال الصحافة نسمع ونقرأ ان الدولة بدأت تحتضن المؤسسات الصحفية وتشجعها وتنميتها ، وتعطيها من ذات النفس والمال والحرية ما تستطيع به أن تقف في مصاف الصحافة العربية العريقة ، بل والصحافة العالمية المتقدمة .

وفي مجال الصحافة نسمع ونقرأ ان الدولة بدأت تحتضن أن تخلص الادب من التكتلات والطائفيات ليصبح أدبا عربيا خالصا جديرا بأن يقود الامة الى حياة أفضل .

ومن الوسائل والضمانات الباعثة على التفاؤل قيام عدة مؤسسات جادة للنشر والتوزيع :

والذي يدعو الى الاطمئنان تلك الخطط والمناهج التي تضعها هذه الدور لنشاطها من احياء للفكر العربي ، وبعث للتراث ، والتراجع لاعلام التونسيين القدامى والمحدثين ، والنعريف بالثقافة العربية عامة ، وتبادل الاقلام بين التونسيين والادباء المشاركة والمغاربة على السواء ...

وقد كان ذلك مما لفت الباحثين في الشرق والغرب ، وحمل المستشرقين على أن يعترفوا بالادب التونسي وأعلامه ودورهم في النهضة التونسية خاصة وفي النهضة العربية المعاصرة والانسانية بوجه عام .

وما أجدرنا نحن بهذا الالتفات الى اخوة يشاركوننا اللغة والدين والفكر والدم والامال والآلام ، ونحن نرجو ان يوفقنا الله الى ان نتناول بالعرض والتعريف جوانب النهضة الادبية في تونس من خلال انتاج كتابها وشعرائها وباحثيها في حدود ما نستطيع الحصول عليه من مطبوعات ، وما يمنحنا الله من جهد وتوفيق لنعرض ذلك بأمانة وصدق وإخلاص .

... وشخصية

قدمت لهذا الموضوع بكلمة أعتقد أنها تلقي الضوء في طريقنا الى التعريف بالادب التونسي ، وهناك خطوة أخرى لا بد منها هي التعريف بالجهود المناهضة التي لها اثرها في التقريب ما بين أدباء تونس والعالم العربي .

وهذه شخصية أعتقد اننا نقصر في ذات الموضوع اذا اقتصرنا دون ان نتعرف عليها .

فهناك جهود جماعية تتمثل في الجمعيات الادبية والفكرية التي ظهرت حديثا ، مثل رابطة القلم ، ونادى القصة .

ومنها جهود المجلات مثل مجلة الفكر ومجلة الندوة ، ومجلة اللغات ومجلة الثقافة ، ومشروعات اصدار ونشر مسلسلات الكتب الثقافية والفكرية مثل سلسلة كتاب البعث ، مكتبة الشابي . وسلسلة اعلام المغرب العربي .

ومثلها جهود دور النشر والتوزيع الناشئة مثل الدار التونسية للنشر والشركة التونسية للتوزيع ، ودار الكتب الشرقية ، وشركة النشر لشمال افريقيا ودار المغرب العربي .

واعترف ان معرفتي بهذه الجماعات قاصرة ، لا تعدو ما أقرؤه من خلال نشاطها واسمائها المدونة على منشوراتها .

اما ما اعرفه عن ثقة فهو تلك الشخصية التي ظلت تربض وراء الكثير من الانتاج الفكري التونسي المعاصر لعقدين من الزمان مثلما يربض الجندي اليقظ خلف مدفعه المصوب .

تلك هي شخصية الكاتب الباحث التونسي المتعدد الجوانب الاستاذ أبو القاسم محمد كرو .

فمنذ تخرجه في دارالعلمين العليا بالعراق، في أوائل الخمسينات من هذا القرن، عاد الى تونس ليمارس هوايته كمؤلف أولا ، ثم ليصنع لهذه الیقظة الفكرية في تونس دعائهما الاساسية .

فالف أول بحث مكتمل عرفه العالم العربي عن « الشابي .. حياته وشعره » ، ثم أخرج مجموعة من مقالاته وخطبه وأحاديثه للتعريف بتونس في كتاب بعنوان « حصاد القلم » وعندما استقر في تونس أصدر العديد من الكتب في التعليم والعمل والسياسة والاجتماع ، والادب والنقد ، منها كتاب « كفاح الشابي » وكتاب « كفاح وحب » وبعض كتب التراجم ، واسهم بإيجابية في تحرير الكثير من الصحف في مختلف البلاد العربية .

واخيرا تبلور اتجاهه الثقافي في اصدار سلسلة كتيبات شهرية باسم « كتاب البعث » الذي تناول في العديد من حلقاته كثيرا من ألوان المعرفة في التاريخ والتراجم والدين والاجتماع والفلسفة والاقتصاد والآثار والقصة والنقد ، وجمع على هذه السلسلة كثيرا من الافلام التونسية والعربية .

ولم تكن الفكرة مجرد اصدار سلسلة من الكتب ، بل كانت مبادرة ثقافية واجتماعية يعتبرها الباحثون من الاحداث الهامة تشكل نقطة تحول في تاريخ الحياة الثقافية لتونس المعاصرة ، وقد نم عن اهدافها ذلك الشعار الذي اتخذته أساسا لعملها ، وهو « فكر حر ، وحياة افضل » وخطط لوضع هذا الشعار موضع العمل ، وذلك بان جعلها تسهم في بعث الثقافة العربية ، وتواكب نهضة المغرب العربي المعاصرة ، وتصور نشاط الحياة الادبية والاجتماعية ، وتيسر امكانية دخول القارئ الى فروع المعرفة المختلفة ، وترفع مستوى المجتمع ، وبهذه الصورة تستطيع قوة الكلمة المطبوعة والتثقيف ان تخرج المغرب من دائرة الخمول والاهمال .

وقد صدر من هذه السلسلة الشهيرة أكثر من ثلاثين حلقة متتابعة .

ثم اصدر مجلة ادبية شهرية باسم « الثقافة » تعمل في المجالات الثقافية احياء وترجمة وتاليفا ، وتحفز كل الايدى للعمل ، وتجمع على صفحاتها كل الاقلام العربية السائرة في هذا السبيل دون تفرقة اقليمية .

واخيرا انشا دار المغرب العربي للطباعة والنشر ليصدر من خلالها أكثر من ثلاث سلاسل من الكتب والكتيبات .

وفي مقدمة هذه السلاسل سلسلة « مكتبة الشباب » وهي سلسلة من الكتب الحية التي تبحث أدب الشباب وحياته وآثاره ، وتعرض عيون الدراسات والبحوث التي كتبها الشباب أو كتبها عنه الادباء والنقاد .

والثانية سلسلة « اعلام المغرب العربي » وهي سلسلة ادبية تترجم لمشاهير رجال المغرب العربي قديما وحديثا ، من شعراء وكتاب وزعماء وأبطال ومفكرين ، فيها تعريف منهجي بحياتهم وآثارهم ، ومكانتهم في تاريخ الفكر والادب العربيين .

والثالثة سلسلة « نجوم الفن » وهي أول سلسلة فنية تتحدث عن نجوم الفن في المغرب العربي .

ولقد استطاع بجهوده الخارقة ومن خلال ايمانه بالهدف ان يجند قلمه ووقته ودخله لانجاح هذه السلاسل والسلاسل السابقة ، والعمل على انتشارها في أنحاء العالم العربي ، فحشد حولها الاقلام التونسية الكبيرة والشابة من أمثال الكعك والخليوي والعروسي والخميري ومصطفى رجب وزبيس ، والمرزوقي ، ومجبوب بن ميلاد ، ومحمد مزال ، وصفر ، وناجية ثامر ، بالإضافة الى الكتاب الشرقيين الذين استطاع ان يجتذبهم اليه ، وان يفتح امامهم مشروعاته الثقافية ليشتركوا فيها على قدم المساواة مع اخوانهم التونسيين .

ان ابا القاسم كرو قصة كفاح نادرة في توثيق الروابط الثقافية والفكرية بين تونس وشرقي العالم العربي بهذه الجهود ، وبما يقوم به من رحلات علمية ، وبما يشارك فيه من مؤتمرات وندوات أدبية وثقافية ، وبما ينشره من نراث ، وما يشجع من اقسام تونسسية ومشرقية وما يقدم من مطبوعات تونس الى الادباء والنقاد والقراء بقية ايجاد جسر من التعارف والتفاعل بين الفكر التونسي والفكرين العرب .

وهو الى جانب ذلك قارىء نهم ، لا تفوته شاردة ولا واردة مما يكتب او ينشر او يذاع عن تونس خاصة وعن المغرب كله في القديم والحديث ، ولهذا فهو يجهد في تجميع كل التراث التونسي واعلامه ليعيد نشره باسلوب عصري يناسب قارئ اليوم في مختلف البلاد .

وهو ، من قبل وبعد ، كاتب اسلوب متميز يبين الكتاب العرب المعاصرين بالاضافة الى ان لديه القدرة على ان يحول اسلوبه العالي الى اسلوب مدرسي تعليمي ميسر يشارك به في تحرير الكتب المدرسية للنشء التونسي .

يكفى ابا القاسم كرو للتنويه بجهوده انه عرف بالشابي لاول مرة باول كتاب علمي جامع يصدر عن حياته وشعره .

ويكفيه هذا الجهد الموفق ليكون داعية من دعاة الوحدة العربية بادئا من الجانب الثقافي الذي يجمع ولا يفرق ، ويهدي ولا يضل ، وحسب كل اديب عربي مخلص أن يضع معلما في هذا الطريق ، وقد وضع ابو القاسم كرو كثيرا من المعالم ، وحدد كثيرا من الاهداف ، وفرش هذا الطريق بالاضواء .

رضوان إبراهيم

الباب الأول
الأدب التونسي المعاصر
في اللغة الروسية

الفصل الأول الأدب التونسي في الاتحاد السوفياتي

من بين — المظاهر التي أعتز بها في مجال اهتمامي بالأدب التونسي قراءة وتفاعلا ودراسة — أنني شغوف بتتبع ما يكتب عنه، سواء في اللغة العربية أو في اللغة الأجنبية التي أجيد التعامل معها، وهي اللغة الروسية.

ومنذ توثقت صلاتي بالأدب التونسي المعاصر (1) بفضل الصديق الأديب العالم أبو القاسم كرو، ومن بعده الاصدقاء الأدباء رشيد اللوادي، وعبد الواحد براهيم، والدكتور نور الدين الحمداني، ثم صلاح الدين الجمالي (1) زاد اهتمامي بهذا الاتجاه، على قدر ما يتوفر لي من الوقت، وبقدر ما تستجيب لي الوسائل.

ولقد كتبت من قبل عن هذا الموضوع في جريدة « الصباح » الغراء بتاريخ 14/9/1972 أشير الى بعض الجهد المبذول من مستعربي الاتحاد السوفييتي الذين استرعى انتباههم الأدب التونسي المعاصر، فأخذوا بالوسائل العلمية والنقدية يعملون على تقييمه ووضعه في موضعه الصحيح بين آداب آسيا وأفريقيا المعاصرة.

وقد صلر في الاتحاد السوفييتي العديد من الدراسات المركزة، لعل في مقدمتها الكتاب الذي أشرت اليه من قبل بعنوان « الأدب

(1) الحمداني والجمالي من موظفي السفارة التونسية بالقاهرة، وكانا يزودان المرحوم رضوان ابراهيم بالكتب التونسية « ك » .

التونسي « للمستعرب التشيكي بانتوتشك، والذي ترجمته الى اللغة العربية إيسان صدوره، وأرجو ألا تكون الدار التونسية للنشر قد نسيت أنه من بين مخطوطاتها منذ ثلاث سنوات، وألا ينسى السيد الرئيس مديرها العام أن بيني وبين الدار عقدا بنشر هذا الكتاب قارب عمره الستين، وأن في هذا الكتاب ما هو جديد ومفيد من اللقطات المضيئة عن الأدب التونسي وأعلامه المعاصرين.

وكنت قد أشرت في نفس المكان من جريدة الصباح الى عمل من أعمال التعريف بالأدب التونسي في الاتحاد السوفيتي كان ما يزال في ضمير الغيب، وهو مجموعة قصص تونسية مختارة للترجمة الى اللغة الروسية.

ولقد صدرت هذه المجموعة في حوالي 80 صفحة بعنوان « الوجه الجديد » ضمن سلسلة عن أدب الشرق، وقد أشرف عليها وشارك في ترجمتها. وقدم لها الدكتورة أولجا فرولوا أستاذة الأدب العربي في جامعة لينينجراد.

وقد اقتصر اختيارها على سبعة من القصصين التونسيين الذين يمثلون الاتجاهات الأصلية في القصة التونسية المعاصرة، واستوعبت تسعا من القصص التي تعتبر نماذج لهذه الاتجاهات وقام بترجمتها عدد من الدارسين والمتخصصين من كبار المستعربين السوفيت على الوجه التالي :

البضاعة الجيدة، لمحمد الصاحبي؛ قام بترجمتها الى اللغة الروسية
الدكتورة سفيتلانا باتسييفا. (2)

الوجه الجديد، لنفس المؤلف، وقد اتخذ اسمها عنوانا للمجموعة،
وقام بترجمتها س. بروزوروف.

القمح وزيت الزيتون، لمحمود طرشونة، ترجمها ا. اييدنسكي.
سيدي سالم، لمحمود بو العيد، ترجمتها ا. ميخائيلوفا.
مصرع صالح، لمحمد فرج الشاذلي، ترجمها س. بروزوروف.
صاحب المغارة، لمحمد المرزوقي، ترجمتها الدكتورة أولجا فرولوا،
المتبوع، لمحمد المرزوقي، ترجمها ف. تخوروجيفسكي.
فرحة الأولاد، للطبيب الثريكي، ترجمتها ر. شرف الדיسوف،
لمبريق الشاي، لناعية ثامر، ترجمتها ا. سوكولوفا.

وللمزيد من تعريف القارئ السوفيتي بهذه الشخصيات،
ومعظمها جديد على القراء ألحقت المأخرة بهذه المجموعة ثبنا
بيوغرافيا قصصا لايجاد صلة بينهم وبين الأدباء والدارسين،
ولفتح مجال التعارف والتقارب بين الأدباء التونسي والسوفيتي،
كما قدمت الدكتورة أولجا لهذه المجموعة بدراسة تاريخية
تحليلية وافية، ومركزة تقول فيها :

(2) تخصصت في دراسة آثار ابن خلدون وقد نشر لها عنه بتونس « نظريات
ابن خلدون » ويطلع حاليا كتابها الكبير عنه « العمران البشرى في مقدمة
ابن خلدون » وما تزال توالي البحث والكتابة عنه وعن الادب التونسي. د ك ،

« كان يوم الثالث من يونيه عام 1955 يوم اعلان الاستقلال الذاتي لتونس، والمظاهرات الضخمة للشعب المغتبط المتهلل بالهتافات التي تمجد الحرية والاستقلال، وهي تتحرك في اتجاه قرطاجنة، التي كانت المدينة الرئيسية وقتا ما، حيث كانت الدولة الجبارة المتراصة الأطراف، وهي في الوقت الراهن ضاحية من ضواحي العاصمة تونس، وتحمل نفس الاسم في نفس البلد.

وبعد أقل من عام، في العشرين من مارس عام 1956، أعلن الاستقلال التام لتونس، وأصبحت هذه الأحداث أهم مراحل التطور السياسي والاقتصادي والثقافي.

ويرجع تاريخ هذه البلاد الى الألف الأولى قبل الميلاد، حيث يتصل بتاريخ الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين، ثم أصبحت البلاد التونسية عربية منذ القرن الثامن الميلادي.

وتونس موطن لكثير من مشاهير العلماء والأدباء الأمازيغ، فضلا عن يدعونه أبولو، مؤلف الرواية العالمية المشهورة « الحمارة الذهبية » في القرن الثاني الميلادي، وقد تلتى عاومه في قرطاجنة.

كما أنها موطن مؤلف أول كتاب عن نظرية علم التاريخ، وهو « المقدمة » لكتاب ابن خلدون في تاريخ العالم، وابن خلدون من علماء القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهو يعتبر إماما لعلماء الاجتماع المعاصرين.

وفي تونس تقوم جامعة من أقدم جامعات العالم . هي جامعة الزيتونة التي أنشئت في القرن الثالث عشر. (3)

وفي القرن التاسع عشر ظهر في البلاد أدب فني أخذ ينتظم في نمطه العصري(4).

ولقد فتح استقلال تونس أمام أدبياتها آفاقا جديدا، ولعبت مجلة « الفكر » — التي ظلت تصدر منذ عام 1955 — دورا كبيرا في تعريف القراء بانتاج المؤلفين التونسيين.

وكما يعتمد المؤلفون التونسيون في إبداعهم الراهن على التقاليد المحلية فانهم يعتمدون كذلك على منجزات آداب البلاد العربية الأخرى، كما يعتمدون على الآداب الغربية.

حقيقة إنهم يتحدثون عن أحداث الحياة اليومية، لكنهم كثيرا ما يلجأون الى الماضي البطولي لشعبهم، والى نضاله الوطني التحرري،

(3) هكذا في الاصل ، ومعلوم ان جامع الزيتونة تأسس عام 114 للهجرة وانه منذ تأسيسه وهو معهد للعلم . وعليه فان التاريخ الصحيح هو القرن الثامن الميلادي ، لا الثالث عشر . « ك »

(4) عن الادب التونسي المعاصر يمكن الاطلاع على الاعمال التالية : سفيثوزار بنتوشيك ، الادب التونسي المعاصر ، دراسة قصيرة ، موسكو ، 1969 و س . بروجوينا ، ادب مراكش وتونس ، موسكو ، 1968 ، و د أرضنا العزيزة ، مجموعة قصص لكتاب مراكش وتونس وليبيا ، موسكو، 1967 ، و ب . شوستر ، مراجعات في أدب تونس ، « كوكب الشرق » ، عدد 10 ، 1958 ، و ي . ن . زافادوفسكي ، الادب التونسي ، دائرة معارف الادب المختصرة ، مجلد 7 ، موسكو ، 1972 ، و س . ف . بروجوينا ، ادب بلدان المغرب المكتوب باللغة الفرنسية ، موسكو ، 1972 .

ويخصصون كثيرا من المواقع للحديث عن حياة الناس البسطاء، وعن عاداتهم وطقسهم وخرافاتهم المحلية.

ومعظم كتاب تونس المعاصرين يتحدثون في انتاجهم عن نضال الشعب التونسي في سبيل التحرر من الظلم الاجتماعي، كما يتحدثون عن التحرر من العبودية الروحية.

لأنهم يسخرون دائما من العادات والخرافات البائدة، ويندولون بها، ويصورون حياة الشعب اليومية بمختلف صورها، ويرزون ما فيها من مظاهر العزة وجمال البساطة في الإنسان البسيط.

وتصوير الحياة الشعبية هو الموضوع المفضل لدى كاتب الجيل المبكر محمد المرزوقي الوثيق المعرفة بها.

ان محمد المرزوقي كاتب فولكلوري خبير بحياة البدو وأغانيهم القديمة وأساطيرهم وقوانينهم القبلية وعاداتهم التي ظهرت انعكاساتها في إبداعه الفني. فهو يصور في حب وتعاطف طبيعة الصحراء بأوديتها، وأبعادها المترامية الأطراف، ورمالها الصفراء وصخورها الصلدة.

وقد وفق الكاتب في ان يبعث في قارئه شعورا غير عادي بالطمأنينة والاحلال بازاء الطبيعة المحيطة بالانسان عند التأمل في هذه المراتع الفسيحة الأرجاء.

فالسكون.. وجلال الطبيعة يستقبله المرزوقي بشغف إنساني عاصف.
وفي قصصه انعكاسات لكثير من الآراء الساذجة والعادات
والقوانين السائدة في ظروف الحياة العادية للبدا والرحل لآماد. طويلة
من الزمن.

ولقد كرس المرزوقي لحياة البدا قصة « عرقوب اخير »، وقصة
« خيال الماضي »، وقصة « المتبوع ».

أما قصة « صاحب المغارة » فتدور حول الكشف عن السر الخاص
بإحدى الأساطير التي كانت تروى عن الثقة في الحب وخيانة الصديق
وعن مآسي الفقر.

تلك هي ملامح واحد من الجيل المبكر، أما كتاب القصة القصيرة من
الشبان فأننا نجدهم في حالة بحث مستمر عن الأساليب الأدبية الجديدة.

ويجد مجلة « الفكر » التونسية تفتح صفحاتها بصورة منتظمة للنقاد
وعلماء الأدب لمناقشة المشكلات الحيوية للقصة، وفنية القصصين،
والمضنون الفكري لانتاجهم، ووسائل إتيان الشكل الأدبي.

ويحدد عبد العزيز قاسم في مقاله عن « قواعد القصة » المهام
المستقبلية للأدب التونسي حين يقول : « علينا أن نثبت لهذا الأدب
حقيقته العميقة الراسخة، وأن نجعله أدبا يتحدث عن الانسان،
عن ماهيته، وعن طبيعته، وعن قلقه، وعن حريته، وعن أمانيه،
وعن قضايا حياته الخالدة » (5).

(5) عبد العزيز قاسم، في أساليب القصة (عن قواعد القصة)، الفكر، 1966،
عدد 6، ص 6* (630) .

أما المؤلف الذي ما يزال في دور الشباب ، ولكنه واسع الشهرة ، وهو محمود بو العيد ، فيخصص انتاجه للمواقف الصعبة التي يعانها الشعب ، وقصته « قلب لا يخفق » — على سبيل المثال — يتحدث فيها عن المعاملة القاسية التي يعامل بها العبد الأسود ، ويسخر من الخرافات والعادات البائدة.

وقصة « سيدي سالم » قصة محتمل ذكي يستغل السذاجة والجهل بالعقيدة والثقة بالقديسين والسحرة.

وهو يتجاوب في كثير من العناصر مع قصة « دار الشفاء » للكاتب التونسي المعروف مصطفى الفارسي المولود عام 1931 ، وهي القصة المنشورة باللغة الروسية في مجموعة « أرضنا العزيزة ».

وعن الحظ التعس الذي يعاناه الفقراء يكتب الكاتب المشهور الطيب التريكي قصصه ، ففي قصته « فرحة الأولاد » يضع أمام القارئ صورة أسرة لا تستطيع حتى في يوم العيد أن تطعم أطفالها إلى حد الشبع.

وتتفاقم دراماتيكية الحالة ، وتزداد سوءا بسبب أن الفقر في المفهوم الشائع وصمة عار كبرى ، وسمعة ربة البيت التي يحل بها العيد ولا تستطيع أن تعد انطبق التقليدي للعيد تصبح سمعة ملطخة.

وتنهال على المرأة الفقيرة سخریات الجيران واستهزاؤهم وإهانتهم ، وليس من باب المصادفات أن يكون ذلك في أيام الأعياد الدينية ، فان من الممكن أن نقرأ في الصحف خبر انتحار امرأة لا تملك النقود انتي تهيء بها طعام العيد.

أما الطيب التريكي فيتخذ محور قصصه من الحياة الواقعية ، ويعتمد الى سرد الكثير من تفاصيل الحياة اليومية العادية ، ويلجأ الى أحداث هذه الحياة يستوحىها.

وفي جراءة يخالف المؤلف قواعد اللغة العربية الأدبية ، ويدمج في نص القصة حوارا باللغة التونسية الدارجة.

وقضية ازدواج اللغة تثير القلق في العالم العربي كله ، فمكان كل بلد عربي يتحدثون اللغة الدارجة المحلية مثلما يتحدثون في الوقت نفسه باللغة الادبية العامة بالنسبة لجميع البلاد العربية ، لكنها عمليا غير مفهومة للغالبية العظمى من العرب الذين لم تتح لهم فرصة الالتحاق بالمدارس.

والكتاب مضطرون بحكم التقاليد أن يكتبوا أعمالهم باللغة الأدبية ، وكان محمد حسين هيكل أول من بدأ يقدم أحاديث الشخصيات باللغة المحلية الدارجة ، وقابله في ذلك الكتاب التونسيون الشبان ، حينما لجأوا جميعا وفي حسم الى الحديث « بلغة الشارع » التي يتحدث بها الفقير التونسي. (6)

وفي قصة « القمح وزيت الزيتون » التي تنسب الى قلم محمود طرشونة يشغل المكانة الرئيسية فيها قضية النضال الحيوي والملاح

(6) هذه الملاحظة تثير نقاشا طويلا ، ويكفي ان نذكر بان الذين يكتبون بالدارجة في تونس أو يزجونها في كتاباتهم لم يتابعوا م . ح . هيكل الذي ليس هو أول من كتب بها في مصر . ففي مطلع القرن الحالي ظهرت في الصحف التونسية الكتابة بالدارجة ، بل وتخصصت لها صحف بكاملها . أما في مصر فإن الكتابة بها ظهرت منذ القرن الماضي . (ك)

جدا ضد العادات الراسخة باحكام لاختفاء الفقر بطريقة متقنة ،
والتظاهر بالغبى .

ومحمود طرشونة يسخر من الرواد الدائمين للمقاهي التونسية ،
ويندي فرع هؤلاء من أن يعرف شخص ما أي شيء عن فقرهم ،
كما لو كان ذلك شيئا فاضحا على الحقيقة .

والقصاص الشاب محمد الصاحبي الحاج يطالعنا بانتاجه الثري
المنتظم في شكله الموجز ، وتتميز قصصه القصيرة بالبناء المحكم ،
والتحول الفجائي للأحداث ، والحلول غير المتوقعة .

ففي قصته « البضاعة الجيدة » يصور المؤلف بسخرية تلك
العادات القديمة لزواج البنت الكبرى أولا ، ثم البنت الصغرى
كما يسخر من عادة تحريم رؤية الخاطب خطيبته قبل اتمام الزواج .

والحاج يبرز أن منطق الحياة المعاصرة يوجد التزاما أحمق وغير
محتمل بالأوضاع الماثلة .

وفي جميع أعمال الكاتب التونسيين المعاصرين على وجه
التقريب تنعكس هذه أو تلك من مسائل النضال الوطني التحرري ،
ففي قصة الكاتب الشهير محمد فرج الشاذلي المعنونة « مصرع
صالح » يحب البطل عمله في الفلاحة ، لكن الشعور بالنقص ،
والفرع من المستعمرين يقوده الى صفوف المناضلين ، فيلتحق
بفصائل القدائين .

وفي السنوات الأخيرة ظهر في الأدب التونسي بعض الكتابات من النساء، وأكثر هؤلاء يكرسن قصصهن لمجموعة من الموضوعات الخاصة بالمرأة.

من هذه القصص على سبيل المثال قصة أمينة بنت مصطفى، وهي قصة « سر خديجة »، 1967، ويسودها في الواقع أسلوب المذكرات التهذيبية، فالكاتبة تنصح الرجال التونسيين بأن يختاروا زوجاتهم من بنات وطنهم، وألا يركبوا البحر الى فرنسا، فحتى النساء لا يتميزن بشيء هام من وجهة نظر الأخلاق الإسلامية.

ومن الكتابات الشهيرات في تونس ناجية ثامر، التي ألقت كثيرا من المسرحيات، والمقالات النقدية، والأعمال الأدبية، كما قدمت كثيرا من الموضوعات النسائية، ففي قصة « غناء البابل » تتحدث عن غيرة الحماة من زوجة الابن، تلك الغيرة التي لا يخفف منها سوى ظهور حفيدها الذي جاء الى هذا العالم.

وفي قصة « ابريق الشاي » تتحدث ناجية ثامر — دون أن تعتمد الإلهام — عن الحياة القاسية التي يحياها الاجير التونسي.

انها تبرز طابع الحزم والصلابة الأصلية المثيرة والمعتزة بروح الشبات في النضال.

وبعد.. فلقد ظل الأدب التونسي حتى هذه اللحظة غير معروف خارج حدود بلاده الا للقليلين، مع أنه بلغ مستوى فنيا عاليا.

ونأمل أن يؤدي نشر مجموعة « الوجه الجديد » — بالرغم من التحديد المرسوم لهذا الرصيد المتواضع — شيئا من التوسع في تقوية الصلات الثقافية بين الاتحاد السوفيتي وتونس حتى يمكن أن يتعرف القاري السوفيتي — بطريقة أفضل — على واحد من الآداب العربية المعاصرة، وهو أدب يطور نفسه من عام الى عام، وينظم قواه الإبداعية، أدب يقدم بنفسه في الوقت الراهن أهم ظاهرة ثقافية».

وأخيرا يحىء تعريف المحررة بكتاب هذه المجموعة على الوجه التالي :

محمد الصاحبي الحاج

كاتب تونسي شاب، وقد تم تحقيق ترجمة قصته « البضاعة الجيدة » عن نص منشور في مجلة الفكر، العدد السادس، عام 1967. أما ترجمة قصته « الوجه الجديد » فهي محققة عن نص منشور بالعدد الثالث من مجلة الفكر لعام 1966.

ولم يسبق أن نشر له شيء في اللغة الروسية من قبل:

محمود طرشونة

كاتب تونسي شاب، وقصته « القمح وزيت الزيتون » مترجمة عن نص منشور في العدد الثامن من مجلة الفكر لعام 1966. ولم ينشر لهذا الكاتب قبلها شيء في اللغة الروسية.

محمود بلعيد

كاتب واقعي تونسي شاب، معروف بقصصه التي تتناول الأوضاع القاسية لحياة العمال الذين تجلدهم العادات الوحشية، والأباطيل والخرافات. وترجمة قصته « سيدي سالم » محققة عن النص المنشور في العدد السابع من مجلة الفكر عام 1967.

وقبل هذه القصة لم ينشر له شيء في اللغة الروسية.

محمد فرج الشاذلي :

ولد في القيروان عام 1927، وهو كاتب تونسي معروف باتجاهه الواقعي. وفي قصص محمد فرج الشاذلي وصف رائع لحياة الشعب وطبيعة الوطن وأعمال الفلاحين. وله مجموعة قصصية مخصصة للحركة الوطنية التحريرية. وقصته المترجمة « مصرع صالح » مأخوذة عن نص منشور في العدد الثالث من مجلة الفكر لعام 1955. ولم ينشر لمحمد فرج الشاذلي قبل ذلك شيء في اللغة الروسية.

محمد المرزوقي

ولد محمد المرزوقي عام 1916، وهو كاتب تونسي مشهور، الى جانب أنه شاعر، وناثر، وعالم، وجامع لنصوص التراث الفولكلوري التونسي.

وكثير من قصصه منشور في المجلات التونسية، والى قلم هذا الكاتب تنتمي مجموعة قصص « بين زوجتين » المنشورة في تونس عام 1957، ومجموعة « عرقوب الخير » المنشورة في تونس

عام 1956، ومجموعة « في سبيل الحرية » المنشورة في تونس كذلك في عام 1956، وغيرها.

وترجمة قصته « صاحب المغارة » مأخوذة عن نص منشور في مجموعة « عرقوب الخير »، أما قصته الأخرى « المتبوع » فمأخوذة عن مجموعة « أرضنا العزيزة ».

الطيب التريكي

كاتب تونسي معاصر، وترجمة قصته « فرحة الأولاد » محققة عن نص منشور في العدد الأول لعام 1965 من مجلة الفكر.

ولم ينشر لهذا الكاتب شيء في اللغة الروسية قبل هذه القصة.

ناجية ثامر

كاتبة تونسية مشهورة، ولدت في دمشق، ولكنها تنحدر من أسرة تونسية. (7)

وناجية ثامر مؤلفة قصص ومسرحيات ومقالات في علم الأدب، وإلى قلمها ينسب عدد من المجموعات القصصية، مثل مجموعة « أردنا الحياة » المنشورة في تونس في الستينات.

(7) المعروف ان السيدة ثامر حاصلة على الجنسية التونسية ، ومستقرة بتونس منذ ثلاثين سنة . (ك)

وترجمة قصتها « ابريق الشاي » محققة عن نص منشور في العدد الأول من مجلة الفكر عام 1961.

ولم ينشر لناجية ثامر أي إنتاج في اللغة الروسية من قبل .

هذا هو الجهد المخلص الذي بذلته المحررة الدكتورة أولجا فرولوفا في تعريف القراء السوفييت بلون من ألوان الأدب التونسي المعاصر في هذا الحيز المحدود، ومع أن المحررة تقول عنه إنه « رصيد متواضع » وعلى الرغم من رأيها في تبرير استخدام اللغة الدارجة المحلية إلا أنه يبدو من خلال كلماتها التعاطف والإخلاص وروح الصداقة للأدب التونسي، وتلك بداية لزحف الأدب التونسي على المجالات العالمية، ويبقى بعد ذلك نشاط الأدباء التونسيين وانطلاقهم، ويبقى دور الأجهزة الرسمية في تنمية الصلات الثقافية على نطاق أوسع، وتبقى اللقاءات والندوات والمؤتمرات وتبادل الزيارات.

ومن الأمور الملحوظة في هذا الصدد ذلك الدور الإيجابي الذي لعبته مجلة الفكر التونسية في التعريف بالأدب التونسي، وربما كان دورا طبيعيا وغير متعمد، ولكنه أثمر هذه الثمرة الطيبة لخير الأدب التونسي الصاعد.

الفصل الثاني التجديد في الأدب التونسي

تاريخ الأدب العربي المعاصر في تونس — شأنه شأن الأدب في بقية بلدان العالم العربي الأخرى — يرتبط تطوره حتما ببداية نمو التجديد الثقافي في البلاد.

فلقد أدى ظهور رأس المال الأجنبي في إفريقيا المعاصرة وميلاد الصناعة المحلية في القرن التاسع عشر، الى تغيير في جميع مكونات الحياة الاجتماعية، ومن بينها هياكل الثقافة والتعليم.

وتحت ظروف الحماية الفرنسية التي استمرت طوال خمسة وسبعين عاما كان تطور الأدب التونسي بطيئا الى أقصى حد، الا أنه بالرغم من كل هذا كان يتعرض — مثلما تعرض الأدب المصري والأدب السوري في تلك الفترة — لتحول ملحوظ، فلقد جدد نفسه وأثرى إنتاجه، وتخلّى بعض الشيء عن قوانين الشعر التقليدية الصارمة، وظهرت فيه فنون جديدة.

ومع ان هذا التطور بدأ في تونس متأخرا عنه في بلدان الشرق العربي، الا أنه منذ الستينات من القرن التاسع عشر ظهرت أول

مطبوعة حكومية، واول جريدة تونسية، وأول ترجمة لأثار المؤلفين الأوروبيين (١).

غير أن اليقظة الحقيقية. للثقافة الوطنية في تونس لم تصل الى المستوى الذي وصلت اليه البدعة الأوروبية، و « المهمة التمدنية العظمى » للاستعمار الفرنسي، لكنها وصلت الى القدر الملائم لنشاط القوى الوطنية، ونمو الوعي القومي في البلاد.

خير الدين التونسي

وترتبط بداية مرحلة اليقظة الثقافية في تونس بظهور أسماء مثقفي تونس في القرن التاسع عشر، من أمثال خير الدين التونسي، الذي ينسب اليه نشاط السنوات الأولى لحكم المشير أحمد باي (1837 - 1855) المناصر الإيجابي للإصلاح، فلقد شغل خير الدين كثيرا من المناصب العسكرية والسياسية في بلاط أحمد باي وخلفائه، وحصل خير الدين باستقامته على اعتراف الجميع بمواهبه وقدرته على استغلال منجزات الحضارة الأوربية في مجال سياسة الدولة، والحقوق الاهلية والشرعية في ميادين الفكر الاجتماعي، وفي تطوير الصناعة اذ كان يعتبر أن ذلك هو الطريق الوحيد والخاص للوصول بالبلاد الى الاستقلال السياسي والاقتصادي.

إن خير الدين يبسط نظريته الخاصة بتطور الحضارة الاوربية في كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » الذي أنجزه عام 1867 (2).

وكان نشاطه موجها الى الأهداف النهائية لتحويل تونس الى دولة
بورجوازية ديمقراطية من الطراز الأوربي ، وقد أثار نشاطه
اعتراض المحافظين المتقنين على نقاء الدين، ورسوخ قوانين
الشريعة، خاصة وأن خير الدين كان يدافع كذلك عن رأيه في
ضرورة تعليم المرأة.

والى جانب ذلك كان نشاط خير الدين خصبا ومثمرا الى أقصى حد
فبمساهمته تم افتتاح أول معهد عال على النظام المدني في البلاد
عام 1875، وهو الكلية الصادقية، وأنشئت المكتبة العبدلية،
وقد استطاع أن يجري تغييرا في المناهج التقليدية للتعليم في الجامعة
الإسلامية، جامعة الزيتونة، حيث وسع مجال تعليم العلوم
الطبيعية بدرجة كبيرة (3).

وأكثر من مرة أفصح خير الدين عن آرائه في ضرورة النضال
في سبيل حصول البلاد على استقلالها(4)، والعناية بالشخصية
الانسانية، ومراعاة القوانين والعدالة، والى جانب هذا فمن
الضروري أن يكون للانسان ركيزة عقائدية، لا بالنسبة لعالم الغيب
فحسب، ولكن كذلك على الارض، ومن هنا تتكون دعامة من
الكتاب والشعراء التونسيين في المستقبل.

لقد تم احتلال تونس في عام 1881 لسكي تتحقق مصالح رأس
المال الفرنسي، ولم يتم هذا الاحتلال الا من أجل أن يعزز الوضع
الذي كان قائما من الوجهة الرسمية عند ذلك الوقت، والذي كان
يمكن أن نطلق عليه احتلالا جزئيا لتونس(5).

كذلك أُتيحت للأجانب منذ عام 1856، وبمقتضى « المرسوم العالي » للسلطان فرصة تملك الأراضي والعقارات في جميع أقاليم الامبراطورية العثمانية(6)، وفي تونس أسلم الوضع الممتاز لأصحاب المشروعات الفرنسيين الى الوضع الذي جعلهم يملكون كثيرا من آلاف الهكتارات من الأراضي الخصبة بدون ثمن، بل أكثر من ذلك كانوا يحصلون على امتيازات لإنشاء المشروعات المختلفة التي ترتبط باستغلال الثروات الطبيعية في البلاد، والمرافق والوسائل الأخرى، كالمواني، والطرق الحديدية والبرية الموصلة بين الأقاليم الصناعية ومراكز تصدير المواد الأولية، وكذلك البرق وأنابيب المياه ومصادرها وغير ذلك.

ولقد فرض الفرنسيون رقابة كاملة على الاقتصاد التونسي، فاستولت الشركات على مجالات التجارة، وقيد نشاط المشروعات التجارية للبورجوازية التونسية، وذلك بغمر تونس بالمنتجات الصناعية الرخيصة، وحرمت الحرفيين المهرة من وسائل العيش، فلم يصمدوا للمنافسة، بل اضطروا أن يتوقفوا عن إنتاج كثير من السلع التي اشتهروا بها في جميع أنحاء الشرق العربي.

وبهذه الصورة، ونتيجة للاستعمار الأوروبي تأثرت أوضاع جميع طبقات المجتمع التونسي، الا أن أهل المدن كانوا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يشكلون أغلبية سكان البلاد، أما تجار الأراضي، والبورجوازية الصغيرة المرتبطة بتطور الحياة المدنية فقد كانوا كثيري العدد بدرجة كافية، وقد ولدت الحركة السياسية الموجهة ضد الحماية الفرنسية في أوساط البورجوازية المدنية بصفة خاصة(7).

فقد أثار تدهور الوضع المادي روح العداء ضد الفرنسيين في كثير من الأسر الأرستقراطية التي أملت نتيجة لاحتكار الأجانب للمناصب الكبرى في دوائر الإدارة الحكومية.

بلود الكفاح الوطني

وفي الثمانينات من القرن التاسع عشر ظهرت في أوساط البورجوازية المثقفة لأول مرة تلك المنظمات القائمة على الأساس الوطني، وكانت أولاها جمعية « الأربعين »، التي نظمتها أستاذ جامعة الزيتونة، البشير صفر (8)، واشترك في عضويتها مجموعة منحدرة من الأسر البورجوازية والأرستقراطية، من الحاصلين على التعليم في جامعة الزيتونة الدينية، والمحامين، والصحفيين، ومنذ عام 1888 أصبحت هذه الحلقة تصدر جريدة « الحاضرة »، وقد انحصر نشاط حلقة صفر في الدعوة الى فكرة الطابع الثقيفي على أساس الانتشار الواسع في ذلك العصر لفكرة الإصلاح في العالم العربي.

وقد اعتمد صفر على نفوذ المصلحين الكبار في الإسلام، وبصفة خاصة على واحد من أبرز قادتهم، وهو الكاتب الاجتماعي السياسي المصري محمد عبده، الذي أمضى بتونس بضع سنوات (9) في ابان اضطراره للتزوج عن مصر في الثمانينات.

وفي عام 1903 اعتبر التوسع الاقتصادي والسياسي للعرب في البلاد العربية واحدا من أشكال النضال المسيحي ضد الإسلام، أما الاخلاص للإسلام، وعادات الأسلاف فكان يعتبر معارضة للعلاقات

مع مسيحي أوروبا، وبدلاً من هذا رأى المثقفون التونسيون في القرن التاسع عشر الطريق الصحيح إلى بعث عظمة ماضي البلاد، وأهليتها لمجابهة الاحتلال الأجنبي بالإصلاح الاجتماعي، والدعوة إلى المعرفة على أساس الوصول إلى المستوى العالمي.

وعلى المجتمع الجديد - في اعتبارهم - أن يسعى لا في طريق محاكاة البلاد الأوروبية، بل على أساس « الحقيقة » والدين الإسلامي المنقحي من الخرافات، والتكيف مع متطلبات اليوم.

ولكن لكي نحافظ على تعاليم الإسلام ينبغي أن نظفر باعتراف الأوربيين، ولهذا كانت المهمة الأساسية لهذه الأيام هي إصلاح التعليم، وتحسين أنظمتهم.

فبالإضافة إلى الكلية الصادقية المؤسسة عام ١٨٧٥، حيث كان يسود التعليم باللغة الفرنسية، وبمبادرة صفر في عام ١٨٩٦، افتتحت الجامعة الخلدونية (10)، المسماة على شرف المفكر المغربي العظيم عبد الرحمان ابن خلدون الذي عاش في فترة ازدهار الثقافة الإسلامية في القرن الرابع عشر.

وأصبحت هذه الجامعة مركزاً للثقافة الجديدة، وتعليم اللغة العربية، ولكنها هنا اقترنت بتدريس العلوم الطبيعية على أساس الطرق العلمية العصرية، وعلا اللغة الفرنسية فقد كان يدرس بها تاريخ نظام العلوم الأدبية التقليدية، والأنساب العربية، وفنون البلاغة العربية، والشريعة الإسلامية، وتفسير القرآن، والأدب العربي الكلاسيكي (11).

وكان الطلبة الذين ينهون دراستهم في هذه الجامعة يحصلون — بالإضافة الى الدبلوم — على بكالوريوس العلوم (12) كل في مجاله، وفي الثقافة الشرقية والغربية، وعدا ذلك فإنه بفضل جهود الوطنيين في بداية القرن العشرين أجريت في تونس بعض التجديدات والتطويرات في المدارس القرآنية التقليدية أو الكتاتيب، كما افتتحت المدارس الريفية (13).

ملائع النهضة الثقافية

وعلى تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين تزايد عدد المطبوعات الدورية في تونس بشكل واسع، فصدر باللغة العربية جرائد ومجلات «الحاضرة» عام 1888، و «الرائد التونسي» عام 1888 (13) و «الزهرة» عام 1890، و «البصيرة» عام 1893، و «سبيل الرشاد» عام 1895، و «السعادة العظمى» عام 1904، و «العلم» عام 1904، و «الصواب» عام 1907، و «التقدم» عام 1907 (15).

وكانت مهمة التوسع في المعرفة من خلال المطبوعات الدورية سببا في ظهور فن المقال. كما كانت مجموعة الموضوعات الجديدة للبحوث والمقالات سببا في بعض التبسيط الذي حدث في اللغة والاسلوب بالنسبة للمؤلفات الاجتماعية والسياسية، وتحريرها من التراكيب اللغوية المهجورة.

ومن الواجب أن نذكر أنه لم تظهر في تونس في القرن التاسع عشر أعمال من انتاج الترجمة الثقافية الموجهة الى غرض معين (16)،

على غرار ما حدث في لبنان وسوريا ومصر (17) على سبيل المثال، بفضل نشاط مدرسة الألسن، التي قامت بإشراف رفاعة رافع الطهطاوي، إذ لم تتح مثل هذه الفرصة في تونس للاستفادة بانتاج المؤلفين الأوروبيين في فروع المعرفة المختلفة الا في الثلاثينات من القرن التاسع عشر(18).

والحقيقة أن مترجمات المطبوعات الفنية والعلمية المنقولة عن الغرب، والصادرة أخيرا بالقاهرة وبيروت أخذت تتغلغل في جميع بلدان العالم العربي، ومن بينها تونس، الا أن انتشار المعارف والأفكار الأوروبية كان في بداية الامر قد جاء أساسا من خلال خريجي الكليات والجامعات الذين حصلوا على تعليمهم في الغرب(19).

ويبدو أن الصورة الجديدة الأخرى للابداع الأدبي بالذات ظهرت في البلاد عن طريق المقالات والتقارير الخاصة عن رحلات التونسيين خارج بلادهم.

ومن نماذج هذا الإنتاج « الرحلة الحجازية »، للشيخ السنوسي، حيث يقص عن أسفاره في بلدان البحر الأبيض المتوسط. ووصف آثار الفن الإسلامي في اسبانيا لعلّي الورداني. ورسالة باريس لمحمد بالخوجة(20).

وانتاج هذا النوع من الطراز الأدبي يحتوي - عدا الانطباعات الخاصة - على مادة مدركة محددة.

والتعصب لفكرة الإصلاح الإسلامي، والاهتمام بماضيه القومي - يمكن أن يوضح ظهور تراجم البارزين من الشخصيات الإسلامية في الثمانينات، ففيما بعد وجدت أفكار محمد عبده - على سبيل المثال - انعكاسا في الإنتاج الذي اعتبره النقد التونسي أول ترجمة للرواية القومية في مثل رواية « الهيفاء وسراج الليل » لصالح سويسري عام 1906.

وعند بداية القرن العشرين وجدت نزعة ملحوظة الى تغيير الاتجاه الثقافي، فقد رأى أنصار بعث الماضي القومي للبلاد - الذين حاولوا أن يبرهنوا على رأيهم - أن تجديد الدين الإسلامي قادر على أن يجعله أساسا للتقدم، وأن يصل بالبلاد الى الاستقلال، لكنهم قبلوا بمعارضة شديدة من جانب أنصار النزعة الغربية.

ولقد نشأ في بداية القرن الحالي في تونس اتجاه يرفض شعارات مجديدي الإسلام، وقد كان هذا الاتجاه منجذبا الى الفكرة الأوربية وكان يقود هذا الاتجاه المحامي علي باش حانية الذي كان ملاصقا لمجموعة صفر، ففي عام 1905 رأس جمعية خريجي الصادقية التي كانت تبشر النشاط الثقافي في البلاد.

وفي تلك الآونة أخذ عدد أنصار فكرة الجامعة الإسلامية في البلاد جميعها يقل، وفي عام 1907 وحد صفر وباش حانية جهودهما، وأنشأ حزبا هو حزب « تونس الفتاة »، وكان معظم أعضائه بعيدين عن الثقافة العربية الإسلامية، بسبب أنهم كانوا قد تلقوا تعليمهم في فرنسا، وكانوا يؤيدون فكرة ضرورة اعتناق شعب البلاد للحضارة الغربية، وتحريرها من « الذهول العقلي »، وتطويرها على أساس النظام الغربي في الثقافة والتعليم.

وفي هذه الفترة الاولى من العمل الإصلاحى الثقافى الإيجابى لعب المثقفون دورا هاما فى الحياة الاجتماعية التونسية، وكان الناتج النهائى لهذا الدور هو اعداد الأرض للنضال الوطنى التحررى فى المستقبل، لكن هذه الفترة لم تقدم شيئا من الإنتاج الأدبى الملحوظ، وإذا كانت قد أثارت فى مصر وسوريا اهتماما ايجابيا بماضى العرب، ساعد على ميلاد فن جديد هو فن الرواية التاريخية، فانها فى تونس لم تحدث شيئا مشابها.

والذى حدث فى تونس هو أن الكتاب الاجتماعيين والسياسيين هم الذين نشطوا فى الغالب، فتضاعف عدد المجلات والجرائد، ونشطت الأبحاث والمناظرات الحيوية الكثيرة الحركة على صفحات صحف أنصار الاتجاهات المختلفة، مما أدى الى وفرة كبيرة فى مجموعة موضوعات المقالات، كما أدى الى تحول فى شكل الأساليب القديمة، وتقريب لغة الصحافة من لغة الحديث اليومى.

وفى بداية القرن العشرين وجدت كذلك أولى الدلائل المميزة والملحوظة فى تجديد الشعر التونسى.

فجانب الشعر الممثل لهذه الفنون العربية الكلاسيكية، كالمدهج والهجاء والاخوانيات بأسلوب القصيدة التقليدى من جهة، والممثل من جهة أخرى لشعر الحيل الشكلية فى أسلوب عصر التدهور -- بدأ يظهر فى تونس انتاج جديد فى الشكل بسحاولة المؤلفين الذين يمكن أن نعتبرهم مجرد طلائع للإبداع المقبل للشعراء المجددين الذين أثروا الشعر التونسى فيما بعد بالمضامين الجديدة.

ومن هذا الإنتاج الطليعي شعر أحد الشعراء التونسيين الكبار وهو محمد الشاذلي خزندار، الذي اشتهر عام 1910 بأنه « أمير الشعراء » التقليدي الراسخ العقيدة، الذي كتب بأسلوب المؤلفين العرب في القرون الوسطى، وقد حاول خزندار أن يبعث بشعره الحماسي في العرب روح النضال من أجل احياء الثقافة، وإيقاظ الأمة للتحرر من المستعمرين.

وبإزاء اعجابه بالقيم الروحية للعالم الإسلامي رأى خزندار أن الطريق الى التقدم هو احياء تقاليد الإسلام الصحيح، والاستمساك بأسلوب حياة الأنصار المتحمسين للرسول محمد، وهم الخلفاء الراشدون.

والى جانب ذلك بدأت تظهر على صفحات الصحف التونسية مقالات، كان من أولها مقال عبد العزيز المسعودي عن « الشعر والتقدم »، الذي نشر عام 1903، حيث حاول الشعراء أن يطرحوا مشاكل رسالة الشعر، ومحاولات حلها، وتحديد دور الشعر، وامكانية تطوير النظام التقليدي للقصيدة، والانصراف عن الفنون المعتادة، كالهجاء والمديح.

ولقد عارضوا الشعر القديم كوعاء للمعلومات اللغوية، ونماذج كاملة من فنون البلاغة، ومجموعة من معلومات العرب التقليدية عن العالم — عارضوه بشعر عاطفي معاصر، وعبروا عن كل انطلاقات النفس البشرية بمحاولة اختيار شكل الشعر الحر. (21)

وابتعادا عن المحاولات الشكلية، واللعب بالتخميس والتشطير — وجد هذا الشعر نفسه قادرا على أن يتفطن الى كل ما يقع في العالم المعاصر، وعلى أن يحقق مطالب الحياة الواقعية، وعلى تجميل صورة الحياة، وعلى الدعوة الى النهضة الاجتماعية، والى النضال في سبيلها — وهذه هي رسالته الأساسية.

ومع أن موقف أنصار هذا الاتجاه أصبح يتأكد يوما بعد يوم، ويتوطد أكثر فأكثر، فإن وجهة نظرهم أثارت أكثر من مرة ذلك النقد الإيجابي لأنصار القديم، وهكذا ظهر على سبيل المثال في جريدة « المنير » عام 1920 مقال أبي تميم، الذي أوضح فيه المؤلف أن جميع المفاهيم التي تدرج تحت عنوان « الشعر المعاصر » اليوم شيء سيء، ولكي تصدر عليه حكما نهائيا علينا أن نشكل شيئا أشبه بمحكمة شعرية، بأن نعقد مؤتمرا في مدينة القيروان، وهي العاصمة القديمة لإفريقية منذ القرن السابع، والمعروفة بشعرائها. وعلمائها، والتي لعبت في القرن العشرين دور المركز للثقافة التقليدية.

ولقد استمر الجدل بين أنصار التجديد الأدبي والمعجبين بالاتجاه التقليدي سنوات طويلة لاصدار حكم لا دليل عليه، مبني على أساس سليم لنقد الشعر الجديد، ولم تكن نظراتهم البعيدة تقابل بتأييد إيجابي حتى لدى الشعراء الذين يسعون الى المحافظة على المقاييس الشعرية التقليدية، وهكذا.. ففي عام 1919 أيد الشاذلي خزندار أمير الشعراء موقف أنصار تجديد الشعر في المحاضرة التي خصصها لذلك في الجامعة الخلدونية عن « حياة الشعر وتطوره »، وقد أكد أن

الشعر هو قبل كل شيء صوت الروح، ولهذا فان رسالته الأساسية هي تصوير الإنسان وعواطفه وكل ما يشكل حياته.

ونرى لزما علينا أن نشير الى أن الاتجاه الى تجديد أشكال الانتاج الادبي ومضامينه قد أصبح ملحوظا عند بداية العشرينات، حينما انتشرت في طول البلاد وعرضها أنباء الوقائع الثورية في روسيا، فأحدثت دويًا هائلا بين الشباب التونسي (22) كما أثرت الانفصالات المضادة للامبريالية والإرادة الثورية للشعوب في تركيا ومصر تأثيرا حتميا على وعي التونسيين، وكان الدور الأول لهؤلاء الذين أمضوا سنوات الحرب العالمية الأولى في أوروبا في صفوف الجيش الفرنسي، او في عداد العمال المهاجرين، وبهذه الصورة أصبحوا قرييين من الأحداث العالمية. ومع اختلافهم في استيعاب الأحداث الثورية فانهم قد فهموا مع ذلك أن عالم التمثيل المألوف والتكوين التقليدي يحتاج الى تغييرات حاسمة وجذرية.

وبمقارنة العالم الأوربي بالعالم الإسلامي استيقظ الفكر، ونشط الجزء التقدمي من المجتمع، واجتذبت الأفكار الجديدة عن نشوء الإنسان في الظروف المعاصرة أمزجة الشباب الرومانتيكي.

الطاهر الحداد

ولقد كان من بين ممثلي الشعر الجديد المتميزين في الأدب التونسي إبان العشرينات والثلاثينات الطاهر الحداد (1899 — 1935)، وأبو القاسم الشابي (1909 — 1934).

تلقى الطاهر الحداد تعليمه التقليدي في جامعة الزيتونة، وكان من أوائل تجاربه الشعرية بضع قصائد غنائية صوفية.

وفي عام 1920 أصبح عضوا في الحزب الليبرالي الدستوري الذي تم تشكيله في تونس عام 1919، ومن تلك اللحظة وجد نفسه في الأساس من العلاقات بين الأنشطة السياسية والاجتماعية.

والطاهر الحداد من أنصار فكرة الكاتب المصري قاسم أمين الذي نادى بتغيير الوضع الراهن من الناحية الاجتماعية والشرعية للمرأة في المجتمع الإسلامي.

وقد استمر الطاهر الحداد في تطوير آرائه، كما تأثر بأفكار قائد تجديد الإسلام جمال الدين الأفغاني، وذلك في كتابه « امرأتنا في الشريعة والمجتمع ».

كذلك يكتب الطاهر الحداد عن وضع المرأة في البلاد العربية، فلا يجد له تبريرا قانونيا من الشريعة، وإنما هو نتيجة ما تسرب لدى الشعوب المختلفة من عادات وخرافات قومية.

وانطلاقا من هذا يدافع الطاهر الحداد عن حق المرأة المسلمة في التربية المعاصرة وفي التعليم، ولا ينبغي إطلاقا أن يجر ذلك وراءه انهيارا في الأخلاق.

وانتقاضا ضد الوضع المتدهور للمرأة في الأسرة والمجتمع اقتفى الطاهر الحداد أثر قادة الإصلاح في الإسلام، فعارض تعدد الزوجات، كما عارض الحجاب، وأكد أن كل هذه أمور لا تجد تعصيها

من القرآن، ولهذا فليس لها أساس شرعي، وإنما هي تنحدر من العادات الجاهلية القديمة لبعض القبائل العربية.

والتأييد الملموس للطاهر الحداد يتمثل فيما قدمته الحركة النقابية التونسية التي اختلفت عند هذا مع موقف قيادة حزب الدستور الذي كان مشفقا من تزايد التضامن العمالي، فطالب في عام 1925 بحل المنظمة النقابية للعمال التونسيين التي أنشئت في السنة السابقة باسم « الاتحاد العام للعمل التونسي ».

وقد كتب الطاهر الحداد كتابا عن تاريخ منظمة العمال التونسيين، وهو كتاب « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » الذي كان في الحقيقة مخططا فكريا للحركة العمالية في البلاد.

ولقد ظل الطاهر الحداد خريج الزيتونة نصيرا للطريقة التقليدية في التعبير الشعري فيما بعد، لكن مجموعة موضوعاته الشعرية كانت جديدة تماما بالنسبة لهذه الآونة، انه يكتب عن فاقة الشعب ومسغبته، ويدعوه الى الاستمسك بالشجاعة، والمعارضة الحاسمة ضد الاستغلال، كما يكتب عن ضرورة تسليح الشعب بالمعرفة من أجل احراز النصر في نضاله.

أبو القاسم الشابي

والخواص الجديدة تماما هي التي ميزت ابداع مؤلف نابغة آخر في هذه السنوات يعد أكبر الشعراء التونسيين في القرن العشرين، وهو أبو القاسم الشابي الذي عاش حياة قصيرة جدا.

ولد الشابي في قرية توزر في جنوبي تونس، وتلقى تعليمه في المدرسة الابتدائية الإسلامية وأتم تعليمه المنزلي، وكان والد الشابي قاضياً، تلقى تعليمه الديني في أكبر جامعة إسلامية عربية، هي جامعة الأزهر، وفي السنوات المبكرة من حياة ابنه لقنه الأسس التقليدية لنظام العلوم الإسلامية، وقواعد اللغة العربية، والبلاغة، والأدب، والفلسفة.

ولم يكن الشابي يعرف أية لغة أوروبية، لكنه أبدى اهتماماً كبيراً بالأدب الأوروبي، وحاول بكل إمكانياته أن يتعرف عليه عن طريق مترجماته، وقد اجتذب انتباهه بشكل خاص إبداع الرومانتيكيين الفرنسيين، من أمثال ألفريد دي موسيه، وألفونس دي لا مرتين، وألفريد دي فينيه، وكذلك تيوفيل جوتييه.

وفي عام 1921 - وهي السنة الثانية عشرة من عمره - أصبح الشابي طالباً في جامعة الزيتونة، وفي عام 1925 كتب أول أشعاره في الهجاء، وهو هجاء لاذع لنظام التعليم الجامعي، والقواعد، ومعلمي القواعد المدرسين القادرين على أن يغرقوا معاني الأفكار في بحر من الجدل اللفظي الذي لا ينتهي.

ومنذ عام 1926 بدأت أشعار الشابي تظهر على صفحات جريدة « النهضة »، ومنذ ذلك الوقت نشطت أعماله الاجتماعية، فقد كان يرأس طلاب الزيتونة المطالبين بتحسين طرق التعليم، والمشاركين في إنشاء نادي الأدب التونسي، وكذلك منظمة الشباب المسماة « الشباب الإسلامي » التي كانت في ذلك الوقت واحدة من أنشط منظمات الشباب في تونس. (23)

وقد حاول الشابي أن يتم تعليمه الذي تلقاه في الزيتونة ، فالتحق عام 1928 بمدرسة الحقوق التونسية التي انتهى منها عام 1930.

وفي عام 1927 ألقى محاضرة في جامعة الزيتونة عن « الخيال الشعري عند العرب » ، وفي عام 1929 أصدرها في كتاب ، حيث أعلن مبادئه في فهم الشعر، وتحرير الإبداع الشعري، ورفض حتمية مقاييس الشعر العربي التقليدي، ونادى باستيعاب الاشكال الجديدة، وتوسيع دائرة موضوعات الشعر العربي، وقد دوت أصداء هذه المحاضرة باعتبارها دعوة حارة الى تجديد الأدب الذي ينبغي أن يعبر عن جميع الأشكال المتنوعة، ومصاعب الحياة المعاصرة، وأن يمنح الإنسان المعاصر مكانته الأساسية.(24)

ويشير الشابي الخبير بالأدب العربي الكلاسيكي في هذه المحاضرة — التي يمكن أن نعتبرها بكل الحق منشورا ابداعيا — يشير فيها الى التباين بين مقاييس الشعر العربي ومقاييس المؤلفين الأوربيين، فالشعر العربي الكلاسيكي هو « معرفة » تقف بازاء « عاطفية » الشعر الرومانتيكي، والحدق في ابداع التعبير المجازي، والقواعد المصورة للكلاسيكية الوطنية، والتفنن في تغيير الموضوع التقليدي، أي الخيال الفني المستقل، هو « الخيال الشعري »، خاصة وأنه في رأي الشابي الموهوب قادر على بعث العالم الداخلي للإنسان، وهذا هو أسمى رسالات الشعر:

واعتراضا على التحديد والجمود وثبات دائرة موضوع الأدب العربي التقليدي انتفض الشابي من أجل اتاحة الفرصة لابداع أكثر

اتساعاً في شعر الحياة الواقعية ، مثله مثل إدراك الإنسان لعلاقاته بالعالم المحيط به ، ومن الممكن أن يجيب الشعر هذه المطالب بالمساعدة على ترسيخ المثل الجديدة.

فالمهام الجديدة تتطلب أشكالاً أكثر كمالاً للتعبير ، ولذا فإنه من الضروري التخلي عن التعبد بالرقى والتعاويد وعن الاحتفاظ بالألفاظ والرواشم التقليدية للتعبير بها عن الوسائل والحدود الشعرية القديمة.

وكلاسيكية الأدب العالمي قادرة على أن تمنح كل شعر تنوعاً ضخماً في الشكل والموضوع ، وفي الوقت الراهن ، حين يستمر احتكاك الثقافة العربية القومية على الدوام بثقافة الشعوب الأوربية فإن من العسير أن يظل الأدب العربي في عزله.

وفهم التأثير الإبداعي للرومانتيكية الأوربية على تحول الإنسان الى عالمه الداخلي يساعد على الاقتراب من تصوير مشاعره بأكثر قدر ممكن من التنوع والحركة ، بأكثر مما تتصور هذه القواعد التقليدية ، وعلى تعميق المضمون التأثري للشعر العربي.

ومع ذلك فإن الشابي لم يدع الشعراء العرب الى التخلي اطلاقاً عن التراث الكلاسيكي.

فاختصار الإنتاج الضخم الذي خلفه لنا الماضي وتهذيبه أمر جدير بالاعتبار ، أما التقليد فإنه لم يعد يسعف الشاعر المعاصر ، بالإضافة الى أن الظروف الجديدة للحياة أصبحت تتطلب علاقات جديدة بالشعر ، وعلى الفنان أن يصور ما يرى ويعحس بنفسه وقد تحرر من التقليد الأعمى — للنموذج.

و « الخيال الشعري عند العرب » ليس هو البحث النقدي الوحيد للشابي، فقد طور أصول منهجه الجمالي في بعض مقالاته، مثل : « شعرنا وشعراؤنا »، و « الشعر : ماذا يجب أن نفهم منه ؟ وما هو مقياسه الصحيح » ؟ ، و « الأدب العربي في عصرنا ».

وأخيرا.. انتهت حياة الشابي وهو في الخامسة والعشرين من العمر لكن إبداعه كان غزيرا ومنوعا، ومن بين الأشعار المبكرة للشابي تلك التي تمثل اللون الآخر من إنتاجه، وهي المجموعة التي تضمنها ديوانه « أغاني الحياة »، الذي نشر قبيل اعلان استقلال البلاد، عام 1955، وأكثر أشعار هذا الديوان مخصص للحديث عن تونس وطبيعتها، كقصائد « تونس الجميلة »، و « من أغاني الرعاة »، و « تحت الغصون ».

ومنذ البداية أثار الشابي في إبداعه موضوع رسالة الشعر في مثل قصيدته « شعري »، ومكانة الشعر من الحياة في قصيدته « الحياة »، لكن الشابي حينما فقد والده الحبيب فيما بعد وجد نفسه مرغما على مغادرة تونس بسبب التدهور الحاد الذي انتاب حالته الصحية، وحينئذ أخذت تسود شعره نغمات الحزن والكآبة والجزع، فهو يقول في قصيدته « شجون » : (25)

هذه صورة الحياة وهذا لونها في الوجود من أمس أمس
صورة للشقاء دامعة الطرف ولون يسود في كل طرس
في ظلام الكهوف أشباح شؤم وبهذا الفضاء أطياف نحس

وشجونه الخاصة يصحبها وعيه بفواجع بلاده، حيث يحرم الإنسان فيها من أساس حياته، وهو الحرية، فهو يقول في نفس القصيدة :

عجبا لي، أود أن أفهم الكون، ونفسي لم تستطع فهم نفسي
لم أفد من حقائق الكون إلا أنني في الوجود مرتاد رمس

... ..

وخلال القصور أنات حزن وبثلك الأكواخ أنضاء بؤس
والقضاء الأصم يعتسف النسا س، ويقضي ما بين سيف وترس
وهذه الأنغام الرشقة الأنيقة تتردد في ابداع الشابي بصورة قوية
والى حد كبير، لكنها كثيرا ما تتغير في موضوع تأكيد الحياة،
حيث يقول من قصيدة « الاعتراف » :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي ومشاعري عمياء بالأحزان
أني سأظلم للحياة وأحتسي من نهرها المتوهج النشوان
وأعود للسديا بقلب خافسك للحب والأفراح والألحان

وفي الأسلوب الإبداعي للشابي نحس في وضوح بتأثير الرومانسية
الأوربية، وفهم الواقع في عالم سلبي مظلم، والسعي الى التحرر،
والجمال كفكر أسمى، وتشخيص قوى الطبيعة، والاعجاب بالشعر،
حيث يوجد صدى لانفعال الشاعر، وبكل هذا كانت تجيش أعماقه
بالشعر الغنائي العاطفي.

لقد فتح مجالا جديدا في محيط الشعر العربي للمشاعر والأشواق
الحيوية، وحاول أن يوجه خيالاته الإبداعية بكل قواها نحو تصوير
العالم الداخلي للإنسان في علاقاته مع قوة التأثير المضادة والحياة

المفعمة بالظلم والشرور ويلوم الشابي مواطنيه غير المبالين على
خمولهم وسليبتهم، فهؤلاء هم - في نظره - « أبناء الشيطان » :

وشقي طاف المدينة يستجدي ليحيا، فخيويه احتقارا
أيقظوا فيه نزعة الشر، فانقض على الناس فاتكأ جبارا
يذر الرعب في القلوب، ويدكي - حيثما حل - في الجوانح نارا

وإذن فعلينا أن نقوض هذا العالم الظالم البغيض المليء
بالدسائس والوصولية والبؤس والتعاسة التي يصورها في قصيدته
« الدنيا الميتة » :

لاقلب يقتحم الحياة، ولا حجي يسمو سمو الطائر الجواب
بل في التراب الميت، في حزن الثرى تنمو مشاعرهم مع الأعشاب
وتموت خاملة كزهر بائس ينمو ويذبل في ظلام الغاب

كما يجب أن نمحو من مجموعة صور الحياة المقبلة الجديدة
كل ما يكبل قوى الشعب، ويرغمه على أن يكابد، ويتعرض للموت،
فهو يقول في قصيدة « النبيء المجهول » :

أيها الشعب ليتني كنت خطابا، فأهوي على الجنود بفأسي
ليتني كنت كالسيول اذا سالت تهدد القبور رمسا برمس
ليتني كنت كالرياح فأطوي كل ما يخنق الزهور بنحس
ليتني كنت كالشتاء أغشى كل ما أذبل الخريف بقرسي
ليت لي قوة العواصف يا شعبي فألقي إليك ثورة نفسي

ولا يقل عن ذلك قوة ما يدوي في إبداع الشابي من إيمان بمستقبل الحرية المقدسة، حين يقول في مطلع قصيدته « إرادة الحياة » :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

ومن تفاؤله بذلك المستقبل العظيم والمجيد الذي يستشف فجره من وراء الغيب يصور ذلك في قصيدة « تونس الجميلة » :

ان ذا عصر ظلمة ، غير أنني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيق الدهر مجد شعبي، ولكن سترد الحياة يوما وشاحه

غير أنه قادر على أن يحرز انتصارا على الشر، هذا الانتصار الذي أعد له العدة بأفكاره التقدمية التي يتصدى بها للواقع، ويتمثل ذلك في أبياته الثلاثة التي جعل عنوانها « سر مع الدهر » :

سر مع الدهر، لا تصدنك الأهوال أو تفزعك الأحداث
سر مع الدهر، كيفما شاءت الدنيا ، ولا يخدعنك النفاث
فالذي يرهب الحياة شقيّ سخرت من مصيره الأحداث

وموضوع التمرد ضد الظلم والاضطهاد يحظى منه بتعبير أكثر وضوحا في إحدى قصائده الرائعة، وهي قصيدة « الى طغاة العالم » :

ألا أيها الظالم المستبد حبيب الظلام عدو الحياة
سخرت بأنات شعب ضعيف، وكفك مخضوبة من دماه
وسرت تشوه سحر الوجود، وتبذر شوك الأسى في رباه

تأمل هنالك أني حصدت رؤوس الورى وزهور الأمل
ورويت بالدم قلب التراب وأشربته الدمع حتى ثمل
سيجرفك السيل ، سيل الدماء ، ويأكلك العاصف المشتعل

وقد أبعد الشابي وراء النطاق كثيرا من الرومانتيكية العربية
الخاصة بتصوير السعادة ، مثل العالم المثالي المجرد لتحرير الروح ،
والسعي الى التحرر من الطغيان والاضطهاد، وهذا ما حدد من
درجة الحماس العالي لابداعه الوطني الأصيل .

وهكذا.. أصبحنا نستطيع ابتداء من الشابي أن نتحدث عن
شيء اسمه التجديد الأصيل في الشعر التونسي.

يعزز ذلك أن الشابي لم يكن مبدعا في الجانب الفكري فحسب ،
بل كذلك في مجموعة موضوعات أشعاره ، فقد حاول التجديد
الكامل في شكل الشعر ومفردات لغته.

وبفضل الشابي وأنصاره تمت تحولات أصيلة في الاستعارات
والصور في الشعر العربي.

والخصيصة الأخرى التي تميز بها أنه – وهو مثال لشاعر الحب
الغنائي – أبطل معالجته عن طريق الرواشم الاصطلاحية التقليدية
لأشكال الشعر التي كانت محببة من قبل ، ولهذا تبدد على يديه
نظام القصيدة العزبية ، وفلاشت القافية الواحدة والبحر الواحد.(26)

وأشعار الشابي تتباين فيما بينها تباينا كبيرا من ناحية اللحن
والموسيقى ، وبعضه يتردد كما يتردد الحديث اليومي غير المتكلف.

والبيت الشعري التعبيري الموجز هو في العادة وحدة كاملة منطقيا، مجازاته غنية بالمتراصفات والاستعارات الجريئة، موجهة في النهاية الى القارئ بألفاظ وتراكيب تحمل الى الشحنات الفكرية الأساسية، وكان كل هذا مما عزز الصبغة العاطفية لأشعار الشابي، وقوى من تأثيرها على القارئ.

ولم يصدر ديوان الشابي الا عام 1955 فحسب، لكننا - الى جانب أشعاره - التقينا في ابان حياته بعدد غير قليل من أعماله. وبالإضافة الى أشعاره وجدنا شهرته تتسع لا في تونس وحدها، ولكن كذلك في خارج البلاد، ففي الثلاثينات كانت مجلة أبولو المصرية - على سبيل المثال - تنشر أشعارا للشابي في كل عدد من أعدادها تقريبا، ولهذا ذاعت شهرة هذا الشاعر التونسي في جميع أقطار الشرق العربي بين كتاب بلدانه وشعرائها، فأصبح ذا شهرة منقطعة النظير.

كذلك أوجدت له طريقته الإبداعية كثيرا من الأنصار والحوارين، قاموا في مواجهة الشعر التقليدي، سواء في تونس أو في غيرها من أكثر البلدان العربية، مثل شوقي بغدادى في سوريا، ومعروف الرصافي وبحر العلوم في العراق. (27) وكمال نشأت في مصر، واسماعيل حسن في السودان، وكثيرين غير هؤلاء وأولئك.

بعد الشابي

بعد الشابي بدأ الشعر التونسي يتطور بطريق آخر تماما، فقد ثارت أمام مؤلفيه بالطريقة الجديدة قضية رسالة الشعر، والهدف من

ابداعه، فأخذ بعضهم يستلهم لكل موقف معاصر حالة مشابهة له من ماضي الشعر البعيد، الذي يرجع الى أيام جاهلية العرب، يوم كانوا ينسبون دور الشاعر الى المنبر السياسي الذي ينتمي إليه.

هكذا فهم رسالة الشعر في المجتمع المعاصر واحد من ممثلي الحزب الدستوري بالذات، وهو محمد محيي الدين. (28)

والواقع أن حركة التجديد في الشعر في تلك الاونة لم تكن تنفصم عن الحركة الاجتماعية، ونضال القوى التقدمية في المجتمع التونسي ضد الجمود والخمول، وكل ما كان يحرك البلاد لكي تخلص نفسها من التخلف والاضطهاد.

النشر الفني

وربما لهذا السبب يبدو النشر الفني أقل إنتاجا من الفنون الأخرى، حيث تندمج مهمة الكتابة السياسية والكتابة الاجتماعية والأدب معا، وقد أمكن استخدام هذا النموذج الأخير في الكتاب السياسي الذي ألفه واحد من قادة الحركة الوطنية التونسية، هو عبد العزيز الثعالبي (1874 — 1944)، وذلك هو كتاب « تونس الشهيدة » الصادر عام 1919، والذي نشر في باريس غفلا من التوقيع، قد استطاع به الثعالبي أن يضع أمام مؤتمر باريس الدولي قضية إعادة دستور 1881 الى تونس، ثم نشر في تونس بطريقة سرية. (29)

ولقد أحرز هذا الكتاب شهرة ضخمة، نتيجة نشر مقتطفات منه في الجرائد التونسية، وحتى تلك اللحظة لم يكن الثعالبي معروفا

الا باعتباره مؤلفا لتلك المقالات التقليدية التي تشيع فيها روح التربية الزيتونية، مثل « حياة سيدنا محمد »، و« روح القرآن ». (30)

أما كتاب « تونس الشهيدة » فهو إنتاج مخطط تماما، وهو على غير العادة، تتضح فيه قوة الإقناع، والحدة الجدلية، وهو يفضح كل أوزار النظام الفظيع للاضطهاد الاستعماري، ويفصل برنامج عمل دقيقا قادرا على أن يسير بالبلاد الى التحرر الوطني، والبرنامج الذي صدر بعد ذلك بوقت قصير، وهو برنامج الحزب الدستوري، انما كان صورة طبق الأصل للمطالب الواردة في هذا الكتاب. والتي التزم الحزب بتأييدها وتقديمها للبلاد. (31)

على الدوعاجي

والواقع أنه لم يظهر في تونس على امتداد الربع الأول من القرن العشرين إنتاج على جانب كبير من الأهمية في مجال النشر الفني. اذ لم يبدأ التونسيون في التعرف على هذا اللون من الإنتاج الا في بداية الثلاثينات، حينما ظهرت القصص الأولى لعلي الدوعاجي (1903 - 1948). (32)

بدأ علي الدوعاجي حياته الخاصة بالعمل التجاري، ثم أخذ في تثقيف نفسه، ثم اشتغل بالصحافة.

والنشاط الإبداعي الكبير لعلي الدوعاجي يتجلى إبان عمله بالإذاعة التونسية، اذ كان يعد البرامج الإذاعية وخلال ذلك كتب

أكثر من خمسمائة قصيدة وأغنية للأطفال، وعدا هذا ألف
خمس عشرة مسرحية. (33)

وكانت المعارف التي تلقاها في المنزل وفي المدرسة الابتدائية
باللغة الفرنسية كافية لكي يتعرف على الكثير من إنتاج الأدبين
الأوروبي والأمريكي، فأعجب بمواهب لندن، كما أعجب بعقريّة
همنجواي، وشتاينبك، وكولوديل، مما أثر في أسلوبه الإبداعي
الذي لم يبد فيه عنصر تأثير هؤلاء المؤلفين على إبداعه فحسب،
بل أكثر من ذلك بدا فيه الاقتباس المباشر لمحور العمل الفني.

وقد اعترف الدوعاجي نفسه بذلك حين سمي إحدى مسرحياته
باسم « راعي النجوم » تقليدا لعمل جاك لندن « جَوَّاب بين
النجوم ».

وتتجلى موهبة الدوعاجي الفكاهية في مسرحياته، ففيها سخرية لاذعة
من القصور البشري، مما أتاح للنقد أن يقارن بين الدوعاجي وبين مولير.

وكان إنتاج الدوعاجي المستقل — أومقتطفات منه — يذاع عن
طريق الإذاعة، أو ينشر في الجرائد، وأحيانا في المجلات، إلا
أن معظم إنتاجه الثري ومسرحياته بقيت مخطوطة، ومن أكثرها
عقريّة — شهادة المعاصرين — « شارع الأقدام المخضبة بالدماء ».

لقد بقيت أغلبية إنتاجه مخطوطة لأنه لم يسمح لنفسه أن يوافق
بهذه الصورة المهيمنة على شروط الناشرين الذين يعرضون أجوار
زهيدة لنشر مؤلفاته. (34)

ومن شهادات معاصريه على قيمة انتاجه ما يقول الناقد التونسي المعروف محمد فريد غازي : « .. في اليوم الذي تنشر فيه قصص الدوعاجي ورواياته يمكن أن ندرك أنه كان لدينا أقدر مؤلف قصة عرفه العالم العربي في هذه الفترة، وهو قصاص لا يقل عن أحسن كاتب أوربي أو أمريكي ».

وفي عام 1962 صدر كتاب مستقل يحمل أشهر أعمال الدوعاجي، وهو « جولة بين حانات البحر المتوسط »، وبه اكتسب فن المقالة العربية التقليدية عن الرحلات مؤلفا لا « ليروح عن القارىء »، ولا لتصوير الانغماس في السكر والعريضة في المواني فحسب - كما يعلن المؤلف في مقدمته - لكنه كذلك يقدم صورة ساخرة سخرية لاذعة بالأخلاق، ويبرز للتونسيين بطريقة النقدية جانباً من جوانب صور الحياة الغربية بصورة واضحة ومدرسة. (35)

محمود المسعدي

أما أكثر أحداث الأدب التونسي أهمية في القرن العشرين فهو ظهور مسرحية « السد » للكاتب المسرحي التونسي محمود المسعدي، التي أصدرها عام 1955، وهي إنتاج ينتمي من حيث الشكل الى الفن الدرامي، لكنها في الحقيقة شبه مسرحية، ومن المشكوك فيه أن تكون مؤلفة للتمثيل على المسرح، بل انها تصوير بطريقة خاصة لأحداث الحياة، أو هي بالأحرى مسرحية فلسفية للقراءة.

ففي الوقت الذي كانت تكتب فيه مسرحية السد كان الأدب العربي المعاصر يجتاز تجربة من نوع مماثل، فالكاتب المسرحي

الكلاسيكي المصري توفيق الحكيم يقف معارضا للرأي الشائع الذي يقول إن المسرحية لا يمكن ان تستخدم بهدف التسلية فحسب، بل يجب أن يكون مثلها مثل أي فن أدبي آخر، يتولى حل المسرحيات الفلسفية الرمزية المطبوعة بالطابع التأملّي الافتراضي بصورة بحثية، مثل «شهرزاد»، و «أهل الكهف»، و «بيجماليون» وغيرها.

وفي الشكل الرمزي يتجسد موضوع النضال بين المتناقضين : بين العقل والقلب، بين الحرية والقدّر، بين الفن والحياة.

ومسرحية «السد» للمسعدي في شكلها التعبيري الرمزي تصور كذلك فكرة عدم الجدوى من نضال الإنسان ضد القدر من جهة، ومن جهة أخرى هي شهادة على سمو النضال في سبيل الرأي، والثقة في هدف نضال الفرد حتى تجاه الموت المحتوم.

فالأحداث تتطور في الوادي القاحل، حيث يكابد الشعب من الجفاف الدائم، ومن هنا فإن الذي حدث هو أن لأجنبي غيلان يقرر أن ينتهي الى الاستسلام، وهو شيء عادي بالنسبة لسكان الوادي، وذلك بالاذعان أمام الآلهة القادرين على كل شيء، وأن يبني السد الذي ينقذ الناس من التهديد المستمر بالجوع والرعب أمام غضب الآلهة.

وفي صراع غيلان الفردي مع الطبيعة والالهة احتمل واحدا وراء الآخر من ألوان الانخفاق.

فالعاصفة، والضجيج، وتمرد العمال، كل هذا كان يبدو من الضروري أن ينتفع بتحذيره، وأن يتذكر أن موته سهل، لأنه ضعيف بلزاء سلطان الآلهة، لكن لا شيء يمكن أن يرغم البطل على أن يتخلى عن خطته بأن يتم بناء السد.

وتنتقم الآلهة منه على عدم خضوعه، فتثور الطبيعة، وتدمر السد، أما غيلان وزوجته فيموتان بفعل الزوبعة الخاطفة.

والمسرحية مكتوبة باللغة الأدبية، وذلك باستعمال الوسائل التشبيهية التقليدية، ويفترض أنه يضع في أساس الرسم التخطيطي المحوري أحداثا واقعية من التاريخ العربي، فقد تم تدمير السد في اليمن القديمة، ولا يمكن أن يقال إن تنظيم مسائل نضال الإنسان ضد الشر، وإظهاره بمساندة الوسائل الرمزية - ظاهرة غير معروفة بالنسبة للأدب العربي، إنه يلتقي في إنتاج الكتاب في القرن العشرين.

وبالإضافة الى ذلك فان انشاء الأدب الدرامي الأكبر حجما، والأكثر موضوعات، الذي تجلت فيه ملامح البطل الملحمي كان بالنسبة للأدب التونسي ظاهرة جديدة تماما، وكما ظهر الجديد استعملت الوسائل الأسلوبية التقليدية للنثر العربي كباعث محوري الى ما ليس تقليديا مطلقا، ومعالجة المشاكل المميزة للقرن العشرين فطنة خاصة للانسان المعادي للقوى الجبارة.

ونتيجة لخلط المركبات غير المتشابهة مطلقا لم يظهر انتاج غير عادي فحسب، بل ظهر انتاج عبقرى، حيث يؤدي الإدراك

الفلسفي للصراع بين المثل الأعلى والواقع يؤدي بالمؤلف الى فكرة ضرورة النضال المحتوم ضد الشر حتى بثمن التضحية.

وفي النقد التونسي كثيرا ما يقارن السعدي بكامو، ويقال إنه طور في « السد » ذلك الموضوع الذي هو مخصص للطاعون، وصخرة سيزيف، ولكن يبدو أنه ليست هناك أسس كافية بالنسبة لهذه المقارنة، حيث لا يشتم لدى المسعدي أي تفتن لأحداث معينة في هذه العصور المعينة في هذا الانتاج غير الموجه الى غرض معين لتمررد البطل.

ومن المحتسل بالنسبة لفكرة التشابه بين هذين الإنتاجين أن يؤدي نفس الوضع لدى المسعدي الى موضوع التمرد الخاص ضد خطل الحكيم، وضد تهيج قوى البيثة، والسلطة القادرة على كل شيء من الآلهة المنتقمة، وكذلك بعض الصور التقريبية لغيلان، وهي صور متناقضة في الظاهر، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن استعمال المؤلف للأدب الخاص بمذهب الوجودية لطوائف العالم غير المعقول الذي ثار على الشخصية - حتى غير المتناسبة مع الحقائق المقررة للحياة الاجتماعية - قد وجد في ظروف الواقع الاستعماري، التحديد الاجتماعي، والمغزى السياسي المكشوف.

وفضلا عن السد فإن هناك زاوية أخرى تنسب الى قلم المسعدي، هي رواية « مولد النسيان »، الصادرة عام 1945 (36) وهي عمل متعدد الموضوعات، ذو مغزى فلسفي باطني، يعني المسرح الخيالي والشخصيات الواقعية، وفي بؤرة مأساته الانسان الذي فقد - بموت زوجته - قدرته على الحياة في العالم الراهن.

وحب الزوجة الثانية لا يمكن أن يخلص الطبيب المدين من عذاب النفس.

ومحاولة للخلاص من الذكرى يكرس نفسه لاختراع شراب سحري للنسيان، وحينما يبحث عما يؤدي الى النجاح يتناول الاكسير، فيموت، لأن شيئاً آخر — عدا الموت — لا يمكن أن يساعد الإنسان على أن يهرب من ماضيه. (37)

وبهذه الصورة تكون محاولة الهرب من الواقع تجرداً صناعياً من المشاكل المؤلمة يكشف عن افلاسه.

وفي قصص المسعدي المكتوبة بروح الإكبار القصصية العربية التقليدية في أشكال محورية مختلفة — تتكرر مجموعة الموضوعات التي يبحث فيها الإنسان بطريقة ما عن مثله الأعلى.

وفي محاولة الهروب من الواقع، والسعي الى التحرر من الأعراف والتقاليد المكبلة للحياة المعتادة — لقيت هذه الجهود حظها في العالم المثالي للجمال، وعلى سبيل المثال في الاتحاد مع الطبيعة.

وإبداع المسعدي يشهد له بسعة الاطلاع، والتضلع في مجال الأدب العربي في القرون الوسطى، وفي التاريخ، والفلسفة، كما يشهد له بالبراعة وتملك ناصية اللغة العربية الكلاسيكية، واستيعاب الاتجاهات الغربية المختلفة في الفلسفة والأدب.

وبمجموعة موضوعاته، وبطريقته الإبداعية الخلاقة — يصبح من العسير أن نعثر على كاتب يضارع المسعدي في الأدب التونسي المعاصر.

ففهم إنتاجه الذي يختلف تكوينه بين الاجتماع والافتراضات الفلسفية ليس ميسورا البتة بالنسبة للجميع (38) ولهذا السبب فإن رواياته وقصصه لا تتمتع بقدر كبير من الشهرة، ومع ذلك فبأسمه ترتبط واحدة من أهم مراحل التكوين والتطور الإبداعي في الأدب التونسي.

البشير خريف

أما الناثر التونسي الكبير البشير خريف فرجع إبداعه الى الثلاثينات، ويتميز اتجاهه بأنه من أنصار المذهب الواقعي.

أنهى البشير خريف دراسته بجامعة الزيتونة عام 1947، حينما كان عمره ثلاثين عاما.

ونشر أول قصصه عام 1937، ثم أخذ يبدل في اتجاهه خلال عشرين عاما، وخلال عقد من السنوات تداول عشرات المهن، وقبلما يستقر نهائيا على رأي أصبح كاتباً.

ومع انتاج خريف الأول اهتدى الى أسلوبه الذي لم يظفر في بداية الأمر باعتراف نقاد الأدب.

انه يكتب الأدب الغض الفصيح، ولكن بلغة تتسم ببعض الصعوبة، وعباراته الشعبية غزيرة، وهو يفضل أن يدير الحوار بالعامية، ويعتقد أن اللغة الشعبية يمكن بل يجب - أن تخصب الأدب.

وفي عام 1957 نشر البشير خريف في مجلة « الفكر » رواية « الإفلاس »، حيث عرض حياة البورجوازية الصغيرة في تونس، والمتقنين التونسيين في فترة ما بين الحربين العالميتين.

والرواية تحكي قصة حب الشاب سليم البرجي حبا لا ينتهي للممثلة لطيفة، وهو ممثل نموذجي للمثقف، لكنه لا يملأ مكانه في حياة شباب العشرينات.

وعلى سبيل المثال يعرض الكاتب من خلال مصير البطل الرئيسي معالم الإفلاس الأخلاقي لقطاع من المثقفين التونسيين الذين تلقوا تعليمهم في الزيتونة، وتربوا على روح التصورات العقائدية والأخلاقية التقليدية التي تبدو في نظرهم ثابتة لا تتزعزع، وفي اصطدامهم بالحياة الواقعية، وبالناس ذوي الأخلاق الأخرى — يكون من السهل أن يدمروا كل قوانين الشرف.

والرواية مليئة بصور الحياة اليومية، وهي تعرض بوضوح أخلاق البيئة المسرحية.

وقد حققت حيوية الموضوع، واللغة الشعبية الحية لهذا الإنتاج. نجاحا ضخما تفوق حتى على نجاح « السد » للمسعودي.

وفي عام 1960 حصل الكاتب من أجل روايته هذه على جائزة علي بلهوان الوطنية. (39)

وفي نفس العام — 1960 — أصدر خريف روايته الثانية « برق الليل »، وأبطالها ينتمون الى القرن السادس عشر، وكان المعتقد منذ البداية أنها رواية تاريخية، لكن اتضح من تطور الأحداث أن موضوعها يدور حول حب آثم بين العبد وزوجة سيده، فالعبد ابن السابعة عشرة، المشتري من سوق الرقيق يقع في غرام زوجة سيده

الكيميائي، وعندما يعلم الزوج الغاضب بلقاءاتهما يسارع الى طرد العبد وطلاق الزوجة، لكنه سرعان ما يقرر أن يسترجع زوجته، لكنه لكي يسترجعها لا بد لها أن تتزوج زوجا آخر حتى تحل له طبقا للشريعة الإسلامية، وحينئذ يلجأ الى طريقة المحلل، بأن يزوجه لشخص ما زواجا صوريا مؤقتا، ولا يجد أنسب من برق الليل ليتوم بدور المحلل، لكن برق الليل يستغل هذه الظروف، فيرفض طلاق الزوجة لتعود الى زوجها الأول وهو سيده.

والرواية تقوم على أساس المعرفة العميقة بالمادة التاريخية للقرن السادس عشر، والواقعية المعاشية الهامة لذلك العصر، والكاتب ذو استعداد طيب كذلك لكتابة رواية السيرة الذاتية.

ونثر البشير خريف مشهور جدا في تونس كما رأينا، وقد ساعد على نجاحه الأسلوب الواقعي في قصصه، ووضوح قضاياها، واستخدام اللغة الشعبية، والنقد التونسي يعتبر البشير خريف كاتباً قومياً أصيلاً.

العروسي المطوي

والى الجيل المبكر من النادرين التونسيين ينتسب كذلك محمد العروسي المطوي.

ولد المطوي عام 1920، وأكمل دراسته بالزيتونة، ثم في كلية الحقوق بالخلدونية.

وبعد اعلان استقلال البلاد كرس المطوي نفسه للخدمة الدبلوماسية ، فكان ملحقا ثقافيا بالقاهرة، ثم قائما بأعمال شؤون السفارة التونسية في جدة و(سفيرا) في بغداد، ومنذ عام 1962 أخذ يشغل المناصب الحكومية المختلفة في تونس .

ومنذ عام 1966 والمطوي يرأس تحرير مجلة الكتاب المبتدئين من أعضاء نادي القصة الأدبي، حيث يقدم مساندته الملموسة للناشرين التونسيين من الشباب.

وكثيرا ما يأخذ المطوي لنفسه زمام المبادرة في إصدار مجموعات من أشعار الشعراء الشباب، التي يصدرها لهم بمقدمات تمهيدية. (40) والى قلم محمد العروسي المطوي تنتمي طائفة من الأعمال التاريخية والأدبية، مثل كتابه عن العالم اللغوي في القرون الوسطى : جلال الدين السيوطي الذي عاش في القرن الخامس عشر، والشاعر الجاهلي امرئ القيس، وبحث في تاريخ الحروب الصليبية. وشهرة المطوي الكبيرة ترتبط بروايته « حليلة »، الصادرة عام 1962، والتي من أجلها استحق جائزة المجلس البلدي، وقصة « التوت المر » الصادرة عام 1967.

وتقوم رواية حليلة على أساس الأحداث الواقعية، وتعكس النضال ضد انهيار الأخلاق في سنوات الحماية الفرنسية.

وفي بؤرة قصة التوت المر تبدو القوة الشابة الكاملة للفتى عبد الله الذي اشترك بفاعلية في النضال ضد الإجراءات السرية لانتاج الحشيش والاتجار فيه، مع أعضاء ممثلي السلطة المرتشين.

وعبد الله هو عاشق عائشة الفتاة المشلوله، ابنة الفلاح الهارب من مطاردة الطليان في ليبيا.

والانفعالات العنيفة هي التي أصابت عائشة بالشلل، لكن اتجاه عبد الله الى الهدف بحماسة الملتهب المؤيد بالثقة في الانتصار للخير، والقادر - في رأي المؤلف - على خلق المعجزات والعودة الى مباحج الحياة هو الذي يبريء عائشة الحبيبة المهمة من مرضها المزمن.

رشاد الحمزاوي

ومن شباب الكتاب الذين أثاروا الاهتمام رشاد الحمزاوي الذي ولد عام 1934، وقصته «بودودة مات» الصادرة عام 1962 تحكي عن أطفال القرية الذين قرروا أن يجمعوا النقود من أنفسهم ليفتدوا من السجن صديقهم المسجون بتهمة سرقة رغيف خبز :

ولقد ظفرت هذه القصة بعدد من الجوائز الأدبية.

ويتميز الحمزاوي بعمق الفكرة، واسترجاع ظلال المعاني والأحاسيس المركبة، ويحاول التفتن الى جوهر العلاقات الإنسانية وحب الطبيعة.

والى جانب أن القصة رائعة، فانها انعكاس واضح لحياة القرية التونسية.

محمد المرزوقي

وهذا واحد من أشهر كتاب القصة التونسية هو محمد المرزوقي. ولد المرزوقي في جنوبي تونس عام 1916، وبعد أن تلقى تعليمه في الكتاب ثم في المدرسة الابتدائية درس في الزيتونة، ثم في الخلدونية، وبعد انتهائه من مرحلة التعليم الجامعية اشتغل المرزوقي بالصحافة، وعمل بالإذاعة.

وفي طريق الأدب بدأ المرزوقي بالأعمال النقدية الفلسفية. ففي عام 1935 أصدر كتابه الأول «آراء المعري وعقيدته». وفي عام 1936 أصدر كتابه «أشعة الجمال». وفي عام 1946 أصدر مجموعة أشعاره، وهي في معظمها ذات طابع رومانتيكي، وقد جعل عنوانها «دموع وعواطف». (41) ثم أعطى المرزوقي فيما بعد أفضلية خاصة لكتابة القصة.

وفي قصصه الكثيرة العدد، المكتوبة بين عام 1946 وعام 1967، والمنشورة في أربع مجموعات نجد انعكاسا لمشاكل الحياة التونسية المعاصرة من وجهاتها الاجتماعية والأخلاقية الكثيرة التنوع، التي حاول المؤلف أن يعالجها عن طريق إبراز أبطالها في الصور العديدة والمميزة من الواقع التونسي في مواقف تصادم الثقافتين الشرقية والغربية، والعالمين التقليدي والجديد، وهما شديدا التباين، ومن العسير أن يتعايش أحدهما مع الآخر لاختلاف أساليب تربية الشباب التونسي المعاصر الذي يستهدي في المعاهد التعليمية بالغرب وفي الأسر الوطنية بالأساليب التقليدية.

وقد أعطى المرزوقي اهتمامه الكبير لجمع التراث الفولكلوري، والبحث في إنتاج الإبداع الشعبي الشفوي، ففي عام 1967 قام بنشر كتاب ضخّم من الفولكلور التونسي بعنوان « الأدب الشعبي في تونس »، وهو نتاج نشاط سنوات عديدة في جمع وتسجيل ومعالجة وبحث الشعر الشعبي المصوغ باللغة الدارجة في الأقاليم الجنوبية من البلاد أساساً.

والإنتاج المعاصر للشعراء. الشعبين باللغة الدارجة مشهور في الأداء الشفوي.

وعمل المرزوقي جدير بالاهتمام الأكثر جدية، ما دام في هذا الإنتاج القومي الحقيقي حتى هذه اللحظة ما يوحى بأحسن التقاليد في شعر الجاهلية الذي هو جدير لا بالحفظ فحسب، ولكنه جدير كذلك بالدعوة لهذا الشعر.

كاتبات تونسيات

وقد اقتحم ميدان النشر التونسي كاتبات، برز من بينهن ناجية ثامر، مؤلفة القصص والمسرحيات، وليلى بن مامي، التي أصدرت عام 1967 مجموعة رائعة من القصص بعنوان «منارة في ألسنة اللهب» (42) والقصص تجمع بصورة مباشرة بين المرأة التي تناضل في سبيل حقوقها في حياتها الخاصة، ومحاولة الانتصار على تحامل الرجل المسلم الذي يعتبر كل ظاهرة لاستقلال ذاتية المرأة وكأنها إهانة له، وإجفاف بعزة رجولته.

الادب باللغة الفرنسية

وفي السنوات العشر الأولى من هذا القرن ظهر الأدب التونسي المكتوب باللغة الفرنسية، وقدم عديدا من المؤلفين الكبار الذين تميزوا في كل جوانب الإبداع، وشاركوا في علاج المشكلات الاجتماعية الهامة.

ومن أبرز شخصيات هذا الأدب المؤلف الروائي، والكاتب الاجتماعي السياسي، والباحث في أدب شمالي إفريقيا -- ألبير ممي، المولود عام 1929، والذي يعيش الآن في فرنسا. (43)

ينحدر ممي من أسرة يمتزج فيها العنصر العبري بالعنصر البربري، من سلالة رحلت الى إقليم تونس في القرون الأولى، وشكلت في البلاد أقلية قومية مثلها مثل البربر. (44)

وممي في رواية سيرته الذاتية المعاشية « تمثال من الملح » الصادرة عام 1953 يقاوم بشدة ضد الجمود واستبداد الأوضاع التقليدية، الا أننا في عمله التالي وهو « اجار » الصادر في عام 1954 - الذي يمكن أن ينسب الى فن الرواية الأسرية السيكلوجية -- نجد بطل ممي، المثقف، الذي يتلقى تعليمه العالي في فرنسا، يصبح بطريقة حاسمة في جانب المتخلفين من جهلاء المواطنين المستخفين بالغرب « المتحضر »، ويؤدي به هذا الى الانفصال عن زوجته الفرنسية التي تحتقر أقارب زوجها. (45)

ورواية ممي « وجه المستعمر » التي صدرت عام 1957 تلعب دورا هاما بسبب انتشارها الواسع في بلدان المغرب، وإثارة الأمزجة الثورية هناك. (46)

وفي الستينات أنجزت بإشراف ممي مجموعة من البحوث المتخصصة في أدب شمالي افريقيا.

هكذا بدأ النشر التونسي المعاصر يتشكل في فترة تعاظم الاضطهاد الاستعماري الكبير ، وفي ظروف الازمة الاقتصادية والسياسية التي نشبت في فترة الثلاثينات. (47)

لقد كانت بعض الطوائف من منقفي البلاد في ذلك الوقت تحمل المزاج العدائي في علاقاتها بالأرستقراطية الإقطاعية التونسية والسلطات الاستعمارية.

أما البعض الآخر فلم يكن يرى إمكانية قيام نضال واقمي ضد المستعمرين، بل حاول أن يحتفظ بالنمط التقليدي، إذ كان يخشى مغبة التغيير في صور الحياة المعتادة.

وفي عام 1934 وضعت قيادة التعليم في يد حزب الدستور الجديد، الذي أخذ يبحث عن أنجع الطرق وأمثل الوسائل للنضال الوطني التحرري. (48)

وأكثر من مرة في هذا الوقت من مرحلة اليقظة تعرضت الحركة التحررية للمطاردة البوليسية، وكان غزو حكومة الجبهة الشعبية للديمقراطيين الأحرار وسيلة للقضاء عليهم، وتنكيلا جماعيا بالجماهير.

لم يعكس الأدب التونسي كل هذا النضال السياسي العاصف في البلاد، لكن جميع الكتاب تقريبا كانوا فيما بعد شهودا على التزايد المطرد في الوعي القومي، وفي القوى المضادة للاستعمار،

وقد وضع في هذا الشكل أو ذاك من أشكال المسائل محاولة الإنسان الاعتراض والتحرر، وليكن ذلك تحرراً من الاضطهاد السافر، أو من العرف، والعادات المترسبة التي تتحدد شيئاً ما في هذا النطاق.

ولقد وجد في الأدب باستمرار تجسيد لمشكلة البحث عن نماذج، سواء في الاتفاق، أو في التهذيب الأخلاقي، أو في محاولة تجميل عالم الفكر بالعدالة والسعادة.

وبعد إعلان الاستقلال شغلت المكانة الكبرى في النشر مجموعة الموضوعات الاجتماعية التي كانت تنجس إلى التصوير الواقعي، وكانت كثرة عدد المؤلفات عن حياة الكتاب — فيما يرى الأدباء — علامات حقيقية على تأكيد الطابع القومي للأدباء.

أما صعوبات النشر المستمرة فقد كانت وما زالت تؤثر تأثيراً حتمياً على خصائص الإنتاج وأشكاله، فمعظم الإنتاج مخصص للمجلات الدورية، ومن هنا جاء إثارة الأشكال القصيرة، وعرض بعضها بأسلوب المضابط، وأحياناً يحشر في القصة مضمون رواية كاملة، فتصبح أشبه بموجز لحوار الأوبرا الذي يسجل الأحداث الأساسية.

وكثير من النافرين التونسيين يسرون في طريق إقناع فن الكتابة، فقد يتقدم الكاتب في فنه بالتغلب على الكثير من نواحي القصور كالدعاية، والحماس الكاذب، والاسراف في إبداء العواطف الشديدة الحساسية، والصراحة المكشوفة، والمشاركة الحنون للمحرومين وكذلك بعض المفاهيم السطحية للخصائص القومية.

على أن معظم الكتاب يقيمون حساباتهم على أن ابداع الأدب المتنوع
الأصيل مرتبط حتما بتحسين الطريقة الإبداعية، وتعميق المعارف في
داخل الإطار، سواء أكان إطار الثقافة القومية أم إطار الثقافة العالمية.

أما الشعر التونسي المعاصر — الذي نشط في السنوات العشر الأخيرة
بأسرع مما نشط للنثر — فقد استجاب للتحويلات الكبيرة في الحياة
السياسية للبلاد، ولو أنه كان عليه كالعادة أن يؤدي ضريبة الرومانتيكية.

وبالنسبة لمضمون الشعر فيمكن أن نعتبره جديدا تماما، أما
ما يتعلق بالشكل والمقاييس فهنا يمكن أن نلتقي بمعجبين من
مختلف الألوان والاتجاهات الشديدة التباين.

فبازاء المقاييس التقليدية يقوم الشعر الحر وشعر الموشحات.

وفي تونس يعيش كذلك الشعر الشعبي الغزير المادة، القائم على
الإبداع الغنائي، ومن الممكن أن نجد فيه أصدااء لكل أحداث الحياة
السياسية من السجن والنفي الذي تعرض له الزعيم بورقيبة عام 1934،
إلى جلاء الجيوش الفرنسية عن البلاد بعد اثنين وثمانين عاما من
الاحتلال.

وفي الآونة الأخيرة أصبح الشعر الشعبي أكثر موضوعات النقد
التونسي أهمية.

بهذه الصورة يتضح أن تكوين الأدب الجديد في تونس وثيق
الارتباط بالإصلاح الجوهري للفنون التقليدية، وقيام فنون جديدة
تستجيب للمطالب الحيوية الملحة وحاجات العصر.

اهم المراجع

اولا : في اللغة الروسية :

- 1 — محمد فريد غازي : مشكلات النثر التونسي المعاصر —
مجموعة الأدب العربي المعاصر، موسكو، 1960.
- 2 — داتلين : شعوب تونس والجزائر والمغرب في نضالها من
أجل الاستقلال، موسكو، 1953.
- 3 — دولينا : القصة في بلاد المغرب — « أرضنا العزيزة »،
مجموعة قصص لكتاب المغرب وتونس وليبيا، موسكو، 1967
- 4 — دولينا : نبذة عن تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث،
موسكو، 1968.
- 5 — جيولين : تاريخ افريقيا المعاصرة، تونس والجزائر
والمغرب من الفتح العربي حتى عام 1830، موسكو، 1961.
- 6 — زافادوفسكي : اللغات العربية الدارجة في المغرب
موسكو، 1962.
- 7 — زافادوفسكي : أدب تونس الى الحرب العالمية الثانية ،
مجموعة « أدب وفولكلور شعوب افريقيا »، موسكو، 1970

- 8 — زافادوفسكي : الأدب التونسي ، « أفريقيا » ، دائرة المعارف ،
مجلد 2 ، موسكو ، 1963 .
- 9 — ايفانوف : تونس المعاصرة ، موسكو ، 1959 .
- 10 — ايفانوف : أزمة الحماية الفرنسية لتونس (1918 — 1939) ،
موسكو ، 1971 .
- 11 — تاريخ أفريقيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ،
موسكو ، 1967 .
- 12 — كراتشكوفسكي : مصطفى كامل وجوليت آدم ، مجموعة
المقالات ، مجلد 3 ، موسكو — لينينجراد ، 1956 .
- 13 — كريمسكي : تاريخ الأدب العربي الحديث في القرنين التاسع
عشر والعشرين ، موسكو ، 1971 .
- 14 — ليفين : تطور الاتجاهات الأساسية للفكر الاجتماعي والسياسي
في سوريا ومصر ، موسكو ، 1971 .
- 15 — نيكيفورفا : أدب النهضة الاجتماعية ، موسكو ، 1968 .
- 16 — التاريخ الحديث للبلاد العربية (1917 — 1966) ، موسكو ، 1968 .
- 17 — بانتوتشك : الأدب التونسي ، مقالات قصيرة ، موسكو ، 1969 .
- 18 — بروجوجينا : أدب المغرب وتونس ، موسكو ، 1968 .
- 19 — بروجوجينا : الأدب المكتوب باللغة الفرنسية في المغرب
وتونس — رسالة علمية — موسكو ، 1967 .

- 20 — أمين سعيد : ثورة العرب في القرن العشرين ، موسكو ، 1964.
- 21 — ستيانوف : أغاني الحياة — مجلة « الأدب الأجنبي » ، 1958 ، عدد 11.
- 22 — شوستر : ملاحظات على أدب تونس مجلة « نجمة الشرق » 1958 ، عدد 10.

ثانيا : في اللغة العربية .

- 1 — محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية في تونس ، القاهرة ، 1956.
- 2 — العامري : تاريخ الأدب العربي في تونس — مجلة « الفكر » ، 1966 ، عدد 4.
- 3 — أبو القاسم محمد بدري : الشاعران المتشابهان ، الشابي والتيجاني ، القاهرة ، 1959.
- 4 — ناجية ثامر : أردنا الحياة ، تونس.
- 5 — ناجية ثامر : عدالة السماء ، تونس ، 1956.
- 6 — محمد الجابري : وضع القصيدة في الشعر التونسي المعاصر ، مجلة « الفكر » ، 1967 ، عدد 5.
- 7 — محمد الحليوي : الشعر التونسي الحديث ، مجلة « الفكر » 1964 ، عدد 7.
- 8 — محمد الحليوي : مع الشابي ، تونس ، 1955.

- 9 — رشاد الحمزاوي : بودودة مات، تونس، 1962.
- 10 — الصادق الرزقي : الأغاني التونسية، تونس، 1967.
- 11 — أبو القاسم الشابي : أغاني الحياة، تونس، 1966.
- 12 — عمر بلخيرية : التأثير في الأدب، مجلة « الفكر »، 1967، عدد 2.
- 13 — محمد فريد غازي : قضية القصة، مجلة « الفكر »، 1959، عدد 4.
- 14 — عمر فروخ : شاعران معاصران، ابراهيم طوقان، وأبو القاسم الشابي، بيروت، 1954.
- 15 — عمر فروخ : الشابي شاعر الحب والحياة، بيروت، 1960.
- 16 — نعمات فؤاد : شعب وشاعر، أبو القاسم الشابي، القاهرة، 1958.
- 17 — أبو القاسم كرو : آثار الشابي، وصداه في الشرق، بيروت، 1961.
- 18 — أبو القاسم كرو : كفاح الشابي، تونس، 1957.
- 19 — أبو القاسم كرو : خير الدين التونسي، 1958.
- 20 — أبو القاسم كرو : الطاهر الحداد، تونس، 1957.
- 21 — عثمان الكعاك : مصادر أبي القاسم الشابي، مجلة « الفكر »، 1957، عدد 1.

- 22 — أحمد الاغماني : قلب على شفة، تونس، 1966.
- 23 — محمد المرزوقي : بين زوجتين، تونس، 1957.
- 24 -- محمد المرزوقي : الأدب الشعبي في تونس، 1967.
- 25 — محمد المرزوقي : جزاء الخائنة، تونس، 1956.
- 26 — محمد المرزوقي : في سبيل الحرية، تونس، 1956.
- 27 — محمد المرزوقي : عرقوب الخير، تونس، 1956.
- 28 — محمود السعدي : السيد، تونس، 1955.
- 29 — محمد العروسي المطوي : التوت المر، تونس، 1967.
- 30 — مفدي زكريا : تحت ظلال الزيتون، تونس، 1967.
- 31 — فوزي عبد القادر الميلادي : جولة مع أدباء شمال أفريقيا،
القاهرة، 1965.
- 32 — حسن نصر : ليالي المطر، تونس، 1968.

ملاحظات وتعليقات

بقلم الاستاذ ابو القاسم محمد كرو

- (1) يشير الكاتب الى ما قامت به المدرسة الحربية - التي أسسها المشير أحمد باشا باي (1837 - 1855) - من ترجمة كتب اوروبية معظمها في الفنون العسكرية .
- (2) طبع بمطبعة الرائد التونسي عام 1868 .
- (3) "ما يذكره الكاتب عن د توسيع مجال العلوم الطبيعية ، غير واضح ، فالمعلوم ان الاصلاح تناول تنظيم الادارة وسلك المدرسين ومناهج التعليم ومراحلته بوجه عام أى ضبطه بنظام فانوني ، ولم يحدث الاصلاح تغييرا عميقا في اسلوب التعليم ومحتواه ، وذلك بسبب العقليه السائدة على معظم شيوخ الزيتونة .
- (4) المعروف ان خير الدين كان يعمل جاهدا على مقاومة التدخل الاوروبي - وخاصة الفرنسي - في شؤون البلاد ، لذلك حرص على دعم روابط تونس السياسية بالخلافة العثمانية .
- (5) لعله يعنى التسلط المباشر على ميزانية الدولة وعلى الاقتصاد التونسي عن طريق اللجنة المالية المعروفة باسم « الكومسيون » بدعوى حماية اموال المقرضين الفرنسيين والاجانب .
- (6) يشير الى الامتيازات التي منحها السلطان العثماني للدول الاوروبية المعروفة ، باسم « الامتيازات القنصلية » .
- (7) احمّل الكاتب ثورة علي بن غداهم ، وهي ثورة الكادحين والفلاحين من سكان

الريف والبادية . وما يعنيه بـ « تجار الاراضى » غير واضح ، ولعله يعنى
« ملاك الاراضى » من الطبقة البرجوازية « البلدية » أى اعيان العاصمة .

(8) لعله يعنى حركة الشيخ محمد السنوسى ؟ أما البشير صفر فلم يكن من
خريجي الزيتونة ولا من إساتذتها ، ولكنه كان أستاذا للتاريخ والجغرافيا فى
المدرسة الخلدونية .

(9) الثابت تاريخيا ان محمد عبده قد زار تونس مرتين :
أ - الاولى مدة شهر تقريبا من 6 - 12 - 1884 حتى يوم 4 - 1 - 1885
ب - الثانية من 9 - الى 24/9/1903 . فكيف تسنى للكاتب ان يؤكد ان
عبده أقام بتونس « بضع سنوات » ؟
(انظر عن رحلتى عبده الى تونس ، حوليات الجامعة التونسية ، الحلقة الثالثة
سنة 1966) .

هذا .. وان مقاومة الاحتلال لم تكن نتيجة زيارة محمد عبده فقد قاوم الشعب
الاحتلال بالسلاح فى معظم المدن والجهات . كما عارضه كثير من رجال الدولة .

(10) الصواب ان يقال : « الجمعية الخلدونية » اذ ان هذا هو اسمها الرسمى . كما
ان التعليم بها لم يتجاوز المستوى الثانوى . وكانت لها مكتبة تلقى فى
قاعاتها المحاضرات المتعددة الاغراض .

(11) فى هذا العرض لبرنامج تعليم الخلدونية خلط بين ما كان بها وما كان
بالزيتونة .. فقد تأسس التعليم الخلدونى كنظام مكمل للتعليم الزيتونى ،
لذا تركز البرنامج فيه على ثلاث محاور (1) العلوم الصحيحة (2) العلوم
الادبية (3) اللغات الاجنبية .

(12) شهادة « البكالوريوس » غير معروفة فى نظام التعليم الفرنسى الذى يقلده
التونسيون ، فهى شهادة سائدة فى التعليم الانكليزى أو الامريكى . وكانت
الخلدونية تقتصر على منح خريجها « دبلوما » يعادل البكالوريا الفرنسية ،

غير ان السلطة الفرنسية لم تعترف بهذه التسوية ، لهذا كان بعض طلبية
المندوبية يشاركون « بصفة حرة » فى امتحانات الشهادة الفرنسية .

(13) لعله يعنى مشروع « مقاومة الامية ونشر التعليم بين العروش » - أى
القبائل - الذى كونه التونسيون لنشر التعليم الابتدائى بين سكان الريف ،
وبذلك قاوم سياسة الاستعمار التجهيلية للسكان .

(14) صدر اول عدد من الرائد التونسي عام 1881 وهذه الجريدة لم تنقطع عن
الصدور حتى الان .. وهى تسمى اليوم (الرائد الرسمى) وحجبا ان يعاد لها
اسمها العريق « الرائد التونسي » اذ انها احدى رائدات الصحافة العربية
فى العالم .

(15) اسس جريدة الحاضرة على بوشوشة عام 1888 . والزهرة عبد الرحمن
الصنادل 1889 ، ومجلة السعادة العظمى (وهى اول مجلة بتونس)
اسسها محمد الحضر حسين 1904 . والحقيقة لصاحبها عثمان بن عمر
عام 1907 والرشدية اسسها حسين بن عثمان عام 1904 . والتقدم
لصاحبها البشير الفورتى عام 1908 . ومجلة خير الدين لصاحبها محمد
الجائى 1906

(16) بالعكس فان ما تم من ترجمة كان لغرض معين ومحدود .. فالمعروف تاريخيا
ان اساتذة المدرسة الحربية وطلبتها قد قاموا بترجمة كتب عديدة من اللغات
الفرنسية والتركية والايطالية ، وكان معظمها فى العلوم العسكرية ، وقليل
جدا كان فى التاريخ وغيره مما له صلة بالبرنامج المقرر . لكن هناك
محاولات اخرى بذلها تونسيون فى الصحافة وفى كتيبات مستقلة خلال
القرن الماضى ، كما فعل سليمان الحرائرى .. غير ان هذه المجهودات الفردية
لم تشكل حركة ذات أثر يذكر فى النهضة او فى العقافة .

(17) غاب عن الكاتب اختلاف الظروف والبيئة بين هذه البلدان .. ففى لبنان كاف
عامل الطائفية محركا للمسيحيين العرب ، وفى مصر كان التشابه واضحا بين
حركة محمد على وحركة احمد باشا باى ، رغم اختلاف حجم العميل والسكان

فى البلدان .. على أن بعض العلماء التونسيين ساهموا بشكل بارز وهام فى حركة الترجمة والتأليف والطباعة فى مصر مثل محمد بن عمر التونسي ، وكل ذلك خلال النصف الاول من القرن الماضى ، أما النصف الثانى منه فإن نهضة مصر الصحفية والادبية وكذلك فى مجال الترجمة قد قام معظمها على كاهل المهاجرين اللبنانيين والسوريين .

(18) هنا يصود الكاتب لبيان دور مدرسة باردو فى الاربعينات من القرن الماضى ، وهو بذلك ينتقل بين موضوعاته بدون ترتيب تاريخى ، علما بان مدرسة باردو قد اسسها احمد باى عام 1840 .

(19) هذا طبيعى ، فهم الذين تعلموا لغاته وعاشوا فى معاهده . وبالنسبة لتونس كان خريجو المدرسة الحربية اولا ، والمدرسة الصادقية ثانيا هم طلاب من التأثيرات ، وهم الذين نقلوا لمواطنيهم - بكل الوسائل - آثار اوربا وعلومها .

(20) الرحلات التونسية فى القرن الماضى كثيرة ، وهى بدورها من أهم عوامل التأثير والتأثر بالحضارة الاوربية . وحتى كتاب خير الدين فى قسمه الثانى يعتبر من نوع الرحلات . ولحمد السنوسى كتاب عن باريس وعرضها الدولى لعام 1889 سباه و الاستطلاعات البارسية ، قارن فيه د بين الحالة الراهنة فى باريس وبين حضارة الاسلام »

(21) لم نطلع على محاولات هذا الشعر الحر ، وخاصة فى الشكل - كما يقول الكاتب - ولعله يريد ان يقول ان شعراء هذه الفترة قد تحرروا من الموضوعات القديمة وعالجوا موضوعات اجتماعية جديدة ، وهو المضمون الجديد الذى تحدث عنه الكاتب فى الفقرة الموالية .

(22) لم نفهم كيف أثرت الثورة فى روسبا على تجديد الادب فى تونس ؟ وكذلك انتشار احداثها فى طول البلاد وعرضها ، والحال ان الاذاعة لم تكن قد ظهرت بعد فى تونس ، والشعب يومئذ لا يعرف معظمه القراءة والكتابة .. فهل قصد الكاتب بهذا الحشو استتفال القراء فى بلاده ؟ ! ربما ! !

(23) هي جمعية الشباب المسلمين التي كان الشابي من مؤسسيها (انظر : ابو القاسم الشابي حياته وادبه لزين العابدين السنوسي)

(24) الفى الشابي محاضراته عن « الخيال الشعري عند العرب » فى قاعة المكتبة الخلدونية ، ولكن باشراف النادى الادبى التابع لجمعية قدامى الصادية ، وهو من مؤسسيه ، وذلك يوم 30 شمعان 1347 = 1929/2/10 وطعت فى نفس العام بتقدبم ونشر صديقه ز . السنوسى

(25) فى طعة الديوان الثانية ، تونس 1966 ترتيب للابيات يختلف عما ورد هنا

(26) ان تجديد الشابي فى شكل القصيدة لا يصل الى هذه الدرجة العالية الى يشير اليها الكاتب من القضاء على شكل القصيدة التقليدى قضاء تاما ؟ ! فمعظم فصائد الشابي على الشكل التقليدى ، وان كان نجح نجاحا عظيما فى جعلها تحمل شحنة هائلة من الموسيقى والنغم الاسر ، وفى هذا سر سيطرة شعره على النفوس . وقد تفتن الكاتب الى هذه الظاهرة فتحدث عنها فى الفقرة الموالية أثناء تحليله لخصائص شعر الشابي

(27) نستغرب ان يحشر الكاتب « الرصافي وبحر العلوم » بين الشعراء المتأثرين بالشابي ؟ ! ولا يحتاج نفي ذلك الى أى دليل ، فهو من الواضحات لدى قراء الشعر العربى فصلا عن دارسيه وتقاده ومؤرخيه ، عربا وأجانب .

(28) هو محمد محى الدين القليبي من رجال الحزب الدستوري القديم ، نوبى بدمشق عام 1954 . وكان من أشد المعارضين لدعاة التجديد ، وخاصة منهم الشابي والطاهر الحداد ، والكاتب يشير هنا الى رأى القليبي فى الشعر الذى قدم به محاضرة الشاعر خزنة دار عن الشعر ، والطبوعة بتونس عام 1919 .

(29 و 30) يذكر الكاتب عدة معلومات غير مسلمة ، ومعظمها مخالف للحقائق التاريخية والمسلّمات الادبية :

أولا - هو ينتقل للحديث عن الثعالبى فى سياق كلامه عن الشعر بعد الشابي ، مع العلم ان الثعالبى ليس شاعرا ، وليس من جيل الادباء الذين ظهرت

بعد الشابي ، فالكاتب نفسه يذكر ولادة الشعالبي سنة 1874 بينما كانت ولادة الشابي عام 1909 .

ثانيا - الشعالبي من رجال السياسة والصحافة الوطنية والاصلاحية منذ العقد الاخير من القرن الماضي وخاصة مع حركة علي باش حائبة في العقد الاول من هذا القرن ، أي قبل ان يولد الشابي .

ثالثا - الكاتب يخلط بين النشر الفني وبين نشر الكتابة السياسية والتاريخية اللتين تخصص فيهما الشعالبي منذ بدأ يكتب في الصحف التونسية قبل ميلاد الشابي .

رابعا - الكتب التي ذكرها الكاتب للشعالبي بينها خلط كبير ، وفي معلوماته عنها اخطاء ينبغي تصويبها :

1 - كتاب « تونس الشهيدة » كتب ونشر بالفرنسية ، ومثله كتاب « الروح الحرة في القرآن » الذي طبع بتونس في مطلع هذا القرن ، فاعتبارهما ضمن النشر الادبي بتونس بعد الشابي أو حتى قبله أمر غير مقبول .

2 - الكتاب الذي يسميه الكاتب « سيدنا محمد » ليس هذا اسمه بل عنوانه « معجز محمد » ، وقد طبع بعد وفاة الشابي ، وفيه نظرة جديدة لحياة الرسول ورسالته ، كما يدعو فيه المؤلف الى احياء وتجديد رسالة الاسلام واشعار المسلمين بانهم كانوا يوما قمة العالم واصحاب حضارة سائدة ، وانهم لذلك يستطيعون ان ينهضوا من جديد .

خامسا - ذكر الكاتب في نهاية الفقرة 29 ان الشعالبي طالب في كتابه تونس الشهيدة باعادة دستور 1881 والصواب 1861 ، ولعله خطأ مطبعي في الاصل ، والحزب الدستوري التونسي ، بشقيه القديم - الذي كان يتزعمه الشعالبي - والجديد - الذي كان يتزعمه بورقيبة منذ تأسيسه عام 1934 - لم يكن يطالب باعادة دستور 1861 بل بنظام ديمقراطي دستوري حر في دولة مستقلة .

هذا .. وقد قام الاستاذ سامي الجندي بترجمة كتاب « تونس الشهيدة الى العربية ، ونشرته (دار القدس) ببيروت في 221 ص ط 1 سنة 1975 .

سادسا - يلحق الكاتب الى ان الشمالي يصدر عن ثقافته الزيتونية فيما يكتبه مستدلا على ذلك بمصانف كتابيه (القرآن) و (محمد) ، ويظهر جليا ان الكاتب لم يعرف من الكتابين سوى الاسم ، ولو انه اطلع عليهما فعلا ، لغير رأيه تماما . فالشمالي كان دائما ، وخاصة في هذين الكتابين ، متحررا في تفكيره وفي فهمه للقرآن وللإسلام بوجه عام . وقد لاقى اضطادا ومحاربة من رجال الدين والسلفيين الزيتونيين ، كما حوكم ودخل السجن من اجل افكاره الدنيئة .

(31) تبدو هنا دقة تحليل الكاتب لكتاب « تونس الشهيدة » مما يدل على انه اطلع عليه ، بعكس تحليله وحديثه عن الكتابين الآخرين .

(32) ذكر الكاتب إرقام حياة الدواعجي فاصلحنها واعتبرنا اخطاءها مطبعية .

(33) يبدو ان الكاتب بخلط بين مختلف أنواع الانتاج الادبي للدواعجي ، فقد كان انتاجه الشعري والاذاعي يمثل هذا العدد (خمسمائة) لا سيما الاذجال والمسرحيات القصيرة ، وليس هذا العدد (500) كله قصائد وغانى للاطفال - كما يدعى الكاتب -

(34) لا ندرى كيف توصل الكاتب الى ان الدواعجي رفض شروط « الناشرين المهينة (كذا) والحقوق الزهيدة حتى بقيت آثاره مخطوطة .. فالمعروف ان احدا لم يعرض على الدواعجي نشر مؤلفاته ، وذلك لسبب بسيط هو انه لم يكن بنونس في عهد الدواعجي اى ناشر محترف !

(35) تاريخ نشر الكتاب الذى يذكره الكاتب تاريخ صحيح ، ولكنه لا يمثل تاريخ نشر الكتاب لأول مرة .. فقد سبق للمؤلف ان نشره تباعا في مجلة « العالم الادبي » الصادرة بنونس ابتداء من العدد 13 سنة 4 بتاريخ 1935/9/2 ثم أعادت نشره مجلة « المباحث » التونسية في الاربعينات ، وكان لى شخصيا شرف جمعه من المجلتين ونشره بواسطة الشركة القومية للنشر والتوزيع سنة 1962 حين كنت مستشارها الثقافى .

(36) نشرت في هذا التاريخ تباعا بمجلة المباحث التونسية ثم طبعت مستقلة بكتاب عام 1974 .

(37) يمكن ، ان لم يكن مؤكدا ، اعتبار « مولد النسيان » بمثابة الترجمة الذاتية لفترة اليمية جدا في حياة المؤلف ، فهي تعبر عن تجربة واقعية حادة ، ومعاناة ذاتية قاسية عرضها صاحبها بشكل مأسوي وفي اطار من الرمز الفلسفي العميق .

(38) لطف حسين رأى مشابه في هذه الظاهرة العامة في أدب المسعودي (راجع ما كتبه طه حسين عن السند في مجلة الفكر س 2 ع 8 ونفس المقال نشره في كتابه « من أدبنا المعاصر » ، وللمسعودي رد عليه في نفس العدد من مجلة الفكر .

(39) المعروف ان الجائزة اسندت له عن قصته « برف الليل » سنة 1960 وتم نشر الفصة في العام الموالي 1961 . وليس كما ذكر الكاتب .

(40) لعل الكاتب يعنى تقديم المطوى للمجموعات القصصية التي نشرها نادي القصة .

(41) في النص « دموع وعواصف » والصواب ما صححناه .

(42) اسم المجموعة الحقيقية « صومعة تحترق » ولعل التحريف حصل أثناء الترجمة الاولى للروسية والثانية للعربية .

(43) يعتبر هذا الكاتب منسلسا من ذائتيه التونسية ، فهو لم يحتل ان يعيش في حنى وطن تتولى ادارته حكومة عربية وطنية ! فاستقر بفرنسا مدعيا الكبت والاضطهاد ... في حنى ان روابطه الدينية المتعصبة والحفية وكذلك شعوره بالانتماء اللغوى والثقافى للفرنسيين - المستعمرين السابقين للبلاد - هو الذى جعله يختار الإقامة معهم !

(44) من الغريب ان يعتبر الكاتب (البربر) اقلية مثل اليهود الذين نزحوا الى تونس وكامل الشمال الافريقى فرارا من الاضطهاد الاوروبى . ونسى الكاتب ان البربر هم سكان البلاد القدماء ، وانهم يمثلون الكثرة الغالبة في اصول الشعب الافريقى على كامل شمال القارة ، ولئن تعرب معظم لغة وكلهم ديناً وحضارة اسلامية ، فان ذلك لم يجعل منهم اقلية باى معنى كان .

(45) بعد عام 1956 - أى بعد إعلان استقلال تونس - غير الكاتب نظره وموقفه
فالتحق بأصهاره مستوطننا في بلادهم الأصلية

(46) ان ما أسنده الكاتب من دور الى رواية مسمى هذه ، وخاصة في اثارة الإمزجة
الثورية ، يبدو لنا بعيدا جدا عن الواقع ، لا في تونس فحسب بل في
بلدان المغرب جميعا .

(47) هل يعتبر الكاتب مؤلفات الطائفي المنسلخ (مسمى) ، وكذلك الذين كتبوا
مثله بلغة غير لغة الشعب ، من النثر التونسي ؟ ان سياق الكاتب في
النص يوحى بذلك ، وهو ما نراه بعيدا جدا عن النظرة الصحيحة والواقعية .
كما ان ربط تطور النثر بالازمات الاستعمارية والاقتصادية في سياق حديثه
عن مسمى المنسلخ غير صحيح . فالكاتب الذي ينسلخ عن الشعب لفويا ثم
جغرافيا ليس الا وجه آخر من وجوه الاستعمار القديم والحديث .

(48) لم افهم ما يعنيه الكاتب من هذه الفقرة بقوله « قيادة التعليم » ، فالذي وضع
في يد الحزب هو قيادة الشعب للتحرر من الاستعمار .

ابو القاسم محمد كرو

(تونس)

البَابُ الثَّانِي
الأدب التوثيقيّ المعاصر
من خلال مطبوعاتِه

الفصل الأول مع الشابي

تمهيد

ان الاهتمام البادى والمستمر فى تونس بالشابى وأدبه يوحى بأن أحدا لم يستطع على مدى ما يقرب من نصف قرن أن يسد الفراغ الذى خلفه الشابي .

كما يوحى من جانب آخر بان تونس التى وهبها الشابي تلك الشهرة الكبيرة تريد أن ترد له الجميل ، فقد اقترن اسم الشابي باسم تونس ، حتى لا تكاد ندرى أيهما الذى عرف بصاحبه .

لقد غنى أبو القاسم الشابي أعذب وأعمق أغاني الحياة ، واثرى الشعر العربى الحديث بدفقة من الوجدان الصافى الذى تميز به .

وانتشرت أصداً أغانيه فى أرجاء الوطن العربى كله نداءً مجلجلاً بأنغام الحرية والاصرار على الحياة فى أحضان الطبيعة التى تمنح القوة والرفاهية والخلود .

وظل الوطن العربى ، وسيظل حفيداً بأشعار الشابي المخملية التى تبدى من الرقة والنعمه واللمعان بقدر ما تنطوى على قوة الدوى ، ومتانة النسج ، وطرافة العبارة ، والابهاء المجلجل بقوة الارادة والدعوة الى الحرية ، حتى كأنه لا يستخدم الكلمات ، ولكن الكلمات نفسها تنمو على شباته ، وتترعرع على سنان قلمه ، ويبدو من ألفتها مع جاراتها وكأنها خلية حية تنبض جزئياتها بحرارة الدماء ولا تقبل الانقسام .

شعر كأنه ترائيل الملائكة في المألى الأعلى تتردد في أسمع
الخالدين ، ومع أن الشابى لم تكن له فلسفة محددة المعالم ، الا أن
شعره كان صورة للقلق والحيرة ، والتردد ، فهو مشبع برفض الحياة
والإقبال عليها ، وقد كان هذا ولا شك سمة من سمات الشباب
العربى الذى كان يتململ يومئذ في قيود الرجعية والاستعمار .
يرفض القيود ، ويتمرد على الأغلال ، ولكن بعزم واهن وساعد كليل ،
تحيط به حكومات مستكينة للذخيل ، ومجتمع غارق في الخرافات .

ولقد كان يكفى أبا القاسم الشابى في ذلك الحين أن يرفع علم
الثورة ، ويصر على ارادة الحياة في جيل لم يعرف معنى الثورة .

هذا ما عرف عن الشابى لدى جماهير قراء العربية في المشرق
والمغرب ، منذ تردد اسم الشابى على أديم الصحف السيارة في
الوطن العربى الأكبر .

اما ما لم يعرفه الا جمهور الباحثين فهو ان الشابى باحث وناقد
ثورى ، تبدل انتفاضته في البحث الذى قدمه عن « الخيال الشعرى
عند العرب » انتفاضة صغيرة ، نعم ، ولكنها مليئة بالطاقات
المتفجرة .

وأما ما لم يعرفه الاقل من القليل فهو أنه كاتب رقيق يصطنع
الاسلوب الدرامى في مقطعاته ولوحاته المنتزعة من الحياة ، وحتى
في رسائله ويوميائه الانيقة المفعمة بالحيوية والصدق والصرامة
والدقة .

وكل عملاق في عصره أخمل الشابى كثيرين من شعراء عصره
في تونس ، فظهروا بجانبه خافتى الاصوات .

ولم تكن تلك جنابة الشابى ، بل كانت جنابة التخلف
والاستعمار الذى فصح عربى الوطن العربى وقتت وحدته ، وجعل منه
شرقا وغربا .

لكن القومية العربية العريضة كانت وما زالت تتحدى الفناء ،
وتتحدى عوامل التفتت ، فلو لم يبرز اسم الشابي في المشرق ،
ويتردد بجانب الصحبة المتواكبة حول مدرسة الديوان وجماعة أبولو
في مصر لما عرف كشاعر طليعي تردد اسمه منذ ذلك اليوم ، وسيظل
يتردد في وعى الاجيال كلما أتيج لها أن تعرف المزيد من جوانب
عقربته الاصيل .

ولقد كان ذبوع اسم الشابي وأشعاره بين قراء العالم العربي
حافزا للتطلع الى معرفة الكثير عن تونس وأدبائها وشعرائها
ومفكرها ، وبالتالي للتعاطف مع قضاياها الاجتماعية والسياسية
والثقافية ، فلقد جاء وقت كانت تعرف فيه تونس بأنها بلد الشابي
فحسب .

وبقدر ما كان لتونس من صلات ببلدان الشرق ، فانها لم تبرز
كبلد مغمم بالجمال والنضال في سبيل الحرية بقدر ما برزت في شعر
الشابي .

والشيء الجدير بالحمد أن جيل الادباء والنقاد التونسيين
المعاصرين قد آمن بعقيدة الشابي ، وبحثه عليهم في أن يبشروا
برسائله في العالم العربي كله ، وأن يصنعوا من حياته وشعره جسر
صداقة ، وملتقى حب وتعارف وتعاون بين المشرق والمغرب في تبادل
ثمر لما بين الادب التونسي والآداب العربية المعاصرة من آراء وأفكار
وايجاد الوسيلة للتفاعل بين الجناحين .

وعلى الرغم مما أحس به الشابي في حياته من مرارة الهمال ،
فان نصيبه من التقدير كان كبيرا ، اذ وجد في ابان انطلاقه الفني
من يأخذ بيده ، حينما تلقفه الشاعر الناقد الكبير الدكتور أحمد
زكي أبو شادي فقدمه الى العالم العربي على صفحات مجلة أبولو ،
فقدم فيه الوجه المضيء لتونس الخضراء .

واعتقد أن حظه اليوم من التقدير أكبر ، بما يقدم له شباب
الادباء في تونس من عناية بحياته وتراثه الذي يجمع وينشر الان في
أوسع نطاق ، بعناية الهيئات والافراد ، وفي مقدمتهم الاستاذ أبو
القاسم كرو ، الذي كان أول من عرف بالشابي تعريفا علميا في
كتابه « الشابي حياته وشعره » ، و « كفاح الشابي » ، وما زال
يجمع تراثه ويعمل على تحقيقه ونشره ، ويجمع حوله الكتاب والنقاد
ليؤرخوا للشابي ، ويجمعوا إنتاجه ويحققوا تراثه ، حتى أنشأ
مشروعا خاصا بذلك ، وهو اصدار سلسلة من الكتب عن حياة
الشابي وإنتاجه في مختلف أشكاله وألوانه باسم « مكتبة الشابي »

وبفضل هذه الجهود الفردية والجماعية صدرت طبعة جديدة من
ديوان « أغاني الحياة » للشابي ، وصدرت رسائل الشابي ، ومذكرات
الشابي ، ودراسات عن الشابي ، وما زال في الطريق الكثير والكثير
عن الشابي ، للكشف عن جوانب جديدة من حياته ، وعن ألوان
جديدة من إنتاجه ، وفيه الشعر ، والبحث ، والمقال ، والقصة ،
والمرحلية ، والخواطر ، وجميع فنون الادب وأشكاله ، مما دبجت
براعة الشابي الذي لم يعيش في هذه الحياة الا عمر الورد ، والذي
أنتج في ربع قرن - هو كل حياته - ما يتجاوز إنتاج العباقرة في
عديد من القرون في امتداد أثره وعمقه واتساعه .

وحسبنا هنا أن نحیی ذكری الشابی شاعر الشعب والحرية
والطبیعة و ارادة الحياة والخلود ، وان نعیش فی تراثه الانسانی
المجید .

الشابي ... حياته وشعره

تأليف : أبو القاسم محمد كرو

لا يملك مؤرخ الأدب المعاصر أن يغفل عن سجل الشعراء
الخالدين شخصية أبي القاسم الشابي وقرائه.

كما لا يملك وهو يكتب عن الشابي أن يستغني عن المصدر
الغني والأصيل في التعريف الكامل بالشابي وهو كتاب الكاتب
الناقد التونسي أبي القاسم محمد كرو.

والكتاب الذي نعرضه اليوم هو أول كتاب عام مستفيض
كتب عن الشابي، وهو كذلك أول إنتاج لأبي القاسم كرو (1)
ولكنه بحث علمي مكتمل الجوانب يدل على قدم راسخة في
البحث، وليس تجربة كاتب مبتدئ.

ومن المقدمة يتبين لنا منهج الكتاب وهدفه، كما يستبين
الجهود الذي بذله المؤلف ليحيي كتابه مرجعا يطمئن إليه
الباحثون والدارسون في أدب الشابي، فقد أراد أن يعرف
الشابي الى القراء العرب في أقطار الشرق باعتباره علما من
أعلام النهضة في تونس، وشاعرا من زعماء المجددين في
الشعر العربي المعاصر، كما أراد أن يعرض على الناس آلامه
وعذابه وشقاؤه وأساه مجموعة في أول كتاب عن حياة الشابي وأدبه.

(1) طبع لأول مرة في بيروت عام 1952 والكاتب يتحدث عن الطبعة .

ولقد استقى الحقائق من مصادرها الاصلية ، واستخلص المعلومات من البيئة التي عاش فيها الشاعر، ومن كل المنابع ذات الصلات الوثقى بالشاعر وبحياته ، واتصل بمعاصريه ومخالطيه، وكان يبحث في كل كبيرة وصغيرة، ويسأل عن الأشياء القليلة الأهمية والبالغة القيمة، ما دام في معرفتها شيء من العلم والفهم لنواح جديدة من حياة الشابي وأطوار شاعريته.

والحق أن الشابي ظاهرة عربية في الأدب المعاصر، نضج في وقت مبكر من حياته واختطفه الموت في وقت مبكر من الفجر كذلك، وعاش حياة قصيرة ولكنها عميقة كأبطال الأساطير.

وحفاوة المؤلف به تجعلنا نعايشه ونتعاطف معه ونحنو على آلامه.

والكتاب يضم قسمين : القسم الأول وهو الدراسة، والقسم الثاني المختارات وهذه المختارات يصنفها المؤلف صنفين : شعر الشابي قبل العشرين، وشعره بعد العشرين، اذ من المعروف أن الشابي قد ولد عام 1909 ، وفارق الحياة في عام 1934، ويرجع تاريخ بعض قصائده الى عام 1923، أي أنه مارس القرىض وهو في الرابعة عشرة من عمره، واستمر أحد عشر عاما يفيض عنه الشعر العبقري كما يفيض الماء العذب عن المنابع الطاهرة وعطاؤه يزيد ويصفو حتى آخر أنفاسه.

والقسم المخصص للدراسة يجري في فصول قصار تشكل لمحات عن : - الحياة الثقافية التي تنبئ بأن القطر التونسي عامر بالحركات الأدبية والثقافية والشخصيات المفكرة في القديم، ومن أبرز مفكريها ابن خلدون وابن منظور، وصاحب زهر الآداب، وفيها الجامعة الزيتونية، وجامعة دار الحكمة بالقيروان.

- أما النهضة الحاضرة فترجع جذورها الى الوزير خير الدين الذي وضع الأسس المتيّنة لنهضة عربية معاصرة بانشاء المدرسة الصادقية وادخال اللغات الأجنبية، وحتى بعد أن طمس الاستعمار معالمها وارقد بالبلاد الى الوراء، صمدت الطلائع الواعية للكفاح حتى استطاعت أن تسير بتونس في طريق النور والحرية، وكان الشابي أحد المشاعل، وطليلة المناضلين في العقد الثالث وبداية الرابع من هذا القرن حتى تفهقرت الرجعية وبدأت حركة التجديد.

- وعن حياة الشاعر يتحدث عن زمان ومكان ميلاده في الشابية من ضواحي توزر في اقليم الجريد جنوبي تونس، الغني بمفاتيح الطبيعة، وكيف بدأ تعليمه في الكتاب فحفظ القرآن في التاسعة وأخذ والده - وهو خريج الأزهر - يلقنه مبادئ العلوم، وسمح له بقراءة كتب الدين والتصوف والفلسفة، وفي الثانية عشرة يلتحق بالزيتونة في تونس عام 1921، فيتخرج منها عام 1928، وكان انتقاله الى العاصمة نقطة تحول في حياته لأنه وجد فيها الانطلاق والتحرر والنشاط الأدبي، وفيها

قرأ الكثير من انتاج الأدب المهجري الذي وجهه الى نقد الحياة والثورة على الأوضاع ، كما وجهه الى الصوفية ، والأسلوب الساخر ، الى جانب قراءته في أمهات الأدب العربي القديم ، وفي الشعر المعاصر ، وفيما ترجم من روائع الأدب الأروبي .

ثم التحق بكلية الحقوق التونسية وتخرج منها عام 1930 ، وكان في كل هذه المراحل يشارك في الحياة الأدبية مشاركة جادة ، ويتزعم الاتجاه الى اصلاح التعليم ، وتأسيس الجمعيات مثل "جمعية الشبان المسلمين" و "النادي الأدبي" .

وقد سبب له موت والده صدمة كبيرة غيرت الكثير من حياته ، وكان بداية متاعبه ومسؤولياته ، مما جلب عليه الآلام وأمراض القلب ، حتى انتهت حياته نهاية مؤلمة .

— وفي البيئة الاجتماعية رأى الشابي من حوله مجتمعا مريض الجسد والروح مستسلما للاستعمار والرجعية والتعاسة والبؤس ، وأعلن آراءه بجرأة وحماسة في شعره وفي نثره ، وأخذ يستنهض همم شعبه ، ويحفزه للنضال ، ويضم جوانحه على الألم والمرارة وهو يحطم الحواجز والسدود أمام مجتمع لينطلق ويخلق .

أما عن حياة الشاعر الخاصة فقد تزوج وترك الحياة ومن خلفه طفلان ، ويرجح كتاب سيرته أنه لم يكن موفقا في حياته الزوجية لأن زواجه المبكر كان ارضاء لوالده من جهة ، ومن جهة أخرى لأنه لم يجد في زوجته الصورة الشعرية التي

رسمها في شعره للمرأة، ولهذا اتجه بحبه الى امرأة خيالية (1). وعن مؤلفات الشابي يحدثننا المؤلف عن ديوانه " أغاني الحياة " وعن كتاب " الخيال الشعري عند العرب " وعن رسائله الأدبية وعن يومياته وقصصه ورواياته الثرية والشعرية، ومنها رواية في المقبرة، وصفحات دامية، وجميل بثينة، ومسرحية السكير، ومن محاضراته ومقالاته، ومعظمها مخطوط لم ينشر.

واذا انتقلنا مع المؤلف الى القسم الثاني من الكتاب، وهو المختارات التي نشرها من شعر الشابي، والتي كانت أكبر مجموعة من شعره تنشر قبل صدور ديوانه كاملا، فقد قسمها المؤلف الى مرحلتين : مرحلة ما قبل العشرين، ومرحلة ما بعد العشرين.

ففي المرحلة الأولى يختار عشرين قصيدة ومقطوعة، تمثل العناوين : شعري - تونس الجميلة - زئير العاصفة - الحرب - لعلعة الحق - في الظلام - الزنبقة الذابلة - الدموع - اغنية الأحزان - نظرة في الحياة - مأثم القلب - الأمل والقنوط - شكوى اليتيم - أيها الليل - الملل الأليم - أيها الحب - حيرة - جدول الحب - أنشودة الرعد - يا شعر. أما ما بعد العشرين فقد اختار منها ثلاثين قصيدة ومقطوعة هي :

(1) من رأى الحليوى ان الشابي يتغزل في مثل أعلى للمرأة ، وليس في امرأة معينة ، ورأى مؤلف كتاب الشابي يختلف عنه تماما .

مناجاة - الايمان بالحياة - الجمال المنشود - يابن أمي -
الى طغاة العالم - ارادة الحياة - صلوات في هيكل الحب -
الساحرة - ألحائي السكرى - تحت الغصون - قلب الشاعر -
الأبد الصغير - قال قلبي للاله - زوبعة في الظلام - قلب
الأم أنا أبكيك للحب - الجنة الضائعة - أغاني التائه -
في ظل وادي الموت - الأشواق التائهة - الرواية الغريبة -
الناس - أمل الشاعر - النبي المجهول - أيتها الحاملة
بين العواصف - في ظلال الغاب - فكرة فنان - من أغاني
الرعاة - نشيد الجبار - الصباح الجديد.

ومع أن المؤلف لم يوضح لنا ملامح كلتا الفترتين، ولم
يستند الى مرجع تاريخي يجعلنا نتأكد من أن هذه القصائد
تنتمي الى هذه الفترة أو تلك (1).. الا أننا نلمح من مجرد عناوين
القصائد أن إنتاج المرحلة الأولى يتسم بسمات الصبا، ويغرق
في رومانتيكية المراهقة، على حين تتجه مختارات المرحلة
الثانية الى المجتمع ، ومسائل الحياة، والتزعة الفلسفية،
وعمق التحليل لعناصر الطبيعة.

وعلى كل حال فهي ثروة من شعر الشابي لم تتجمع من
قبل في وعاء واحد حتى صدور هذا الكتاب.

(1) كان اعتماد المؤلف على الحدس والنقد الادبي وبعض المصادر التي نشرت تلك
القصائد متفرقة ، وقد أشار الى الفهم الاول الكاتب نفسه ، كما ثبت ان
تفسير المؤلف كان صحيحا وسليما الا في قصيدة واحدة ، وذلك بعد طبع
ديوان الشابي وعليه تاريخ قصائده .

ويتهيء الكتاب بإيراد نماذج من نثر الشابي ، وقد يكون أول تعرف بالشابي النثر، ومن بين هذه النماذج خواطر، وبحوث قصيرة، ولوحات من الشعر المنشور، مثل : الشعر : ماذا يجب أن نفهم منه ؟ وما هو مقياسه الصحيح ؟ ويقظة الاحساس وأثرها في الفرد والجماعة، وصفحات دامية، وأغنية الألم.

ولكن هكذا ينتهي الكتاب كما ترى، دون تحليل لشعر الشابي، والتعريف بخصائصه الفكرية والفنية، وبيان اتجاهاته، ومواطن التجديد عند الشابي، وعناصر هذا التجديد.

ولكن حسب هذا الكتاب أنه كان بداية للتعريف بالشابي وإضاءة لجوانب شخصيته واستلالها من خضم الظلام والجهالة التي كادت تظمر حياة الشابي ، لولا أبو القاسم كرو وكتابه عن " الشابي ... حياته وشعره ".

كفاح الشابي

تأليف : أبو القاسم محمد كرو

في يقيني أن الاديب — كاتباً أو شاعراً — لا يحسن أداء فكرته ما لم يحسن تجربتها، ويتفاعل معها، ويحيها حياة عميقة نابضة بكل قواه المدركة واللامدركة، والا فهو منمق ألفاظ ليس غير.

وأدينا الباحث أبو القاسم كرو ينبض قلبه نبضات صادقة محتدمة بكل معاني الحياة في كل ما يكتب، وتحس حرارة قلمه تقطر من دمه وأعصابه، وقد قرأت له أخيراً « كفاح الشابي » وأشهد لقد كانت حرارة إيمانه ببطولة الشابي تندمج بكيانه، فتجعله يحيا تجربة الشابي ونضاله الرائد، ويحكي حكايات قلبه الثائر الجبار.

وقد بلغ قمة التوتر وهو يتحدث عن حياة الشعب التونسي النبيل المعدن، الذي زرع في الشابي إيمانه بنفسه وبأمته، فوهبها شبابه وفنه، وفني في أمواجه الهادرة المتأبية على قيود الشواطيء والخلجان.

وكان يخلق الى قمم الشابي مخلفا عند السفوح أولئك الهازلين من الشعراء الذين كفروا بالشعب، وآمنوا بمصالحهم الضرورية أضعف الإيمان، فأوعدوا قلوبهم دون الشعب الكادح، وانطوا على أنفسهم يغنونها أغنيات متخاذلة خرساء.

لو قلت إن كرو تعصب للشابي حتى رفع صاحبه فوق مستوى الشعراء — بله البشر جميعا — لما عدت الصواب، ولا تثريب عليه إن هو فعل، فشخصية الشابي الماردة في دنيا الأقرام، وحياته الخاطفة التي توشك أن تكون أسطورة وشعر الشابي المعداد في الروائع الإنسانية الخالدة، وآراء الشابي الرائدة من جيله المتخلف — كل ذلك جدير بأن يأسر مؤرخ أدب الشابي فيدعه يتعصب له على غير وعي منه، وتلك خصيصة لا بد أن يصطحبها كتاب التراجم الناجحون ولو ساعة يسجلون حياة أبطالهم، وهي ظاهرة نلمسها في كل ما يكتب كرو عن بطله الشابي الخالد.

ولكي يحدد كاتبنا الموفق مكانة الشابي في ركب الشعر عرض لنا قصة الشعر العربي منذ عرف، مبرزاً عيوبه ومزاياه ومسجلاً ما فيه من وثبات تطورية، ذاكرة لذوي الإحسان أياديهم حتى يبلغ الذروة فيجد الشابي هناك .

ولكي يحدد مكانة الشابي بين رواد الوطنية عرض للبيئة عرضاً خفيفاً تلمح في ظلاله كيف شق البطل طريقه بين صخور الجمود والرجعية والتزمت والاستعمار وكيف دوت آراءه الوطنية الإصلاحية الحرة رغم القماقم والسدود، ولم ينس أن يذكر الذين شذوا أزر الشابي أو سلكوا طريقه وإن تخلفوا عنه مراحل ومراحل، وراح يوازن بينه وبينهم لينتزع له كأس البطولة، ويتوج هامته بأكاليل النصر الساحق المؤزر.

وربما يكون صنيع الشاعر في شعبه غير ذي بال لو أنه كان شعباً متقدماً أو كان الشاعر مسبقاً في هذا الدرب، ولكن الشابي عاش

في عصر متخلف يقتات الرجعية ويرسف في تقاليد بالية ويشهر الدين المفترى عليه سلاحا في وجه كل مصلح، وذلك ما يبرز كفاح الشابي، ويجعله في مصاف رواد الوطنية الكبار، الذين يفتحون مغاليق العقلية البشرية، أو على الأقل يعالجون أفعالها، تارة بالترغيب وإبراز مفاتن الوطن، والدعوة الى تغذية الروح من ينابيعه، وتارة بالحث والدفع الحاني الرقيق، وأحيانا بالندير الصائح المجلجل.

والظاهرة الجديرة بالالتفات أن الشعب ظهر بمعناه الكامل في شعر الشابي في وقت مبكر، وبطريقة تلقائية، يوم كان ينتفض انتفاضة الحرية في بلاد العروبة كلها، وأن الوطنية بمعناها الأمل لازمت هذه الظاهرة في شعر الشابي، فلقد اندمج في آمال شعبه وآلامه لا ليخذه ولا ليبيكي معه، ولكن مبشرا بالحرية يدفع الشعب نحو فجرها دفعا قويا، وما زالت قوله تتردد على ألسنة صبيان العروبة وكهولها وشبابها وشيوخها في كل مناسبة واعية، حتى باتت أنشودة من أناشيد الثورة، تعمل في كل صدر وتتغلغل في كيان الأحرار، وتضيء حروفها كسطور الإنجيل في قلوب القديسين.

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

ولم تكن الوطنية عند الشابي خديعة يستتر خلف جدرانها، ليكسب مجدا رخيصا، أو يدعي بطولة زائفة، أو يتزعم فئة من الناس، بل

كان شعره ومثاليته على أتم ما يكون من التجاوب حتى جاء شعره في الوطنية أروع مثال للتضحية، وأكثر جرأة وحرارة، وأعمق ثورة مما نرى من وطنية مصنوعة في شعر كثير من أدباء الوطنية.

وكثيرا ما تعني الوطنية الثائرة في شعر الكثيرين افتعال الثورة والظهور بمظاهر الهمجية التخريبية، ولكن الشابي كان مع الشعب دائما يمسح آلامه، ويحدد آماله، وينضج ثقافته ويغذي حاسته الاجتماعية، يريده شعبا نبلا، متيقظ الفردية متماسك الجماعة.

وما كان على الشابي من حرج لو قنع بأن يكون تونسيا، يتغنى بآلام التونسيين وحدهم، يوقظ أمانيتهم، ويكابد مشكلاتهم، وهي كبيرة وكثيرة، ليكسب بطولة محلية كغيره من الشعراء الانطوائيين الذين يعيشون في أصدافهم؛ ولكنه غنى كل أمة منكودة، ودفع كل شعب مغلوب، لبحث عن حقيقته، ويغتصب حريته من الاستعمار والطغيان غير نادب ولا مؤنب، ولكن في حنو ومرحمة، وزمالة طيبة متعاونة.

هكذا يحدثنا أبو القاسم كرو في حرارة وعمق لإيمان بعقريته الشابي.

وكان من تمام الايمان بالشابي والانتصاف له أن يرد عنه هجمات الحاقدين وأوهام الجاهلين، وهم كثيرون، وقد فعل.. لقد تنقل بنا المؤلف في حياة الشابي وإنتاجه، فبعد الموازنة المستوعبة، يقفز الى "قمة الشابي" فيعرض لنا صورة رائعة لهذا الملاك المحلق.

وفي الفصلين الأخيرين يتركنا مع الشابي وجهها لوجه، يتحدث إلينا عن عالم الغيب بشعره الرائع وروح الحنون، ويروينا من نبعه الصافي عن "الوطنية العميقة" ثم يجول بنا في معرض "الطبيعة عند الشابي" وليست الطبيعة عنده زخرفاً ولا زينة، ولكنها وسيلة جذابة للكشف عن جمال الوطن، واستقطاب محبة الشعب حوله، واستمساكه بوطنيته الصادقة.

ولم يكتف المؤلف بهذه الجولة في شعر الشابي، ولكنه ترك له قطاعاً من الكتاب يتحدث فيه عن مبادئه وفلسفته تجاه الحياة، ونظراته في الوطنية، ويروي لنا ذكرياته المحببة التي تشيع في جوانبها حرارة الكفاح.

الحق أن الذي يقرأ هذا الكتاب ينتهي من قراءته وهو مجهد مشدود الأعصاب، لأنه لا يستطيع أن يكون قارئاً فحسب بل لابد أن يعيش الصورة التي جلاها المؤلف لحياة الشابي القلقة المتوترة والمتبرمة بالحياة، الساخطة عليها، وهي في نفس الوقت حانية عليها متفائلة بعتها.

وقد ينقم القارئ على ما كابد الشابي في حياته من آلام الحياة، وأحقاد الناس ولكنه لا يشعر أبداً بالراء للشابى أو الإشفاق عليه، لأنه كان بطلاً انتصر على آلام نفسه، وعلى معوقات شعبه وكان عملاقاً من عمالقة الأساطير، وإن اتشح بوشاح التواضع.

ولقد جهد الاستاذ أبو القاسم محمد كرو ان يجعل هذا الكتاب صورة صادقة لشخصية الشابي ونضاله وانتصاراته، حتى تؤكد عبقريته في وعي الجماهير العربية، واصبح على قصر حياته انشودة حلوة على كل اللسان العربية، لقرب شعره من القلوب الفتية الطامحة الى الحرية، ولروعة حياته الرقيقة والمليئة بالكفاح والعبقرية حتى أخمل الكثيرين من معاصريه من شعراء تونس خاصة وبعض الشعراء العرب المعاصرين بوجه عام.

وبهذا الكتاب وبغيره من الكتب اصبح أبو القاسم كرو هو المؤرخ الصادق الأمين لحياة أبي القاسم الشابي (1).

(1) طبع الكتاب لأول مرة في بيروت عام 1954 ونشر المؤلف مقاله عنها في جريدة الصباح التونسية عدد 18 - 11 - 1955 .

رسائل الشابي

جمع : محمد الحليوي

من مظاهر الجدل لدى مؤرخي الشابي المعاشين له أنهم حريصون على حفظ المصادر الأصلية لهذا التاريخ ، وجمعها وإعدادها للتداول ليقوم تاريخه على الأسس العلمية المعتبرة.

ومن حسن حظ تاريخ الأدب المعاصر أن أصدقاء الشابي قد احتفظوا بكل نبضة من نبضات شخصيته حية دافئة حتى اليوم بصورة قل أن نجد لها مثيلا حتى بالنسبة لكبار الأدباء في العالم العربي.

ربما ساعدهم على هذه الإحاطة قصر حياة الشابي ، وانحصارها في نطاق زمني ومكاني ضيق.

وإذا كانت الحياة قد قست على الشابي قسوتها المنكرة فإن التاريخ المعاصر قد أصبح حفيا به أبلغ الحفاوة ، بفضل ما يقدمه أصدقاؤه وحواريوه.

ومن حواريي الشابي الذين قاسموه حياته الكاتب الشاعر محمد الحليوي الذي تعرف عليه في وقت مبكر من حياتهما ، ثم جرت بينهما مراسلات اتصت على مدى خمس سنوات من منتصف عام 1929 الى ما بعد منتصف عام 1934 ، وهي أنصب فترات حياة الشابي ، التي أصدر فيها كتابه عن "الخيال

الشعري عند العرب“، ونشر فيها معظم أشعاره، وأعد فيها ديوانه للنشر.

وفي كتاب ”رسائل الشابي“ يعرض محمد الحليوي أربعاً وثلاثين رسالة وجهها إليه الشابي، كما يسجل ردوده على هذه الرسائل في أربعين رسالة وجهها هو إلى الشابي، ثم أتبعها بعشرين رسالة كتبها صديق الطرفين محمد عبد الخالق البشروش.

ومع أن هذه الرسائل كما يقول جامعها ”رسائل شخصية“، تتناول مشاعر صديقين يتحدثان بكل حرية في مسائل أدبية، وعن أشخاص مختلفين من الوسط الذي كانا يعيشان فيه، ويتبادلان عواطف ذاتية متباينة، تندرج من المعجبة الخالصة والإعجاب المطلق إلى العتاب واللوم والتعنيف“...مع أن جامع هذه الرسائل يقول ذلك، فإن هذه الرسائل تتناول قضايا أدبية هامة، ومحاورات حول الأدب والأدباء، وتضيف حقائق ومعلومات عن التيارات والشخصيات في الاطار الفكري والثقافي للعالم العربي عامة، ولتونس ومصر بصفة خاصة.

كما تبدو فيها ظواهر جديدة بالتسجيل :

أولاًها: أن المتراسلين تعمدان في مرحلة من مراحلها أن يجعلها منها حواراً أدبياً مقصوداً، وشيهاً بما كان بين كبار كبار أدباء الغرب، وقدراً لها أن تنشر في يوم من الأيام،

فتحدث نفس الأثر الذي تركه الرسائل المتبادلة بين لامرتين وسانت ييف، خاصة وأن الحليوي كان يلقب الشابي بلقب "لامرتين العرب"، ويجعل نفسه منه بمنزلة سانت ييف، كما ورد في رده على الرسالة السابعة والعشرين.

ثانيتهما: يقترح الشابي في حاشية رسالته الحادية عشرة أن يتخذ موضوعاً أدبياً يصلح محوراً للتراسل، يتجاذب فيها الصديقان أطراف الحديث، ويدور الجدل، حتى تظل الصداقة حية، ويظل غداؤها روحياً جميلاً.

ثالثتها: طرح الشابي في رسالته الحادية عشرة اقتراحاً بتأسيس مشروع مشترك بين الأصدقاء الثلاثة - الشابي والحليوي والبشروش - للنهوض بالأدب، وبدر نواة الحياة الأدبية في تونس، وذلك بأن يضع كل منهم مبلغاً من المال بأحد البنوك أو مكاتب البريد، وما يتجمع من الأصل والفائدة يكون تحت طلب من يريد من المؤسسين أن يطبع كتاباً، ويعتبر ذلك قرضاً يرد فيما بعد.

ويضاف إلى تلك العمديات والمخططات أن هذه الرسائل كانت مسرحاً تنطرح عليه قراءات الشابي ومشروعاته الأدبية والثقافية، وميلاد بعض أعماله الفنية، وكانت تعرض بطريقة عفوية وتلقائية، ومنها نتبين جملة من قراءته، وطرفاً من المؤثرات في أدبه، فقد قرأ للعقاد وأعجب به وبكتب "الفصول"، و "المطالعات"، و "ساعات بين الكتب"،

وديوان « وحي الأربعين »، وقرأ للمازني كتابه « حصاد الهشيم »، وقرأ لمخائيل نعيمة كتاب « الغريال »، وقرأ لجبران كتابيه « العواصف »، و« الأجنحة المتكسرة »، وقد أغرقه هذه القراءات بالعودة الى المعري، وابن الرومي، وابن الفارض، وابن عربي، كما قادته الى قراءة الأدب الرومانتيكي المترجم عن زعماء الرومانتيكية في الغرب.

كذلك قرأ جملة من شعر أبي شادي، ونقد الراجعي، وفصول الزيات، وبعض كتب طه حسين ومقالاته في مجلة الرسالة، وفصول هيكل في جريدة السياسة الأسبوعية، وبعض كتب أحمد أمين.

وقد انطرحت هذه الاعمال كلها في شعره بطريقة واعية أحيانا، وفي كثير من الأحيان بطريقة لا واعية.

والذي يجعل لهذه الرسائل قيمة أدبية وتاريخية هو ما تضمنته من آراء أصيلة في الأدب والأدباء، وفي الثقافة وشؤون الفكر العربي المعاصر بصفة عامة، وترجع قيمتها الى أنها آراء منصفة وواقعية، وليست واقعة تحت تأثير أية ضغوط، بالإضافة الى أنها خالية من أي تهجم أو محاباة، ومع ذلك فهي آراء شخصية، يحمل صاحبها كل تبعاتها، ويدافع عنها بشجاعة.

وأبرز آرائه في الأدب ما سجله عن العقاد وأبي شادي ومجلة أبولو.

فعن العقاد يقول عقب قراءته لكتاب "ساعات بين الكتب" :
 "لقد تلميت بما فيه من صور الفن، ومثل الحياة ما لا ينتج الا
 عن ذهن جبار ولود، وعبقريّة نادرة خارقة، أما لغة الكتاب
 وأسلوبه فهو الأسلوب القيم الجميل الذي لم يكتب العقاد
 فيما سبق خيرا منه".

ثم يقول فيما كتبه العقاد عن شكسبير : "لقد كتب
 العقاد فيما كتب عن شكسبير كتابة لو علم أنها ستكتب عنه
 لمجد نفسه ألف مرة ، كتب عنه كتابة لا أحسب أنها
 كتبت عن بشرى من قبل ...".

وعن ديوان "وحي الأربعين" يقول : "فيه ما شئت من
 فلسفة ناضجة في الحياة والناس، وغزل مطول، ووصف شامل
 نفاذ، وسخر لاذع عميق، أما أسلوبه فهو أرقى من أسلوب
 أشعاره الماضية ، ولا غرو فهو العقاد".

أما أبو شادي فقد كان هو الذي بدأ — على عادته — بالكتابة
 الى الشابي، يدعوه للمشاركة في تحرير مجلة "أبولو"،
 والشابي يقول في حاشية رسالته الحادية والعشرين، المؤرخة في
 أول يناير عام 1933 : "ورد علي في بحر الأسبوع الماضي
 العدد الرابع من مجلة أبولو المصرية ، وهي مجلة لخدمة
 الشعر الحي، ثم ورد علي بعد ذلك بيوم من سكرتير الجمعية
 ورئيس تحرير المجلة الدكتور أبي شادي مكتوب يقول فيه إنه
 يرغب مني امداد المجلة بما يمكن من شعر ونثر".

ثم يقول في رسالته الثانية والعشرين ردا على الحليوي :
 ”لأنني أشاركك الإعجاب بمجلة أبولو، ولكنني أرى أن
 بينها وبين السمو خطوتين :

الأولى: أن يقسو صاحبها في انتخاب ما يرد عليه، فلا ينشر
 الا ما سمت روحه وشرف أسلوبه، حتى أصبح جديرا - ولو
 أقل من كل الجدارة - أن يصير فنا.

الثانية: مشاركة عظماء مصر في تحريرها، كالعقاد، والمازني،
 وطه حسين، ومن لف لفهم، فإن الطبقة التي تحررها هاته
 الأيام - وخصوصا في الشر - ليست من القوة في شيء.

أما علاقتي بأبولو فقد وجهت لها قصيدين، ومعلوم الاشتراك،
 وطلبت من صاحبها أن يوجه إلي الأعداد الأولى منها، وقد ورد
 علي كتاب منه بعد ذلك، وطيه معلوم الاشتراك نفسه، قائلا انه
 يستمعيحني علنا في إرجاعه، لأن المجلة توجه إلي كهدية
 خالصة، كما أهدي إلي نسخة من ديوان له اسمه ” أشعة وظلال“
 ووجه إلي الأعداد الأولى من المجلة“.

وبنفس الاتزان والتجرد والتحليل يبدي رأيه في أبي شادي
 وشعره : ” الحقيقة أنني كنت لا أستطيع أن أتم قصيدة لأبي
 شادي، ولكنني رضت نفسي على أن أتابعه حتى ألفته، فتبين لي
 أن الرجل في صميمه شاعر حساس، يمتاز بروحانية صوفية في
 نظره الى الوجود ، ولكن الذي أسقط من قيمة أدبه شيئان :

1) أنه متعجل مكثار، لا يصبر على التجويد الذي هو عمل لا بد منه للفنان المتسامي.

2) أن صورته الشعرية لا تبدو واضحة كاملة في شعره، بحيث ترغمك على تذوقها والاستمتاع بها، بل إنها لتبدو ملتأمة غائمة سريعة كل السرعة، كأنها صور شريط سينمائي يدار بسرعة جنونية، وهذا السبب ينأى بالناس عن تذوق شعره، وإدراك ما فيه من صور شعرية وإحساسات عميقة، تدل على نفس واعية، ولذلك فشعره يبدو فاترا في كثير من الأحيان...»

وفي هذه الرسائل تتناثر وقائع حياة الشابي، وأزماته النفسية والمادية، وميلاد بعض أعماله، وتعتبر الرسالة التاسعة والعشرون المؤرخة في 19 من ديسمبر 1933 من أهم رسائله في هذا الصدد، إذ تحدث فيها عن ضياع ديوانه الذي كان يعده للطبع، وما أحدث له ضياعه من أزمة نفسية انجلت عن تحول خطير في حياته الفنية، ومن خلالها نستشف طريقته في إنجاب روائعه الفنية، وفي هذه الرسالة يقول :

لقد ربحت من تلك الأزمة التي مرت بي قصيدا هو "نشيد الجبار"، فلاني في ليلة من ليالي هاته الأزمة نمت معذب النفس مهموم القلب، ثم استيقظت في نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، فلجت بي الآلام، وضربت بي في كل سبيل... وتطورت نفسي في غمرة الألم، فبعد أن كانت معذبة باكية في ظلمة أحزانها... انقلبت ثائرة هائجة، واثقة من نفسها،

ساخرة من القدر والداء والأعداء وكل آلام الحياة، وتحت تأثير هاته الحالة النفسية نظمت "نشيد الجبار"، فذابت آلام نفسي، وشعرت بالحرية والانطلاق... وقد نظمته في تلك الليلة، ولكن نفسي لم تنهض لكتابة ولو كلمة منها، وفي نحو الفجر نمت مرتاح النفس مطمئنا، وأفقت من الغد فلم أجدني قد نسيت كلمة واحدة، فكتبتها، ولم أزد عليها الا نحو بيت أو بيتين، وبعض تنقيحات وجدتها لا بد منها.

... والفرق بيني وبين نفسي الأولى أنني كنت أقبل آلام الحياة، وأنحس أسواكها بنفس ضارعة، وقلب داعم، أما الآن فلأنني ألقاها ببسمة الساخر، ونظرة الحالم المنتشي بجمال الوجود، وقد أحسست بهذا التطور لما اصطفت بعين دراهم، ولعل جمال الطبيعة هناك قد كان له أكبر الأثر في تلوين نفسي بهذا اللون الجديد، كما أن مصيفي هذا العام، وما رأيت فيه من صور الطبيعة الرائعة قد أكمل هذا التطور ونماه، أما الآن فأنني أشعر بانقلاب عميق في نفسي، قوي كل القوة، وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحي بقصيد "الصباح الجديد"، وقصيد "نشيد الجبار"، وهو صورة صادقة لنفسي في طورها الحاضر الجديد.

وهذه الرسالة من أهم رسائل الشابي كذلك، لأنها تحلل مرحلة نفسية وفنية من مراحل تطور الشاعر، وتضعها في إطار التحليل العلمي، فتتقصى الظواهر، وتبين الدوافع، وتخرج بنتيجة منطقية، يؤيدها التطبيق.

والواقع أن نشر رسائل الشابي على هذا النحو جهد محمود يضع وثيقة هامة، ومادة علمية بين يدي مؤرخي حياة الشابي، ومؤرخي هذه الفترة من تاريخ الأدب العربي المعاصر.

كما أن وضع هذه الرسائل في بيئتها الطبيعية بين رسائل الحلبي ورسائل البشروش أضاف إليها قيمة دراسية جديدة، وألقى بها أضواء كاشفة على هذه الحياة المجيدة لشاعر عربي عبقرى معاصر. (1)

(1) قدم للرسائل ونشرها بتونس أبو القاسم محمد كرو ، بمناسبة المهرجان الذي أقيم للشابي عام 1966 .

دراسات عن الشابي من سلسلة « مكتبة الشابي »

من تمام عناية الادباء والنقاد التونسيين بشاعر تونس الاكبر
أبي القاسم الشابي حرصهم على جمع ما كتب عنه ، ونشره ، ووضع
في متناول القراء والدارسين ومؤرخي الادب المعاصر .

وفي هذا الكتاب - وهو الحلقة الثانية من سلسلة مكتبة
الشابي - حرص الاستاذ أبو القاسم كرو على جمع ما وقع في متناول
يده من دراسات وبحوث ونشره تحت عنوان « دراسات عن الشابي »
تناولت ما كتب عن الشابي منذ وفاته عام 1934 حتى الستينيات ،
وقد أحسن كرو صنعا بجمع هذه الكتابات التي كانت مبعثرة في
شتيت الصحف التي احتجبت الكثير منها ، وأصبح العثور عليها
يمثل صعوبة كبيرة ، بل قد ينذر الحصول عليها بالنسبة لدارسي
حياة الشابي ومؤرخي أدبه .

ولقد صنفها الناشر في قسمين : الاول دراسات من المغرب ،
والثاني دراسات مشرقية .

وكتاب الدراسات المغربية هم الاساتذة : الشاذلي القليبي ،
وكرو ، وفريد نمازي ، والعروسي المطوي ، وعامر غديرة ، ومحمد
بدرة ، والهادي العبيلى ، ومحمد البشروش ، وابراهيم بورقعة ،
والبشير الفورتى ، وهم من تونس ، وهناك آخران هما خليفة
التليسى من ليبيا ، وعبد الله شريط من الجزائر .

أما كتاب المشرق فهم الدكاترة والاساتذة : محمد مندور ،
ومصطفى بدوى ، وحسن محمود ، ونظمي خليل ، وهم من مصر ،

ثم عبد المجيد عابدين من السودان ، وشوقي أبو شقرا من لبنان .

ونحن نعرض هذه الدراسات حسب ترتيبها في الكتاب ، بغض النظر عن موضوعاتها ، فقد يتكرر الموضوع عند أكثر من كاتب ، وقد تتوارد الأفكار عند بعض الكتاب ، وقد تختلف وجهات النظر في الحقيقة الادبية الواحدة .

وتبدأ الدراسات المغربية بعد مقدمة الناشر بدراسة الشاذلي القليبي عن « الشابي وتجربة الفجر البعيد » ، يقول فيها : اننا لا نستطيع دراسة نفسية الشابي الا اذا عرفنا بالتحديد تاريخ ميلاد قصائده ، والظروف النفسية التي قيلت فيها ، ويلاحظ أن الشابي يرفض الحياة البشرية ، لانها حياة الشقاء والالم ، ويتجه بحياته الفنية الى عالم يتلألأ نورا وسعادة ، وهو يرمز الى هذا العالم بالنور، والفجر البعيد ، والصباح الجديد .

ويتحدث أبو القاسم كسرو عن « ميلاد الشابي » ، متفقاً مع القليبي في أن الشابي كان يتوق الى التجربة الجديدة ، تجربة الموت، ليصل الى عالم الخلود الملى بالسعادة ، ويزيد فيعرض حفاوة الشابي بشعبه ، فهو يستنهض هممه ، ليصل بكفاحه الى المكانة الجديرة به ، ويحقق لنفسه الحرية والكرامة والاستقلال .

ويتساءل الدكتور محمد فريد غازي في بحثه « كيف ندرس الشابي ؟ » ويجيب بأنه يمكن دراسة الشابي كشاعر فرد ، كما يمكن أن يدرس باعتباره فرداً من أفراد المدرسة الرومانتيكية ، وهي وسط بين المدرسة الكلاسيكية والمدرسة الرمزية . ثم يدعو الباحثين الى وضع تخطيط علمي لدراسة الشابي ، وذلك بتأريخ قصائده ، وربطها بالبيئة ، وجمع رسائله ويوميانه التي هي صورة دقيقة لحياته ، وكذلك بقية آثاره المبعثرة ، وجمع شهادات معاصريه، وبحث البيئة الفكرية التي عاشها الشاعر ، والتعريف بمعاصريه

وخلطائه ، وحتى الشعراء الصغار الذين أخلهم ، لانهم يشكلون ديناميكية الحركة الادبية والفكرية .

وللعروسي المطوى دراسة عن « الشعب في شعر الشابي » ، يتساءل فيها ما هو شعور الشابي نحو شعبه ؟ ويجيب : هو شعور الاشفاق والحسرة والحنان والاثارة ضد الظلم والفساد ، وتهديد الطغاة بالثورة الشعبية الجارفة ، ثم هو شعور الغضب على الشعب ، واخيرا هو الاعتزال والهروب الى عالم الخيال .

وفى دراسة مقارنة « بين الشابي وجبران » يرى خليفة التليسي أن الشابي تلميذ جبران في الخصائص الفنية ، وفلسفة الحياة ، والحب والحرية والتمرد والثورة على كل قديم ، ويؤكد أن الشابي تأثر بجبران وبالادب المهجري على العموم تأثرا عميقا .

وعامر غديرة يكتب عن « محاولة جعل اطار لترجمة الشابي » متبعا طريقة التحقيق العلمى المرتكز على اعمال الراى ومشاهدة الوثائق والرجوع الى المصادر الموثوق بها ، على أن يعتبر هذا اطارا لبحث تنصاف عليه كل الجهود ، اذ لا يكفى فيه عمل الفرد .

وتطبيقا لهذا يتتبع الباحث أهم التواريخ والوقائع والاماكن التى لها أثر فى حياة الشابي ، ثم يحقق البيئة الاجتماعية التى أثرت فى فنه ، وأول قصيدة أنشدها بالعاصمة ، ثم يعرض لطرف من حبه .

وعن « أبى القاسم الشاعر » يقول محمد بدره : ان الشابي هو الذى أعلى صوت تونس فى العالم العربى ، وحافظ على التراث اللغوى ، وهو يعتبره مثالا أعلى لمجدى الادب المعاصر ، بتوخي البساطة ، لانه يكتب من فيض الروح ، ويحتضن الشعب ، ولا يعنى بالتشبيهات الهندسية المقوطة .

وفى « ذكرى ميلاد الشابى » يتحدث الهادى العبيدى عن البيئة التى أطلتته من بين الجمود والرجعية ، فاصبح يبشر بالحرية والتجديد والانطلاق ، ويظل ماضيا فى استنهاض همم شعبه على الرغم من سدنة التقاليد ، لكن رفاهة حسه ، وتحالف الامراض عليه جعلت نزعة التشاؤم تنتابه ، فانزوى عن المجتمع ، وأخذ يهوى ويهوى حتى فارق الحياة ، ولكنه استطاع أن يخط لنفسه سطور الخلود .

وعن « الشابى والحياة » يتحدث عبد الله شريط عن الحياة وكيف عرفها الشابى معرفة عميقة فى هذا العمر القصير ، وكيف تبرم بها ، وكيف نفر من المجتمع ، وكيف يئس من الشعب ، لكن الشابى كان مع ذلك مؤمنا بالحياة ، واثقا من غاياتها الحيرة ، ومثلها العليا التى يؤمن بها ايمانا كاملا ، ومن هنا استطاع ان يفرغ من تذوق الحياة بسرعة مادية هائلة ، وأن يتخذها معبرا الى صميم الحقيقة ، وهى الموت الذى هو بالنسبة له صباح جديد .

وعن « نفس الشابى » يتحدث محمد عبد الخالق البشروش رفيق حياته ، فيقول : ان حياته شيلت على العطف العميق ، فعاش يتعاطف مع الكون ، ويبادله المحبة والفهم ، ويتغنى بآلام الحياة وأفراحها ، وفى عزم صادق يصارع القدر ، ويغالب المصاعب ، ولكن التشاؤم كان يصبغ حياته ، الا أنه تشاؤم أملتة الصلابة والعزم ، وليس تشاؤم الضعف والتهافت .

وعن « حياة أبى القاسم الشابى » يحكى ابراهيم بورقة عن بداية الحياة الثقافية للشابى ، وكيف كان منذ صباه يتردد على المكتبة ، ويستعير الكتب والمراجع الاساسية فى الادب ، وهى يومئذ كتب أكبر من سنه ، وكيف كان يخفى أدبه وأشعاره عن أقرب الناس اليه خوفا من استنكاره أو مصادرته من قبل أبيه ، الذى كان يريد ان يعده لشي آخر ، وبالفعل كان هو يعد نفسه للتصوف ،

فقرأ في هذا الوقت المبكر للغزالي والتبريزي وابن عربي ، ثم تغير اتجاهه بعدما ورد على الجامع الاعظم ، فتحول الى كتب جبران ، واستوعب كتاباته بشغف ، حتى أصبح وكأنه يكتب بقلمه ، وينظر الى الحياة بمنظاره ، مما شجعه على العودة الى كتب القدامى ، ثم الى أدباء الشرق المعاصرين ، ثم الى المترجمات من أدب الغرب ، ومن هنا أصبح الادباء العالميون هم مثله الاعلى الذي اقتفاه ، وآية ذلك أنه لم يسخر شعره لمدح أو هجاء أو رثاء .

اما بحث البشير الفورتى فكان موضوعه « أبو القاسم كما يجب أن يقال عنه في حياته وبعد موته » ، وهو يشير الى تأثيره بجبران ، وبمجالس الادب ، والاجتماع بالادباء ، وكيف كانت له عينان ثاقبتان تنظران الى الوجود نظرة ساخرة تهزأ من الحياة .

ومرة أخرى يعود الينا أبو القاسم كرو بفصل عنوانه « ما يجب نحو الشابي » من باب درء الجهالة التي ما زالت تحيط بدقائق حياة الشابي خاصة ، وبواقع الادب والفن في تونس والمغرب العربي بوجه عام ، والشوط الطويل الذي لا بد منه للاعلام بالحياة الادبية في المغرب لدى أبناء الشرق العربي ، ويحدد واجب الشعب والدولة ازاء الشابي بنشر مؤلفاته ومعلومات كل معاصريه عن وقائع حياته ، وتحقيقا لذلك يقترح الباحث تشكيل لجنة لنشر كل ذلك ، واقامة قسم خاص في دار الكتب التونسية أو بمتحف باردو ، يضم كل تراثه ، واقامة تمثال له بالعاصمة وآخر بمسقط رأسه ، واطلاق اسمه على بعض الشوارع والمدارس في تونس وفي المدن الاخرى .

والى هذا الحد تنتهى الدراسات المغربية لينتقل بنا الكتاب الى الدراسات المشرقية التي تبدأ ببحث للكاتب الناقد المصرى الجهير ، الدكتور محمد مندور ، بعنوان « الشابي .. روح ثائرة » ، وفيه تبدو شخصية الشابي المتمردة ، التي أمده بطاقة شعرية قوية ،

كانت أقوى الطاقات الشعرية الضخمة بين جماعة أبولو التي كان ينتمي إليها ، ويكاد يكون شاعرا مصرية بروحه وشعره الذي نشر معظمه في مصر ، ومن مصر اشتهر وذاع صيته في أنحاء العالم العربي ، وهو الشاعر المغربي الوحيد الذي شاعت المعرفة به في مصر ، وتم التسليم بعبقريته الممتازة .

وينفى مندور تأثير الشابي بالادب المهجري أو المصري ، ويقرر أن تجديده نابع من عبقريته الفريدة وموهبته المتميزة ، وروحه الثائر ، وصراعه الدائم ، وارادته التي تذكر بارادة الحياة عند شوبنهاور ، وارادة القوة عند نيتشه ، لكنها ارادة أصيلة نابعة من شخصية الشابي نفسه .

وللدكتور مصطفى بدوي دراسة عن « التقرير والايحاء في شعر الشابي » حيث يقرر أن الشابي ينتمي الى المدرسة الرومانتيكية التي تزعمها أبو شادي في ثلاثينات هذا القرن ، وهي المدرسة المقابلة للمدرسة الكلاسيكية ، واذا تميزت هذه بالاسلوب التقريري فان المدرسة الرومانتيكية تتميز بالترعة الايحائية ، ومن أبرز ممثليها أبو القاسم الشابي الذي نستبين سمات الاسلوب الايحائي في معظم شعره ، وخاصة قصيدته « الصباح الجديد » التي تمتاز بالنغم الهادئ الموحى الذي يكمن وراء احتفاء الشاعر بحياة سامية بعد هذه الحياة ، تجعله يتجاوز هذه الحياة بآلامها ومآسيها ، ولهذا فهي ترحيب بالموت ، وان يلت في ظاهرها انتصارا على الآلام ، والفضل في ذلك راجع الى الاسلوب الايحائي الذي يصطنعه الشابي .

والدراسة التالية لحسن محمود بعنوان « نظرة في شعر الشابي عامة » وفيها يقرر أن الشابي فنان قارب نهاية العبقرية في هذه الفترة القصيرة من حياته ، ويلخص عناصر التجديد عند الشابي في ابتكار العناوين التي تشي بالرمزية ، وفي روح التمرد والثورة ،

والسخرية من الحياة وعطفه على من فيها ، وفي المسحة الفلسفية التي تغلب على شعره ، وولعه بالطبيعة ، ونزعة التشاؤم ، والنغم الحزين المسيطر على شعره ، كما يمتاز تجديده بوحدة القصيد .

و « فن الشابي » هو موضوع بحث نظمي خليل الذي يتساءل : ما هي رسالة الشابي ؟ ويجيب بأنها رسالة القلب الانساني ، فانه شاعر يحس وليس فيلسوفاً يفكر ، ويلجأ الى الطبيعة هرباً من الانسان لما لقي من عنت الناس وقسوة المرض . وهو في اللجوء الى الطبيعة والعودة الى الطفولة يذكرنا ببغداد ، روسو ، وكينس ، لكنه ينفرد بمكونات شخصيته وبأسلوبه وتعايره وتراكيبه المبتكرة .

أما الدكتور عبد المجيد عابدين فيعقب على الكتاب الذي ألفه كاتب سوداني وقارن فيه بين الشابي والتجاني بشير في النشأة والثقافة والنزعة النفسية والفلسفية والتصوف والزهد .

وبالتقصي والتتبع لانتاج كل من الشعارين يفند الباحث آراء المؤلف ، لانه اقام كتابه على اساس من الظن ، ولم يقيم آراءه على المراجع أو الاسس العلمية المعتبرة .

وأخيراً يعرض الكاتب الناقد شوقي أبو شقرا كتاب « الخيال الشعري عند العرب » ، فيبين كيف عالج الشابي ناحية الخلق الفني في الشعر العربي ، وكيف درس خيال الشعراء العرب ومواقفهم ازاء المظاهر الجمالية في الاسطورة والطبيعة والمرأة والقصة .

وبعد ..

فبهذا الاستقصاء يكون الناشر قد أسدى لتاريخ الشابي منة جديدة الى جانب ما كتبه عن الشابي ، والى جانب احتضانه لكل ما يكتب عنه ، هنا وهناك .

ومن كمال الدقة أن كل بحث في هذا الكتاب مذيّل بتاريخ نشره والمصدر الذي نشر فيه ، وأن كان الناشر لم يعقب عليها ، بل ألقى التبعة على أصحابها ، الا فيما اقتضاه واجب التصحيح الضروري وفاء بامانة الحقيقة .

نثر الشابى

« فى مذكراته »

اشتهر الشابى أكثر ما اشتهر كشاعر عبقرى مـجلـجل
لصوت تمجـدت به تونس ، وتمجد به العالم العربى
المعاصر بأسره.

لكن الوجه الآخر للشابى كـنـاثر فـتـان وكـكـاتـب وبـاحـث
وناقـد كان أقل شهرة، مع أنه فى نثره الفنى بالذات لا يقل
جودة ولا أصالة ولا أناقة عما عرف به كشاعر.

ولقد قدمناه من قبل فى لون من نثره الحر الطليق، فى
رسائله التى كشفت عن جانب هام من جوانب حياته العبقرية،
وأفصحت عن الدوافع التى أثرت فى أدبه وفنه، وألقت الضوء
على شيء من علاقاته الاجتماعية ومجمل مواقفه من الناس
والحياة.

واليوم نقدم لونا مشابها من إنتاجه الثرى الطليق فى هذه
المذكرات التى دونها فى صورة يوميات قصيرة، لا تتجاوز اثنتين

وعشرين يومية، تبدأ في الأول من يناير عام 1930، وتتابع في الأيام التسعة الأولى على التوالي، ثم تتناثر حتى تنتهي في السادس من فبراير في نفس العام.

ويقول ناشر هذه المذكرات انها "مذكرات قيدها الشاعر في كلمات، يوما بعد يوم، مسجلا فيها خواطره وملاحظاته، ونقده لمجتمعه، وآراءه الكثيرة فيما حوله.

ولقد تمر بقصائد الشاعر كلها فلا تجدها تمثل شيئا مما صرح به هنا، ومن أجل ذلك أصبح ضروريا لفهم الشابي وتصور أدبه على الوجه الكامل أن يحيط الدارس، بل أن ينفذ الى أعماق هذه المجموعة من النصوص التي كتبها أبو القاسم عن قصد، وحررها مسجلا بها خلجات نفسه ورشحات قلمه".

وهذه المذكرات هي في الواقع جانب من جوانب نفسه، يكمل ما قاله في شعره، وما تبادله في رسائله، فقد كان في شعره يخاطب الناس جميعا على امتداد الوطن العربي كله بكل أجياله، وكان في رسائله يخاطب صديقه، وبيته جانبا من فكره ورأيه وآلامه ومطامحه، أما هنا فهو - في الظاهر - يكتب لنفسه، يناجيها، ويستبطن خفاياها.

وإذا كانت هناك دواع خاصة للشعر، وحوافز خاصة للتراسل، فإن دوافع هذه المذكرات تظل خفية، إلا اذا كشفها لنا الكاتب أو الناشر ولم يفعل أحدهما ذلك، غير

أننا نعتقد أنها ربما كانت تجربة فنية أراد بها الشاعر لونا آخر من ألوان الانتاج ، ونجاحها أو اخفاقها متروك في النهاية للقاريء، أو أنها تجربة نفسية خاضها الشاعر، وكانت هذه المذكرات لونا من ألوان التنفيس، بالإضافة الى الدافع الفردي لدى كل انسان من أن يخلو الى نفسه ساعة من نهار، يحادثها وتحادثه بخفايا الصدور.

وهذه المذكرات في مضمونها تدور حول استبطان النفس وتصوير خلجاتها، وترسم آمالها وأمانيتها وأحلامها من خلال لوحات رائعة يمتزج فيها الانسان بالطبيعة امتزاجا كاملا ، فيها الحنين الى الماضي بأخيلته الزاهية، وفيها - كما في شعره - هروب من الحياة ، وشعور بالغرابة، ولجوء الى الطبيعة المكنون، وتصوير لخلجات المجتمع، ورسم لشخصيات معاصرة عايشها الشابي وحولها الى صور نموذجية، أو صور ساخرة، تبرز مشاعره تجاه هذه الشخصيات اعجابا أو سخطا، أو حنوا وتعاطفا، وفي هذه الشخصيات السوي، وفيها الشاذ، ولكن الكاتب يصورها بصدق ودقة، وقد يستخلص منها العبرة والموعظة من خلال المحاورات الفلسفية، وقد يتحدث الكاتب أحاديث مباشرة عن وقائع محددة وأشخاص حقيقيين، يعرض من خلالها للنشاط الأدبي والفني والثقافي في تونس، الذي يشارك في دفعه وحشه الى التقدم، والدخول إلى آفاق العلم الحديث ونبد الجمود والتعصب والخرافات والرجعية.

وأحيانا يلجأ الكاتب الى الخواطر الحزينة يجترها ويجسدها

أمام القارئ الذي لا يستطيع أن يسلم من عدواها والوقوع تحت سيطرتها، وقد تتخذ المذكرات أسلوب المناجاة الضارعة المعترفة بالضعف والعيوب والمزاج العصبي وشلوذ التصرفات، والثورة على التشاؤم، ولكنها ثورة ضعيفة لا تلبث أن تضمحل وتعود للهروب الى أحضان الطبيعة والى الماضي الملون دائما بألوان الطفولة الأخاذة.

ومن خلال كل هذا تتكشف حياة الكاتب وشخصيته، تارة من خلف ستار شفاف، وتارة بطريقة مباشرة، يتحدث فيها عن وقائع حياته، وعن قراءاته، وعن أصدقائه، وأحوال مجتمعه، ورصد خطوات التقدم على أرضه.

أما أسلوب المذكرات فهو أسلوب فني أنيق، يتسم بحرارة الشاعرية، أسلوب حلو مسترسل، يروع قارئه ويطر به، ويملاً النفس بالاعجاب والاحترام، بما فيه من عمق الموسيقى، ورقة العبارة، ودقة النسيج، وانسياب الألوان، وحيوية الصورة.

يقول في أولى يومياته التي تعد قطعة حية من الطبيعة الساحرة: "في سكون الليل، هأنذا جالس وحدي، في هاته الغرفة الصامتة الى مكتبي الحزين، أفكر بأيامي الماضية التي كفتها بالدموع والأحزان، وأستعرض رسوم الحياة الخالية التي تناثرت من شريط ليالي وأيامي، وذهبت بها صروف الوجود الى أودية النسيان البعيدة النائية.

أنا جالس وحدي في سكون الليل، أستعرض رسوم الحياة،

وأفتكر بأيامي الجميلة الضائعة، وأستشير أرواح الموتى من رموس الدهور.

هأننا أنظر الى غيابات الماضي، وأحرق بظلمات الأبد الغامض الرهيب.

هأننا أنظر، فأرى صورا كثيرة تعاقبت على نفسي كغيوم الربيع، وتحركت حوالي كأنسام الصباح، وتعانقت حول قلبي كأوراد الجبل.

ثم أنظر فإذا رسوم غامضة مضطربة متقلبة كأمواج البحار، وأطياف ملونة كقوس قزح، جميلة كقلب الربيع، تمر أمامي ثم تختفي، وتسراقص حوالي ثم تبعد، ثم تتوارى في أعماق الظلام اللامسة، وأرى أحلاما ناشئة تغرد كطيور الغابات، وتنمو نمو الأعشاب، وتفتح تفتح الورود، ثم تجف وتذبل وتتناثر فتدروها الرياح، ثم تضمحل وتتلاشى في سكون المنون... » وهكذا تمضي اليومية الأولى كلها على هذا النمط، كالمعزوفة الحزينة، ولكنها لوحة متحركة للطبيعة الحية، المؤلفة العناصر والألوان والمشاعر.

وحين يصور الشاعر غربته في الحياة يررها بأن الناس لا يفهمونه حق الفهم، ولا يقدرونه حق التقدير :

” أشعر الآن أنني غريب في هذا الوجود، وأني ما أزداد يوما في هذا العالم الا وأزداد غربة بين أبناء الحياة، وشعورا بمعاني هاته الغربة الأليمة.

غربة من يطوف مجاهل الأرض، ويوجب أقاصي المجهول،
ثم يأتي يتحدث الى قومه عن رحلاته البعيدة ، فلا يجد واحدا
منهم يفهم من لغة نفسه شيئا.

انني طائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمة واحدة من
لغة نفسه الجميلة، ولا يفهمون صورة واحدة من صور الحياة
الكثيرة التي تتدفق بها موسيقى الوجود وأناشيده.

الآن أيقنت أنني بلبل سماوي قذفت به يد الألوهية في
جحيم الحياة ... وتلك هي مأساة قلبي الدامية ... “.

ثم هو حين يتحدث عن هروبه من الحياة وارتمائه في
أحضان الطبيعة يرر هذا الهروب تبريرا عجيبا، حيث يقول في
افتتاحية إحدى يومياته :

” ليس لدي ما أكتبه اليوم عن نهاري هذا، ولعل خيرا لي أن
أذهب إلى فراشي وأنام ، لأنسى في عالم الأحلام مشاهد هذا
الوجود السخيف وآلام القلب المرة الموحجة ... “.

ولعل هذه اليومية كتبت والرجل في أقصى حالات السأم
والمرض والآلام الجسدية والنفسية التي عاناها طويلا.

لكن الشابي حينما يزايله المرض وتخف عنه حدة العلل،
يصحو من رومانتيكيته الموغلة في الحساسية والعزوف عن
الحياة، ويعود فيشارك في علاج مشكلاتها يكتب في بعض
الشؤون العامة، فيقول مثلا عن وظيفة النقد والعلاقة بينه
وبين الصداقة، وعلاقة الصداقة بالحرية :

” رأيي في الانتقاد أنه ليس شيطانا يث بذور الشقاق، وانما هو ملاك يحمل سراج الحقيقة في سبيل الانسان، ورأيي في الصداقة أنها ليست بمعنى عبودية الفكر، ولكنها حرية النفس، فاني حينما أجلس الى صديق أحس باشاع الحياة في نفسي، وحينما أجلس الى عدو أحس بضيق الحياة فيها، وهاته الحرية التي تحس بها النفس بجوار الصديق ليس معناها عبودية الفكر وتكيسل الضمير، لأن الحرية لا تنتج الاستعباد، ولأن صديقي الذي يحترم نفسه ويقدر عقله الذي وهبته الحياة اياه هو الرجل الذي يكون جديرا بمحبي واحترامي، أما الرجل الذي أحبه وأستعبده بحيث يصبح ظلا لكل أفكاره وخواطري فاني أشفق عليه أكثر مما أحبه، وأرثي له أكثر مما أحترمه“.

ان هذه المذكرات على قصرها صورة نابضة من حياة كاتبها، صورت في هذا المدى القصير جانبا هاما من نفس الشاعر وتقلبات الأيام به، صورته في أحلامه ويقظته ، في مطامحه وفي يأسه ، في موقعه من الناس وموقع الناس منه، صورت أسلوبه السوي والشاذ في حياته القصيرة العميقة، فكانت حياته على قصرها وعلى رقعتها كالزوبعة الحادة العاتية، تركت أثرها على أرض الحياة رغم أنف الحياة، وما زال دويها يملأ الآفاق.

ومن خلال هذه المذكرات يبدو أن الكاتب كان يعتمد أن يدونها، فأحيانا يجد لها الوقت وأحيانا لا يجده، وأحيانا يجد

الوقت ولكنه لا يجد الكلام، وإن كان في بعض صمته أبلغ منه في كثير من افصاحه ، يقول في يومية 14 يناير : ” أشعر اليوم بفتور في بدني، وبتوعلك في مزاجي، ولا أدري مأثاه، وأحس بكآبة عميقة تستحوذ على مشاعري ، وتقبض على قلبي، وتجعلني أكره الكتب والأسفار والمحابر والأقلام.

لا أريد أن أزيد أكثر مما ذكرت ، لأنني أرى النوم يغالبني، والإعياء يدفعني الى النعاس“.

هكذا تبدأ اليومية، وهكذا تنتهي، ونحن لا نريد منه أن يقول أكثر من هذا، فقد قال في هذه الكلمات القصيرة كل شيء ، وفهمنا نحن عنه كل شيء.

أما اليومية التي تحدث فيها كثيرا ولم يقل شيئا فهي يومية السادس من فبراير، التي لم يجد لها موضوعا ، فأدارها حول حادث قليل الأهمية ثم دخل عليه صاحبه فوجده يكتب، فسأله: ماذا تكتب؟ فقال له : أكتب مذكراتي، فقال له : وهل تجد الوقت لذلك؟ فأجابه : يوما أجده ويوما لا أجده ... وانتهت اليومية بذلك ، وكانت آخر عهده بالمذكرات التي بين أيدينا، ومع ذلك فقد دلتنا على أن هذه المذكرات كانت متعمدة وليست عفوية.

ومع أن الناشر لم يوضح لنا اتجاه هذه المذكرات ، وهل انتهت أم أن لها امتدادا؟ فإن شهرا غير كامل ليس كافيا

ليشحن أديب كالشابي قلمه ثم يصمت عن هذا اللون الى الأبد، وربما لو نقب المنقبون لوجدوا ما هو أكثر، ولأصبح ذلك تيارا جديدا من تيارات أدبه يلقي الضوء على جانب من جوانبه اللامعة.

وأيا ما كانت كمية هذه المذكرات واستمرارها أو انقطاعها فانها ككل أعمال الشابي تجربة ذات أسلوب رائع، وصور حية متحركة ، تلقي ضوءا كاشفا على جانب من جوانب روحه الشفافة الموهوبة ، وتزيد بعدا جديدا في شخصيته النادرة.

وهي في الوقت ذاته زاد لمن يريد أن يدرس حياة الشابي بإلمام وتفحص حيث يستطيع أن يستخرج من كل كلمة ومن كل نبضة مفتاحا لحياة الشابي العبقريّة الخالدة، حتى تتكامل لديه سيرة من أروع السير لشاعر من عباقرة الشعر العربي المعاصر.

(1) طبعت المذكرات لأول مرة في تونس عام 1966 .

شعر أبي القاسم الشابي في ديوانه « أغاني الحياة »

- المرحلة الاولى :

ظل شعر أبي القاسم الشابي على مدى ربع قرن مبعثراً، لا يضمه ديوان منشور، منذ جمعه الشاعر، واعتزم إرساله الى الدكتور أحمد زكي أبي شادي رائد جماعة أبولو لينشره في القاهرة، حسب اتفاق سابق بينهما. لكن القدر لم يمهّل الشابي حتى يرى شعره منشوراً في ديوان، واختفت مجموعة أشعاره التي نسقها وحذف منها وأضاف، وأعدّها للنشر.

حتى كان عام 1955، حينما انزاحت كل العقبات والأشخاص الذين كانوا يترصدون الشابي في كل طريق، فأصبح الجو مهياً لكي ينتشر شعر الشابي في ديوان، فقام شقيقه الأمين الشابي بنشر ديوان "أغاني الحياة" كما سماه الشاعر وكما جمعه ورتبه، وبالقدر الذي اختاره، بعد أن محا منه ما محا، وأثبت فيه ما راق له أن يثبت، ومن المؤكد أن الشابي قد أسقط من شعره بعض القصائد التي لم يرض عنها، فلم يثبتها في الديوان، لأنها من وجهة نظره قليلة الأهمية، وصدر الديوان، وتلقاه القراء والنقاد يومها بالمزيد من الحفاوة والتقدير.

ثم كان وفاء تونس للذكرى شاعرها بإصدار طبعة جديدة من ديوان "أغاني الحياة" عام 1970، وقد أضيف إليها ما عرف من شعر الشابي حتى الآن، ومن بينها ما أسقطه الشاعر نفسه، وهو إحدى عشرة قصيدة.

وهذه الطبعة تحوي مائة وتسع قصائد، تبدأ منذ عرف الشابي كشاعر، في الفترة التي تبدأ عام 1923، وهو في الرابعة عشرة من العمر، وتنتهي بعام 1934، العام الذي انتقل فيه الشاعر الى دار الخلود.

وهذه القصائد موزعة على سني هذه الفترة على النحو التالي :

في السنة الأولى : قصيدة واحدة، وفي الثانية : اثنتان، وفي الثالثة : تسع، وفي الرابعة : خمس قصائد، وفي الخامسة : اثنا عشرة قصيدة، وفي السادسة : ست عشرة، وفي السابعة ست قصائد، وفي الثامنة : ثمان قصائد، وفي التاسعة : اثنا عشرة، وفي العاشرة : ثلاث فحسب، وفي الحادية عشرة : سبع عشرة قصيدة، وفي السنة الثانية عشرة والأخيرة : ثمان قصائد، وذلك بالإضافة الى عشر قصائد أثبتت بدون تاريخ.

ومن هذه الاحصائية السريعة نرى أن ترتيب القصائد في الديوان لم يجر على الطريقة التقليدية التي اعتادها الشعراء حتى ذلك الوقت، وهي تقسيم مجموعات الشعر الى فنون وأغراض، كالنسيب والوصف، والفخر، والمدح، والثناء وغيرها، بل لقد جاء ترتيب الديوان ترتيبا تاريخيا مسلسلا،

حسب زمن ميلادها أو حسب تاريخ نشرها، لا ندرى (1). وهذا الترتيب بلا شك يعين المؤرخ الذي يريد أن يتتبع المراحل الفنية وتطورها ونضجها في شعر الشاعر، ومن هنا نستطيع أن نرصد كمية الانتاج ونوعيته من خلال هذا الترتيب الزمني، اذ نراه في السنة الأولى نادرا، ونراه أغزرها ما يكون في السنة الحادية عشرة، وفي السنوات الأولى نلاحظ كذلك وفرة انتاجه في شهور الصيف، ولعل ذلك راجع الى ما تتيحه له العطلة الصيفية من فراغ، وقد كان طالبا في الزيتونة ثم في كلية الحقوق التونسية، أما في السنوات الأخيرة فقد كان شعره موزعا على مختلف شهور السنة.

وهذا الترتيب يعطينا كذلك امكانية قياس تدرج الشاعر فنيا، وملاحظة مراحل نضج شاعريته ونموها وتطورها. فنحن نراه في السنوات الأولى يسير في الدروب المطروقة، والأغراض التقليدية التي يبدأ بها كل شاعر ناشئ، فقصائده الأولى تجري في إطار الحب، والنجوى، والطبيعة، والوصف الساذج، والنقد الاجتماعي اللاذع، وتشيع فيها السامة، والكآبة، والاحزان والدموع، والتشاؤم، واللوعة، وأحلام الطفولة، وان بدت فيها ومضات من التفاؤل والاقبال على الحياة.

وهذه المرحلة مطبوعة بطابع الأشواق والتطلعات والجموح الذي يغلف فترة الصبا وبواكير الشباب، وهي فترة تحول غير

(1) الثابت عندي من القرائن الخارجية انه تاريخ ميلادها .

مستقرة . فلم يخرج الشاعر بعد من إطار التقليد الذي تتردد فيه الأفكار والمعاني والصور المعتادة في عبارات هائمة، تتناثر خلالها المحسنات، ويبدو فيها الميل الى اظهار البراعة في استخدام اللغة لتكوين صور ساذجة، يتخذ منها الشاعر معرضا لثروته اللغوية، وما يملكه من مفردات القاموس، ويبرز قدرته على استخدامها.

ففي أولى قصائده " الغزال الفائن " يقول :

بلر الحب بذره	في فؤادي فأورقا
بلحاظ نوافث	فجنى حظي الشقا
وسعى فيه مهره	عاديا، ثم أعنقا
رب ظبي علقته	بالها قد تفرطقا
سحر اللب طرفه	مادهى الريق لورقي
أو صبا الصب صده	والشفا لو ترفقا

وهي كما نرى معرض للبراعة، تجري في موكب الموشحات التي تتسم بهذا اللون من البراعة.

ومثلها قصيدة " أيها الحب " التي يحشد فيها ما يدل على براعته في السرد وتتابع الألفاظ وترادفها، واضطراب الموسيقى لترسم صورة سريعة ولكنها قريبة العمق :

أيها الحب أنت سر بلائي وهمومي، وروعتي، وعنائي
ونحولي، وأدمعي، وعذابي، وسقامي، ولوعتي، وشقائي
أيها الحب أنت سر وجودي، وحياتي، وعزتي، وإبائي

وشعاعي ما بين ديجور دهرى، وألفى، وقرئى، ورجائى
ألفاظ موسيقية راقصة متراسة، لا عناء فيها ولا غناء منها،
وما على الناظم الا أن يضع لها الاطار، ثم يطلقها فاذا هي شر
ونغم حلوا، ولكن ربما يكون كل ما فيها هو الايقاع وحده.

على أننا نلمح قرب نهاية هذه الفترة تطورا ما، حيث
يحاول الشاعر أن يتخلص من أسر الألفاظ ومن البراعة اللغوية،
ولكنه يظل واقعا في أسر الموسيقى، يحاول فيها بعض
التجديد، فيقع في التناقض بين الحفاظ على النغم التقليدي وبين
النزعة التجديدية، ويضطر الى أن يلجأ الى أي تغيير، فلا يسعفه
الا اطار الموشحات، حيث يقول في قصيدته ” أغنية الأحران “

غنني أنشودة الفجر الضحوك أيها الصداح
فلقد جرعني صوت الظلام
ألم أعلمني كره الحياة
ان قلبي ملأ أصدااء النواح
غنني يا صاح

* * *

حطمت كف الأسى قيتارتي في يد الأحلام
فقط صمتا أناشيد الغرام
بين أزهار الخريف الذاوية
وتلاشت في سكون الاكتئاب
كصدي الغريد

* * *

كف عن تلك الأغاني الباسمة أيها العصفور
فحياتي ألفت لحن الأسى
من زمان قد تقضى ، وعسى
أن يثير الشلو في صمت الفؤاد أنة الأوتار

وفي نهاية هذه المرحلة يكون الشاعر قد تعب من معاناة
التجديد لمجرد التجديد، فيلجأ مباشرة الى المعري يستعير منه
الحكمة، والفكرة، والصورة في مقطوعته ” قالت الأيام “ :

يا أيها السادر في غيه يا واقفا فوق حطام الجباه
مهلا ، ففي أنات من دستهم
صوت رهيب سوف يدوي صده

لا تأمن الدهر اما غفا في كهفه الداجي ، وطالت رؤاه
فان قضي اليوم وما قبله ففي الغد المحي صباح الحياه
يأيها الجبار لا تزدري فالحق جبار طويل الأناء
يغفى وفي أجفانه يقظة ترنو الى الفجر الذي لا تراه

ثم تنضج عواطف الشاعر وتتركز ، وتسير أدواته الفنية نحو
الاكتمال، فتستبين شخصيته بما فيها من تشاؤم، وحزن، وانطواء،
وتضح صوره، ويصبح لشعره معجم خاص ، تصنعه عاطفته
المتوهجة، بعد أن نسي ألفاظ القاموس التي كان يدخرها ،
ويجرب براعته في استعمالها، وبذلك أصبح الاطار الفني طوع
الفكرة الناضجة والعاطفة المركزة.

يبدو ذلك في قصائده "بقايا الخريف"، و "أغنية الشاعر"،
و "في فجاج الألم"، و "مناجاة عصفور"، و "الى الموت"
وما يتلوها، حيث يركز الشاعر على معانيه التي ابتكرها، وألفاظه
التي اشتقها، وهنا يقلع عن الجري وراء التجديد، وهنا أيضا
يتسلل التجديد الى شعره عفوًا، وبلا كبير معاناة ولا تكلف،
وبذلك يكون طبيعيًا، لأن التجديد في طبعه وليس بالتصنع.

ويكاد الناظر في ديوان "أغاني الحياة" يقطع بأن هذه المرحلة
القلقة تنتهي بهذه الأبيات من قصيده "صوت تائه":

يأيها الساري لقد طال السرى حتام ترقب في الظلام نجوما
أتخال في الوادي البديع المرتجى هيهات لن تلقى هناك مروما
سر ما استطعت فسوف تلقى مثلما خلفت ممشوق الغصون حطима

هنا تنتهي هاته المرحلة لتبدأ مرحلة جديدة في حياة الشاعر
وفنه، وليس معنى ذلك قيام حد حاسم يفصل بين المرحلتين،
فمر احل الحياة متداخلة ومتفاعلة، وحياة الفنان - كحياة
كل انسان - متدفقة كأمواج النهر، ولكن الدارس يستطيع أن
يلمح في فترة من فترات حياة الفنان غلبة سمات معينة، يمكنه
منها أن يضع علامات على طريق هذا الفنان، يقيس بها مدى
التطور - أو الانتكاس - في مراحل فنه، فهناك تدرج قد
يكون بطيئًا وقد يكون سريعًا، قد يكون واضحًا وقد يكون غائماً،
قد يكون قليلًا وقد يكون كثيرًا، لكنه ملحوظ على كل حال.

ومن هنا نستطيع أن نتبع المرحلة التالية في حياة الشابي وفنه، فالى اللقاء مع المرحلة الثانية من شعر الشابي.

- المرحلة الثانية :

إذا كنا قد وجدنا في شعر الشابي سمات رومانتيكية حادة في المرحلة الأولى من حياته الفنية، ورأيناه يجرى نحو التجديد الحقيقي، وتسلسل الى شعره ملامح جديدة، فإننا نلاحظ في المرحلة الجديدة من شعره سمات تقربه من النضج، وتجعل منه شاعرا متميزا القسما، متفردا الشخصية.

في هذه المرحلة وجد الشاعر نفسه، واهتدى الى النغمة الصحيحة، ففي قصائده: "نشيد الأسى"، و"قلت لأشعر"، و"يا ابن أُمي"، و"أغاني التائه" بدايات تختلف قليلا أو كثيرا عن شعر المرحلة الأولى الذي ألممنا به سابقا.

ففي هذه القصائد وتواليها نضج أكثر في العبارة والصورة والفكرة، وتركيز أكثر في العاطفة ووحدة الواضحة، وانطلاق من قيود التجربة التي خاضها ليصبح شاعرا مجددا وأصيلا.

نحن نحس بشيء جديد فعلا حينما نستمع الى قصيدته "نشيد الأسى" التي يقول فيها:

ما للمياه نقية حولي وينبوعي مشوب ؟
ما للصباح يعود للدينا وصبحي لا يؤوب ؟

ما لي يضيّق بي الوجود وكل ما حولي رحيب ؟

... ..

مهما تضحكت الحياة فإنني أبدا كئيب
أصغي لأوجاع الكآبة والكآبة لا تجيب
في مهجتي تتأوه البلى ويعلج النحيب
ويضج جبار الأسى وتعيش أمواج الكروب
إنني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضطلعا بأحزان الشيبة والمشيب

فهنا تتركز العاطفة وتتحّد ، وتتكامل الصورة التي ترسم
لنا تبرم الشاعر بالحياة، ويأسه منها، والانسحاق وراء
أحزانه، وتواءم الايقاعات مع أحزان الشاعر، ففيها
المحّة، وفيها النبرة العميقة التي تنقل الى القارئ احساسا
عميقا بالألم والاكتئاب والكروب.

وفي قصيدته "قلت للشعر" مناجاة شخص ينطوي على
نفسه، ويطوي جوانحه على أحزانه، منعزلا عن الناس،
لا يجد من يناجيه الا شعره الذي يعايشه، ويقاسمه آلامه
ومسراته، فهو سلوته الذي يشاركه عنت الدهر، ويسري
عنه قسوة الأيام :

أنت يا شعر قصة عن حياتي أنت يا شعر صورة من وجودي
أنت يا شعر - ان فرحت - أغاردي ، وان غنت الكآبة عودي
أنت يا شعر كأس خمر عجيب ألهي به خلال اللحود

أتحساه في الصباح لأنسى ما تقضى في أمسي المفقود
وأناجيه في المساء ليلهيني مرآه عن ظلام الوجود
أنا - لولاك - لم أطق عنت الدهر ولا فرقة الصباح السعيد
أنت ما نلت من كهوف الليالي وتصفحت من كتاب الخلود

وفي قصيدته "يابن أمي" يخاطب في الانسان حريته التي
هي هبة الله، ويهيب به ألا يتخلى عنها، وفيها تتمثل الطلاقة
والانسياب والرؤى المجنحة، وتعميق جوانب الصورة بالإلحاح
عليها، والخلاص من قيود الصنعة الى حد كبير:

خلقت طليقا كطيف النسيم ، وحرا كنور الضحى في سماه
تغرد كالطير أنى اندفعت، وتشدو بما شاء وحي الاله
وتمرح بين ورود الصباح، وتنعم بالنور أنى تراه
وتمشي - كما شئت - بين المروج وتقطف ورد الربا في رباه
كذا صاغك الله يابن الوجود، وألقنك في الكون هذي الحياة
فمالك ترضى بذل القيود، وتحني لمن كبلوك الجباه ؟
وتسكت في النفس صوت الحياة القوي اذا ما تغنى صداه
ألا انهض، وسر في سبيل الحياة ، فمن نام لم تنتظره الحياة

بهذا التحرر وهذا الانطلاق ، وبهذه الدعوة المججلة الى
التمرد ينطلق الشاعر ليمجد الانسان الذي لا يراه مدينا لأحد،
وليس ابن أحد، ولكنه "ابن الوجود".

وهكذا يسير الشاعر، صاعدا من قمة الى قمة، فيرق شعره،
ويعذب، ويقوى، ويتماسك، وتتمثل فيه الثورة، حتى يصبح

هو نفسه بين عشية وضحاها قمة من القمم في الشعر العربي المعاصر.

وإذا كان قد برز في هذه الفترة من ثلاثينات هذا القرن شعراء كثيرون في مصر وفي بلدان الشرق العربي، خضعوا لنفس المؤثرات التي خضع لها الشابي، وتشرّبوا دعوة التجديد التي دعت إليها مدرسة الديوان، وشاركوا في مسيرة جماعة أبولو، وأصبحوا عصاة لهذا التجديد — فإن الشابي يتميز بلون منفرد عن هذا الرعيل من الشعراء المجددين، يتميز بعذوبة الآراء في شعره، بانسياب موسيقاه، بتخير ألفاظه، بتلوين صورته، بالتعبير المباشر عن عواطفه الحزينة.

إن حرارة العاطفة، ودفء الكلمة، ومثانة النسيج، ورقة النغم، وجدة الصورة قد أصبحت أكثر وضوحاً في شعر الشابي، تميز بها بين شعراء جيله، وبها استطاع أن يسيطر على قارئ شعره، وأن يفتح مغاليق القلوب العربية بأيسر مما استطاع أي شاعر آخر.

فحينما نقرأ قصائده: "صلوات في هيكل الحب"، و"أراك"، و"قلب الأم"، و"من أغاني الرعاة"، و"الصباح الجديد" — تهتز جوانحنا طرباً، وتكاد تشف، وتطير مع أخيلة الشاعر المجنحة، وموسيقاه الراقصة، ونحن نتلوق جرس الألفاظ التي تشكل نسيجاً شفافاً ومتماسكاً لصورة بديعة تصنعها ريشة فنان موهوب.

وحيثما نقرأ "حديث المقبرة"، و "في ظل وادي الموت"، و "الجنة الضائعة"، و "السعادة" - نأسى مع الشاعر على الصورة القائمة الحزينة التي يلون بها حواشي الحياة، ويعيدنا بتشاؤمه، ويقنعنا بفلسفته التي ترفض الحياة.

وفي قصيدة "ارادة الحياة" بالذات نحس الشاعر بطلا من أبطال الأساطير، يحطم القيد، ويشور على الضعف، ويكاد يهز الدنيا بزثيره، ويستثير الكائنات من حوله، يدعوها الى القوة بكامل معانيها، ولهذا أصبحت أشهر قصائده التي تتردد بقوة واعتزاز في أسماع العالم العربي.

وبمثل قصائد "حديث المقبرة"، و "ارادة الحياة"، و "تحت الغصون"، و "فلسفة الثعبان المقدس" - يقدم الشاعر مشاركة لها قيمتها في الشعر القصصي، وفي اللون الحوارية بصفة خاصة، حيث يجري الحوار الجذاب المركز الهادف الى تكوين الفكرة المقنعة من أقرب طريق، ويشوق القارئ الى المزيد، ويجعله يسلم لمنطق الشاعر في يسر وسهولة.

أما موقف الشاعر من شعبه فيشكل قضية تختلف فيها أوجه الرأي: هل هو كاره لشعبه، يجاهره العداء، ويحقره ويزدرجه، ولا يعترف أنه من بين شعوب العالم جدير بالحياة والحرية والتقدم؟ هل يبادل الشعب عداء بعداء وإهمالا بإهمال؟ هل ينقم على شعبه ما جرعه من مرارة الحرمان والجحود؟

كل هذا يدور في خلد قاريء شعر الشابي، وخاصة قصيدته :
 ” الى الشعب “، و ” النبي المجهول “.

لكن المتأمل فيما وراء الالفاظ يجد الشابي أحرص ما يكون
 على حرية شعبه وعلى تقدمه، الا أنه حينما يثور على الرجعية
 والجمود والتخلف لا يجد غير الشعب من يتوجه اليه بشرف
 الخطاب، أو من يوجه اليه العتب، انه في الظاهر يعنف بالشعب،
 ويواجهه باللوم، لكنه في الواقع يشكو اليه، ويستعديه على
 كل النقائص وكل المعوقات، وكل عوامل التخلف، ويصارحه
 مصارحة رائعة وفدائية وحريصة على حرية الشعب ومستقبله
 وتقدمه ولكن بطريقته الخاصة، وبأسلوبه الاستنهاضي المثير،
 لا يتملق، ولا يداجي، ولا يسير في الركاب، وهو الذي يستحث
 شعبه في قصيدته ” ليت شعري “ التي يقول فيها :

يا بني الأوطان هبوا فلقد طال الوجوم
 وانفضوا نهضة جبار بعزم مستقيم
 لست أبغي نهضة العاجز يتلوها الحسوم
 ليت شعري: هل سحاب الجهل تذروه العقيم
 فترى الأعين بلدر العلم قد شق الغيوم
 ليت شعري يا بلادي هل تصافيك العلوم

أما تشاؤم الشابي فهو تشاؤم الرومانتيكيين التأثيرين على
 الحياة، الطامحين الى الكمال في كل شيء، وهو ينتهي دائما
 بالاجوء الى الطبيعة، يغنيها، ويستمع الى ألحانها ، بين

خريـر الجـداول، وعـيـر الصـوبـر، وسـقـة العـصـاـفـير، وهـو
يـغـنـي مـعـها فـي قـصـيـدـتـه ”أحـلام شـاعـر“، حـيـث يـقـول :

لـيـت لـي أن أـعـيـش فـي هـذـه الدنـيا سـعـيـدا بـوحـدـتـي وائـفـرـادـي
عـيـشـة لـلـجـمـال وـالـفـن أبـغـيـها بـعـيـدا عـن أـمـتـي وبلـادـي
وبـحـسـبـي مـن الأـسـى ما بـنـفـسـي مـن طـرـيـف مـسـتـحـدث وقلـاد
وبـعـيـدا عـن المـدـيـنة وـالنـاس، بـعـيـدا عـن لـغـو تـلك النـواـدي
فـهـو مـن مـعـدن السـخـافـة وـالإـفـك، وـمـن ذاك الـهـراء العـادـي
أين هـو مـن خـريـر سـاقـية الوادـي، وـخـفـق الصـدـى، وشدو الشـادـي
وحـفـيف الغـصـون نـمـقـها الطـل وـهـمـس النـسـيـم للأـوراد
هـذـه عـيـشـة تـقـدـسـها نـفـسـي، وأدـعـو لـمـجـدـها وأنـادـي
وفـي هـذا المـجـال يـقـول مـن قـصـيـدة لـه بـعـنـوان ”السـعـادـة“ :

وإن أردت قضاء العيش في دعة شعـرية لا يـغـشـي صـفـوها نـدم
فأترك إلى الناس دنياهم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش أو رسموا
واجعل حياتك دوحا مزهرا نضرا في عزلة الغاب ينمو ثم ينعدم
واجعل لياليك أحلاما مغردة ان الحـيـاة وما تـدوي بـه حـلم

فـهـو يـسـأم حـيـاة النـاس وما فـيـها مـن لـغـو وفضـول، وما يـغـشـيـها
مـن زـيـف، وـيـلـجـأ إلى الطـبـيعة يـحـتـمـي بـها، وـيـعـايشـها، وـيـنـاجـيـها،
على طـرـيـقة أشـبـه ما تـكـون بـنزعة جـبران، فـالطـبـيعة — كـما
يـقـرر رـوسـو — هـي الأم الرـعـوم، وهـي المـعـلم الأول.

والطـبـيعة عـند الشـابـي لـوحـة رـائـعة لا تـشـوبـها شـائـبة، ولا يـحـف بـها
كـدر، وـكل ما فـيـها حـلو مـحـبب، وأروـع ما فـيـها أنـها تـرتـد بـه

الى الطقولة بما فيها من جمال ، وكل ما في الطقولة جميل ،
وأجمل ما فيها عبثها ولهوها وسذاجتها المحببة :

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه المنير
ودعاة العصفور بين جداول الماء النير
أيام لم نعرف من الدنيا سوى مرح السرور
وتبع النحل الأنيق، وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور
ونظّل نعبث بالجليل من الوجود وبالحقير
بالسائل الأعمى، وبالمعتوه والشيخ الكبير
بالقطة البيضاء ، بالشاة الوديدة، بالحمير
بالعشب، بالفنن المنور، بالسنابل، بالسفير
بالرمل، بالصخر المحطم، بالجداول، بالغدير

هذه هي الحياة الطبيعية التي يأوى اليها الشاعر كلما أجهده
المسير في دروب الحياة، وكلما ثارت بأزماتها، وأثقلت
كاهله تبعاتها، خاصة وقد حفت بحياته الأمراض، وغربة
الروح، ومكابدة الرجعية التي عاشتها بلاده، قبل أن تصبح
في عداد البلاد الحرة المناضلة الساعية الى التقدم.

— المرحلة الثالثة :

في عرضنا لشعر الشابي ألمنا بمرحلتين من حياة الشاعر وفنه ، والآن نلص بالمرحلة الثالثة التي كونت الصورة النهائية لشعر الشابي وبلورت شخصيته.

ونود أن نشير هنا الى أن الباحث التونسي أبا القاسم كرو مؤرخ حياة الشابي ومتتبع آثاره قسم شعر الشابي الى مرحلتين زمنييتين : مرحلة ما قبل العشرين ، ومرحلة ما بعد العشرين ، لكنه لم يقدم لنا أساسا فنيا أو تاريخيا يبرز هذا التقسيم (1).

ونحن هنا نعتمد على ما لمسناه من ملامح فكرية وفنية لكل من المرحلتين السابقتين ، ثم على تقرير الشابي نفسه وهو يعبر عن احساسه بأن شعره يدخل طورا جديدا في مرحلة أخيرة من حياته.

فلقد مرت به أزمة نفسية في نهاية عام 1933 ، بدأت على أثرها مرحلة جديدة في حياته نستطيع أن نسميها مرحلة القوة.

يقول الشابي في إحدى رسائله الموجهة الى صديقه محمد الحليوي في التاسع عشر من ديسمبر عام 1933 : ” الفرق

(1) التقسيم الذي ذهبت اليه ، ما زال هو الاصح .. وهو قائم على أساس تاريخي وفني إشرت اليه في مكانه ، وهو ما ذهب اليه المؤلف هنا .. لكنه حاول إيجاد قسم ثالث مع انه سيعترف بتداخل المراحل وصعوبة التمييز بينها .

يني وبين نفسي الأولى أني كنت أتقبل آلام الحياة وأنحس
أشواكها بنفس ضارعة وقلب داعم، أما الآن فاني ألقاها
بیسمة الساخر، ونظرة الحالم المنتشي بجمال الوجود، وقد
أحسست ببداية هذا التطور لما اصطفت بعين دراهم، ولعل
جمال الطبيعة هناك كان له الأثر الأكبر في تلوين نفسي بهذا
اللون الجديد، كما أن مصيفي هذا العام، وما رأيته فيه
من صور الطبيعة الرائعة قد أكمل هذا التطور ونماه، أما
الآن فاني أشعر بانقلاب عميق قوي في نفسي كل القوة،
وستدرك هذا التطور في نفسي حينما نطلع على قصائدي الجديدة،
وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحي بقصيد "الصباح الجديد"،
وقصيد "نشيد الجبار"، وهو صورة صادقة لنفسي في
طورها الحاضر الجديد».

ويجيبه الحليوي معلقا على قصيدة "الصباح الجديد"،
قائلا: "اني لأحيى بهذا القصيد طورا جديدا دخل فيه
شعرك، فبعد التشاؤم القاتم حل المرح والابتهاج، وبعد
الليل والظلمة أطل الصباح الجديد، وأنت في طريقك الى
التسامي الى قمة الفن السامقة، لأن التشاؤم الصادق ينتهي في
الغالب بالفرح الصوفي، والبهجة الروحية.

ونحن قد لاحظنا في الحلقة الأولى من هذه الدراسة أن
شعر الشابي بلغ أوج غزارته وأوج قوته في عام 1933، الذي
حدث فيه فترة التحول التي يتحدث عنها الشاعر.

واذا تتبعنا انتاج الشاعر في الفترة التي أحس فيها بهذا التطور منذ قصيدته " الصباح الجديد " نجد شعره يتسم بالمرح والانطلاق والمغامرة، والتفاؤل، وقوة الارادة، والاقبال على الحياة، ويتخلل فيها عن الملامح الرومانسية المتسمة بالهروب من المجتمع، واللجوء الى الطبيعة، والانزواء عن الحياة والأحياء، والعتب على المجتمع ، والحساسية المفروضة التي تبحث عن الكمال المطلق في دنيا الناس.

وتصبح صور الشاعر واقعية وعميقة، وبعيدة عن الرمزية الضبابية، كما تصبح موسيقاه أكثر اتزاناً، وقد تخلت عن الصخب المجلجل والرقعة المتهاففة.

فقصيدته " الصباح الجديد " تفيض بالتفاؤل الذي يحو نزعته تشاؤمه ليبدأ مع الحياة في الظاهر رحلة جديدة، ينشر فيها شراعه، ويغامر في بحر الحياة الجديدة بسواعد قوية، وإرادة تتحدى الأيام والآلام، وتنتصر على بأساء الحياة وضرائها لقد رضي عن الحياة، ورضيت عنه الحياة، فانطلق يغني لها :

واسكنني يا شجون	اسكنني يا جراح
وزمان الجنون	مات عهد النواح
من وراء القرون	وأطل الصباح
قد دفنت الألم	في فجاج الردى
لرياح العدم	ونثرت الدموع
معزفا للنغم	واتخذت الحياة

أفغنى على	في رحاب الزمان
وأذبت الأسى	في جمال الوجود
ودحوت الفؤاد	واحدة للنشيد
والضيا والظلال	والشذا والورود
والهوى والشباب	والمنى والحنان
في فؤادي الرحيب	معبد للجمال
شيدته الحياة	بالرؤى والخيال
فتاوت الصلاة	في خشوع الظلال
وحرقت البخور	وأضأت الشموع
ان سحر الحياة	خالدا لا يزول
فعلام الشكاة	من ظلام يحول
ثم يأتي الصباح	وتمر الفصول
سوف يأتي ربيع	ان تقضى ربيع
من وراء الظلام	وهدير المياه
قد دعاني الصباح	وربيع الحياة
يا له من دعاء	هز قلبي صلاه
لم يعد لي بقاء	فوق هذي البقاع
الوداع ... الوداع	يا جبال الهموم
يا نسيب الأسى	يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقي	في الخضم العظيم
ونشرت القلاع	فالوداع ... الوداع

وقد كانت هذه القصيدة في الواقع تمهيدا رائعا لقصيدته
 "ارادة الحياة"، التي دوى مطلعها، وما زال يدوي في سمع
 العالم العربي، وهذا المطلع يمثل اللحن المميز لسفونية
 الثورة، ولما وراءها من معارك الصحو، والدعوة الى القوة
 الغالبة التي لا تقهر، وقد أصبح بمثابة الشعار والدستور الذي
 انطلق الشعب العربي تحت ندائه ليحقق حريته وذاقته،
 لكن ما وراء الشعار أروع وأقوى :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
 ولا بد الليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر
 ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوها واندثر
 فويل لمن لم تشقه الحياة من صفة العدم المتصر
 كذلك قالت لي الكائنات، وحدثني روحها المستر
 ودمدت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر
 إذا ما طمحت الى غاية لبست المنى، وخلعت الحذر
 ولم أتجنب وعور الشعاب، ولا كبة اللهب المستعر
 ومن لم يحب صعود الجبال يعيش أبد الدهر بين الحفر
 فعمجت بقلبي دماء الشباب، وضجت بصدري رياح أنحر
 وأطرقت أصغى لقصف الرعود، وعزف الرياح، ودمع المطر؟
 وقالت لي الأرض لما سألت: أيا أم هل تكرهين البشر؟
 أبارك في الناس أهل الطموح، ومن يستلذ ركوب الخطر
 وألعن من لا يماشي الزمان، ويقنع بالعيش عيش الحجر
 هو الكون حي يحب الحياة، ويحتقر الميت مهسا كبير

فلا الأفق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلمم ميت الزهر
واولاً أمومة قلبي الرؤوم لما ضمت الميت تلك الحفر
فويل لمن لم تشقه الحياة من لعنة العدم المنتصر

وهو كذلك في قصيدته ” نشيد الجبار “، يصارع الحياة صراع
الجبابرة، ويتمحدي القدر، ويصر على النصر، وسط ضغوط
الازمات الصحية وصراعات الأزمات النفسية ، لكن ذلك لا
يعوق صوته أن يجلجل وسط الأعاصير :

سأعيش رغم الداء والأعداء	كالنسر فوق القمة السماء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا	بالسحب والأمطار والأنواء
لا أرمق الظل الكئيب ، ولا أرى	ما في قرار الهوة السوداء
وأسير في دنيا المشاعر حالما .	غردا ، وتلك سعادة الشعراء
أصغى لموسيقى الحياة ووحيتها	وأذيب روح الكون في انشائيء
وأصبح للصوت الالهي الذي	يحيى بقلبي ميت الأصداء
وأقول للقدر الذي لا يتنسي	عن حرب آمالي بكل بساء
لا يطفئ لهب المؤجج في دمي	موج الأسى وعواصف الأرزاء
فأهدم فؤادي ما استطعت ، فانه	سيكون مثل الصخرة الصماء
لا يعرف الشكوى الدليلة والبكا	وضراعة الأطفال والضعفاء
ويعيش جبارا يحقد دائما	بالفجر .. بالفجر الجميل النائي

هذه هي النماذج التي يقرر الشابي أنها تحمل ملامح المرحلة
الجديدة في شعره ، وهي ولا شك بارزة فيها بوضوح.

لكن هذه المراحل في حياة الفنان — كما أسلفنا — تتداخل

وتتفاعل، فلا ينتقل من مرحلة الى أخرى فجأة، وان ظن ذلك، ولهذا فأنا أعتقد أن هذه الملامح ظهرت في شعر الشابي قبل تلك الفترة الزمنية التي حددها ، ومن أشهر القصائد التي تنتمي الى هذه الفترة والتي برزت فيها هذه الملامح الفنية قصيدته ” صلوات في هيكل الحب “، التي تنساب فيها الموسيقى الراقصة، وتتتابع فيها الصور السريعة، وتنضج العاطفة، وإن كان الخيال الرومانسي مازال يفرق الصورة في تياره، فيجعل من الحبيبة طيفا ملائكيا ليس من دنيا البشر (1):

عذبة أنت، كالطفولة، كالأحلام، كاللحن، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك، كالليلة القمر، كالورد، كابتناسم الوليد
يا لها من وداعة وجمال وشباب منعّم أملود
يا لها من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقى العنيد
أنت... ما أنت؟ أنت رسم جميل عبّري من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق وجمال مقدس معبود
أنت ... ما أنت؟ أنت فجر من السحر تجلى لقلبي المحمود
أنت روح الربيع تختال في الدنيا فتتهز روائح السورود
وتهب الحياة سكرى من العطر، ويدوي الوجود بالتغريد
فيك شب الشباب وشحه السحر، وشدو الهوى، وعطر الورود
وتراءى الجمال يرقص رقصة قدسيا على أغاني الوجود
خطوات سكرانة بالأنشيد، وصوت كرجع ناي بعيد
وقوام يكاد ينطق بالألحان في كل وقفة وقعود

(1) هنا يعود المؤلف فيقرر ما ذهبنا اليه في دراستنا وتقسيمنا لشعر الشابي .

كل شيء موقع فيك حتى لفنة الجيد واهتزاز النهود
 أنت ... أنت الحياة في رقة الفجر، وفي رونق الربيع الوليد
 أنت ... أنت الحياة، كل أوان في رواء من الشباب جديد
 أنت دنيا الأناشيد، والأحلام، والسحر، والخيال المديد
 أنت فوق الخيال والشعر والفن، وفوق النهى وفوق الحدود
 هذه هي الحبيبة التي جمع لها الشاعر كل عناصر الطبيعة،
 المتألفة والمتناقضة، وسواها طيفا لا وجود له إلا في خيال
 الشاعر، ولكن ماذا يقول فيها العالم المادي وهويناجيها :
 يابنة النور انني أنا وحدتي من رأى فيك روعة المعبود
 ولا نترك هذه الزهرة التي نشتمنا بعض عبيرها الا الى زهرة
 أنضر، هي " من أغاني الرعاة " :
 أقبل الصبح يغني للحياة الناعسة والربا تحلم في ظل الغصون المائسة
 والصبا ترقص أوراق الزهور اليباسة
 وتهادي النور في تلك الفجاء الدامسة
 أقبل الصبح جميلا يملأ الأفق بهاه فتمطى الزهر والطير وأمواج المياه
 قد أفاق العالم الحي وغنى للحياة فأفقي ياخرافي، وهلمي يا شياه
 واتبعيني يا شياهي بين أسراب الطيور وأملأي الوادي ثغاء ومراحا وحبور
 واسمعي همس السواقي، وانشقي عطر الزهور
 وانظري الوادي يغشيه الضباب المستنير
 واقظني من كلاً الأرض ومرعاها الجديد
 واسمعي شبابتي تشدو بمعسول النشيد

نغم يصعد من قلبي كأنفاس السورود
ثم يسمو طائرا كالبلبل الشادي السعيد
لك في الغابات مرعاك ومسعاك الجميل
ولي الانشاد والعزف الى وقت الأصيل
فاذا طالت ظلال الكالأ الغض الضئيل
فهلمي نرجع المسعى الى الحي النبيل
وهي لوحة يتجلى فيها سحر الطبيعة وتأثيرها على الشاعر بلا تزييف،
وهي نابضة بالفرحة والتفاؤل والإقبال على الحياة المرححة السعيدة
ولكنها أمنية لطيفة، حيث تمتزج فيها أحاسيس الشاعر، فلا يدري
أيسمعها أم يراها، أم يحتسيها، ولكن الذي يدريه أنه يعيشها.
الواقع أن اقبال الشابي على الحياة مثل انصرافه عنها، وتفاؤله
كتشاؤمه، وأحزانه كأفراحه، ورومانسيته كواقعيته، كلها حالات
ومراحل تنضج بفن الشاعر، وتفصح عن عبقرية أصيلة، لا تحونه
ولا تتخلي عنه (1).

نرجو بهذه اللقطات الخاطفة أن نكون قد قدمنا قدر ما
استطعنا جانبا من جوانب حياة هذا العبقرى العربي الذي قصرت
أيامه في هذ الدنيا، واستطالت ظلالها لكنه لم يغادرها الا بعد
أن سجل أروع الآيات في سجل الخلود، وترك في أمته ذكرى
معطرة بالكفاح، ستظل تملأ الأفق العربي بأنسام العبقرية،
وأصداء الحرية، والأمل في حياة أفضل، ومستقبل أكثر أمنا
وحرية ورخاء وسلاما.

(1) هذا ايضا ما ذهبنا اليه، هناك حالات تعترى الشاعر وليست اطوارا فاصلة.

الفصل الثاني

علي الدوعاجي ... قصاصاً ورحالة

تمهيد

علي الدوعاجي قصاص ورسام وشاعر تونسي، له لون ينفرد به عن بقية القصاصين التونسيين، بل ان لقصصه مذاقاً خاصاً، يتميز به عن كتاب القصة المعاصرين في أنحاء العالم العربي.

فقصصه - في الغالب - لقطات سريعة، ولمحات طريفة، تدل على روح فكاهية أصيلة في الدوعاجي، كما أن قصصه تحمل في بعض الأحيان طابعاً خشناً، يعكس الجموح وراء اللذة، وهو يصور حياة تونس المعاصرة وأخلاق أهلها، وقد هياً له اتصاله المستمر والعميق بطبقات الشعب ثروة غنية من الصور والأفكار الأصلية.

وبهذا يعتبره النقاد أبا للقصة التونسية المعاصرة عن جدارة و بدون منازع.

توفي علي الدوعاجي عام 1949 عن أربعين عاماً ، وكان قد نشأ في أسرة ثرية متدينة، تملك الأموال والعقارات ، ولكنه فقد والده في سن مبكرة، فعنيت أمه بتربيته، ووفرت له

أسباب الحياة الرغدة، الا أن تعليمه لم يتجاوز المرحلة الابتدائية، حيث قرأ القرآن، وتعلم مبادئ اللغتين العربية والفرنسية.

وأراد علي أن يشتغل بالتجارة، فأبت عليه أمه ذلك، ورفضت أن تمنحه التمويل اللازم لمشروعاته التجارية، وأراد أن يمارس الزراعة، لكن أمه كانت حريصة على أن يواصل تعليمه، ولما اشتد الخلاف بين علي وأمه ترك بيت الأسرة، واشتغل عاملاً في متجر أقمشة، ثم ترك العمل في المتجر، وهام على وجهه، وأراد أن يحقق لنفسه حياة مستقلة، واختلط بطبقات الشعب الكادحة، وعاش الفقراء، وأحس بقسوة الحياة وعداؤها، وعاش ضائعا مقهورا بعد وفاة أمه.

واجتذبه الفن والأدب، فبدأ يكتب المسرحيات والقصص والأشعار، عندئذ دفعته الحاجة الفنية الى مواصلة القراءة والاطلاع، والتردد على المجالس الفكرية والأدبية، والاتصال بمشاهير أدباء عصره وشعرائه وصحافيه، مثل أبي القاسم الشابي الشاعر، والطاهر الحداد الكاتب، ومحمود بيرم التونسي الشاعر الشعبي، وعبدالرزاق كركباكة الكاتب المسرحي، وزين العابدين السنوسي محرر مجلة "العالم الأدبي" التي شارك الدوعاجي في تحريرها، كما عمل في تحرير بعض الصحف الأخرى، وأصدر مجلة أدبية خاصة به، واندمج في مجموعة الأدباء البوهيميين، وقد أوحى اليه حياتهم بلوحات فنية رائعة.

كذلك تلمذ الدوعاجي على القصة الفرنسية والأمريكية

التي وسعت آفاقه الفنية، وغذت موهبته بالكثير من موضوعاتها وحبكتها الفنية، مما جعله يصطنع الطريقة القصصية التي يسمونها ”عين الكميرا“، لكنها لم تفقده شخصيته العربية التونسية، بل استطاع هو أن يطوع هذا الفن لظروف البيئة العربية، بالإضافة الى أنه كان يؤمن بروح البحث العلمي في الميدان الجمالي، كما كان يؤمن بالأصالة في القصة، ولهذا فهو لا يستعير لنفسه صورة ولا مضمونا من البيئات الأجنبية عن يثته، ولقد كشفت له الحياة البوهيمية الخاملة عن طبيعة المجتمع التونسي، فصوره في قصصه ومسرحياته في صور معقدة ، وأحيانا مؤلمة.

والدواعي يتخذ القصة وسيلة لدعم كفاح المكافحين، وحفزهم على العمل والصمود في وجه استغلال المستغلين، والتسرية عن قسوة الحياة وعنت المستعمر.

وللدواعي رأي في القصة، يحمله هذا التعريف الذي وضعه لها حيث يقول : ”إن القصة في حقيقتها صورة صادقة لمنظر شاذ، وعلى شذوذه هذا لا يستغربه القارئ ولا يستنكره، ومهمة كاتب القصة عرض الواقع البحث بكلمات واضحة نيرة، وعليه أن يمسك زمام قلمه عن التعاليق الزائدة، وعن وصف شعوره الشخصي، وعن الوعظ الثقيل“.

وهو يطبق هذه الآراء في قصصه، اذ نجد فيها الكثير من الشخصيات الشاذة، والصور النادرة الطريفة، ويعرضها بلا

تدخل ولا تعقيب، وبطريقة قد تبدو سلبية.
وهو وإن كان يستنكر تدخل الكاتب وتعليقاته والحديث عن
شعوره الشخصي في داخل القصة، إلا أن قصصه مفعمة بالنقا
الاجتماعي غير المباشر، وتلك خصيصة الفنان الأصيل.

والدوعاجي يمثل بسلوكه وبفنه المجتمع التونسي في
أواخر الثلاثينات وبداية الأربعينات من هذا القرن، وهو حامل
لواء الأدب القصصي التونسي المعاصر، ومزله في فن القصة
تضارع منزلة أبي القاسم الشابي رائد الشعر التونسي المعاصر.

والدوعاجي متعدد الجوانب والمواهب الفنية، فهو رسام
وشاعر وصحفي وممثل ومخرج، وكاتب قصة ومسرحية، وهو
مؤمن بفنه، مخلص لأدبه ولأفكاره الإصلاحية، وآرائه
التحررية، ومعتقداته التقدمية.

وفي حياته القصيرة نسبيا قدم للأدب التونسي المعاصر أكثر
من مائة وستين تمثيلية، وترك أكثر من ستين مسرحية، عدا
المسرحيات التي مثلتها له الفرق المسرحية المختلفة، وهي
تزيد على خمس عشرة مسرحية، اشترك هو بنفسه في تمثيل
بعضها، كما اشترك في إخراج البعض الآخر، وكتب أكثر من
خمسمائة أغنية شعبية تونسية، وترك عديدا من لوحاته
الابتدائية الرائعة.

على الدوعاجي ... القصاص

ها نحن نلتقي بعلي الدوعاجي القصاص التونسي من خلال مجموعة قصص صغيرة ، لا تتجاوز صفحاتها المائة والستين، أصدرها نادي القصة التونسي بعنوان ”سهرت منه الليالي“، نقرأ فيها ست عشرة قصة قصيرة جمعها النادي من بطون الصحف التي كان الدوعاجي ينشر فيها قصصه، صدرت بكلمة النادي، كتبها محمد العروسي المطوي باسم النادي، وقدمها عز الدين المدني بمقدمة تحليلية.

وعنوان المجموعة مأخوذ من عنوان إحدى قصص المجموعة، وعدا القصة الأولى شبه المترجمة، والقصة الأخيرة شبه الخيالية - فان بقية قصص المجموعة منتزعة من البيئة التونسية المحلية، ولكنها مرسومة على خلفية انسانية عميقة وعريضة، ومفعمة بالاحساس الصادق بمشاكل الانسان المعاصر الممزق المطحون تحت أثقال الحياة، والذي يكافح باصرار ليخرج من واقع حياته المأسوية الى حياة أفضل، ولا يخفف من وقع المأساة الانسانية ومواقفها المحتدمة الاسخرية الكاتب الذي ينتزع الفكاهة من بين ثنايا الأزمات، وينقلها في عبارات سريعة ورشيقة تهون من سخونة المواقف المأسوية.

على هذا النمط تجرى قصة « جارتني » التي تصور انسانا ضائعا، يثقل كاهله أن يجد إيجار مسكنه المتواضع ، ويلاحقه صاحب البيت صباح مساء ، وتلوح له بارقة أمل للخروج من فاقته في امرأة تنزل بالمسكن المجاور، وتظاهر بالشراء ، فيبدأ هو بالقاء الطعام وهو يعتقد أن الحياة ابتسمت له، فيستدين ويستدين ليقدّم لها الهدايا، ثم يصحو أخيرا على الواقع وإذا هي .. لا شيء ، ثم تتركه وترحل فجأة ، وتخلّفه للفقر والديون وصاحب البيت وجهها لوجه.

ومن روائع قصص هذه المجموعة قصة « الركن النير » ، وهي تصوير لاوساط الأدب والفن والصحافة في تونس في فترة الأربعينات ، وفيها نرى رب أسرة فقير ، تطلب ابنته الصغيرة في ليلة العيد خروفا قلّعب معه كما يفعل أبناء الجيران، وهو لا يملك ما يليق به رغبة ابنته المسكينة سوى دموعه، فيخرج الى المقهى ضيق الصدر، ويجيء مجلسه بالقرب من صحفي يحس بضيقه وزفرات صدره ويرى الدموع في عينيه، وكان بين هذا الصحفي والراقصة المعروفة ود مفقود جعله يخصص في مجلته الأسبوعية عمودا ثابتا يشهر فيه بهذا الراقصة، ويصفها بالبخل وبرودة القلب.

ويجازف الصحفي، ويجرب تجربة قاسية بآمال هذا الرجل يسخر من الراقصة فيرسله إليها ببطاقة توصية ، عليها تساعد في تحقيق أمنية ابنته أو ينكشف بخلها أمام شاهد جديد ، وتسهم الراقصة في شراء هذا الخروف الذي سيدخل السرور على قلب

الصبيبة المسكينة ليلة العيد، ولندع بطل القصة يحكي وقائع قصته :

« كانت الساعة الثالثة عندما ضغط اصبعي الزر المنبه، وفتح الباب حارس مغربي.. غاب قليلا، ورجع تصحبه صاحبة البيت.: سألتني عما أريد، فأجبتهـا بالكلمة الواحدة التي تملأ قلبي وفمي : « أريد خروفا ».. ظهرت عليها علائم الدهشة، وكأنها استغربت أن يطلب خروفا من قينة ، وبين التخت والمسلخ ما بينهما من بعد ، ولكنها طلبت مني أن أتبعها، فتبعتهـا الى صالون فخـم.: ثمين الرياش .. جلست على مقعد، واتكأت هي على طاولة .. وقصصت عليها خبري وخبر الصبيبة.. وكانت تنظر الى الأرض، فما رفعت رأسها حتى تبينت من خلال دموعها أنها تبكي بكاء هادئا مثلي ، وقالت ؟ :
— هيا نزل الى الحديقة.

نزلنا الى حوش خلف الكرمة ، به أشجار، وفيه خراف قائمة، وأخرى رابضة، في جملتها ما ينوف على العشرة .. ودخلت بينها، تجس ظهر هذا، وتربت على رأس هذا، وتدفع آخر برجلها.

— ها هو ذا الذي يصلح لأطفالك الصغار ، سيفرحون كثيرا بقرونه الطويلة الملتوية، وسيباهون به صبيان الحارة .:

تقول هذا وهي تمسح بمنديلها دمعا تساقط على خدها.
— أليس هذا رأيك يا أبت ؟

- المرأى ما قرين يا سيدتي .

. ألم تقل أن ابنتك الصغرى.. كيف سميتها لي ؟ راضية..
لها خمس سوات، نعم هو ما قلته لي. لتأخذ أيضا هذا
العليلش لراضية. سوف يسرها، ألا تجد أنه وديع كبنتك ..
هل هي كحلاء ؟

نعم.. وجميلة كسيدتي، ولو كانت لا يمكن أن تضاهيك جمالا.
- هي أحسن مني الآن.

ثم كان خاطرة فاجأتها. فسألني :

- أسمح لي بمرافقتك الى بيتك ؟ إنني أريد أن أرى راضية
تقبل العليلش.

- البيت بيتك، والبنية ابنتك ان شرفت.

- لقد أرسلت في طلب عربة لتقلنا الى راضية .. هاتي حبالا
يا سيدة.. يا سيدة.

لا أنسى فرح مفيدة وهي ترى راضية تعانق الحمل بكلتا يديها
الصغيرتين. ولا أنسى فرح راضية بالحمل وهي تحتضنه تارة
وتقبله أخرى. ولا أنسى فرح الصبية لإخوتها وهم يزينون
قرني الكبش بكل الرقائق من الألوان.

... الشكر لله الذي أبقي في قلب هذه القينة ناحية بيضاء
ناصعة. ينيرها نور الحنان، وهو أبهى الألوان. وأكثرها تألؤا».

ومن هذه الروائع كذلك قصة « أمن تذكر جيران بذى سلم » ، وهي تصوير للعادات الدينية ، والاحتفالات بالمولد النبوي ، وحالة التعليم ، وكيف كانت تبذل له الحوافز من الاموال الموقوفة ، ثم كيف كان جشع الأفراد يضيع الهدف من هذه الحوافز لولا الحنان الانساني الذي أودعه الله في بعض القلوب .

ومضمون القصة أن صبيًا من صبية الكتاب الأذكياء كان الخوف من عقاب المؤدب يعقد لسانه ، فيتلعثم عندما يجيء دوره في القراءة مهما كان حافظًا ، وجاء يوم المولد النبوي ، وجاء معه موزع أموال الأوقاف ، ومنح كل صبي من صبية الكتاب نصف ريال ليستعين به على تجهيز طعام الموسم الذي يتبارى صبيان الكتاب في تدييره صبيحة المولد ، لكن المؤدب الجشع اقتطع من نصيب إبراهيم ثلث ريال عقوبة له بحجة أنه لا يحفظ القدر الواجب عليه من الدروس ، وعاد الصبي كسيرًا ، لأنه لن يستطيع أن يحتفل بالمولد كبقية زملائه ، لكن ابن المؤدب الذي كان رفيقًا لإبراهيم أفضى بهذه الواقعة الى أمه زوجة المؤدب الورعة التقية ، وحالما انتهت من صلاة العصر خلف زوجها تسلمت الى كيس نقوده فسرقت منه لأول مرة في حياتها خمسة ريالات ، وأرسلت الى إبراهيم فطيت خاطره ، وأعطته الريالات الخمسة ، ولما أصبح الصباح كان الطعام الذي جاء به إبراهيم أفخم الأطعمة التي جاء بها بقية الصبية ، ومن تلك اللحظة تعلق قلب إبراهيم بتلك السيدة المحسنة ذات القلب الكبير ، لكنها ماتت بعد عامين من تلك الواقعة .

لقد مضى على وفاتها ثلاثون عاما، ومع ذلك فمن المؤلف أن يرى الناس ابراهيم على قبر هذه السيدة يوم المولد من كل عام يجلس الى القبر وينشد أمامه « أمن تذكر جيران بندي سلم »، وهو مطلع قصيدة البردة « المشهورة بنفس النغمة التي اعتاد صبيان الكتاب أن يرددوها بها، وبين الحين والحين تتساقط الدموع من عينيه، وفاء لهذه السيدة.

وقصة « مجرم رغم أنه » مأساة انسان مظلوم أوقفته الأقدار على طريق الجريمة، فاقتربها على الرغم منه دفعا عن فتاة لم ترع له واجب الوفاء، وهو لا يجد من يستمع الى مأساته، وكأن العالم يصم آذانه حتى عن مجرد الاستماع لهاته المأساة.

وقصة « سهرت منه الليالي » التي سميت بها المجموعة قصة انسانية عميقة، تكشف عن جانب الحنان الإنساني لدى المرأة المحبة لزوجها، فرغم ما تلقاه من سوء عشرته، وقبيح معاملته وشراسته، ورغم الشكوى المريرة من أفعاله، ومن اعوجاج سلوكه وقسوته — لا تستطيع أن تستمع الى نصيح خالتها بفراقه، ويغلبها الحنان عليه، فلا تطيق أن يرتفع صوت بالقرب من غرفته ينغص عليه نومه.

أما قصة « نزهة رائقة » فهي تصوير لمعاونة الحياة في رحلة كان المفروض أن تكون ترفيفية، فاذا فيها من المتاعب والمنغصات والمفارقات، ما جعلها كارثة يستعاذ بالله من وقائعها، لولا أسلوب الكاتب

في معالجتها، وسخريته من كل متاعبها، وتهكمه بكل صعابها، ولولا شخصياتها الكاريكاتيرية المحببة التي تقنعك بانها من صميم الحياة.

وهذه القصة رمزية، تشير الى تفوق الإنسان وانتصاراته في النهاية على مآسي الحياة، مادام قادرا على التفاؤل، مصرا على أن يهزم كل الصعاب وكل المعوقات بالأمل والكفاح.

وشخصيات الدوعاجي كلها شخصيات إيجابية متفائلة، تنزع الخير من بين عناصر الشر، تعيش حياتها نابضة بالحب، والدوعاجي يجيد تصويرها بطريق الاستبطان، لأنها ليست غريبة عليه، وهو فنان ماهر، يستطيع بالخطوط القليلة أن يبرز ملامحها الأصلية، ويجعلها تنبض بالحرارة والدفء والإيجابية.

وهو لا يهتم بالخطوط التقليدية، فلا يعمد الى تأزيم المواقف، ولا يعبأ بتصعيدها الى الذروة، ثم تلمس الحلول، ولكن قصصه تكاد تكون مسطحة ومع ذلك لا تعدم فيها جانب التشويق التلقائي من خلال أحداثها وأشخاصها.

والشخصيات التي تتحرك في قصص الدوعاجي كلها من الطبقة الكادحة المتفوقة التي تحاول كسر القوقعة، والصعود الى موقع افضل والمؤلف لا يجد عناء في الاهتمام اليها، لانها تقف دائما على طريق قصصه الواقعية، وهو يحبها، ويحنو على أخطائها، ويغفر لها انحرافاتهما.

وصور الدوعاجي صور ساخرة، لأنه مولع بالسخرية من الأحداث ومن الأشخاص، وحتى من نفسه، وكأن هذه السخرية في طبعه تعويض له عما لقي من مرارة الحياة، ووسيلة للارتفاع فوق أزماتها.

بهذه الموضوعية والواقعية، وبهذا التفاؤل والإيجابية، وبعمق التصوير وبساطته، وبالتعبير الرقيق والمركز. يعتبر علي الدوعاجي أباً شرعياً للقصة التونسية المعاصرة بلا جدال.

على الدوعاجي ...

الرحالة

للرحلات بين فنون الأدب العربي مكانة مرموقة، ولها نفس المكانة في الآداب العالمية.

ولقد كان كتاب المغرب والأندلس أكثر الكتاب حفاوة بأدب الرحلات في القديم.

فمنذ كتب ابن بطوطة وابن جبير وابن خلدون رحلاتهم انعكست صورة الرحلات على الأدب العربي، وظلت تروّع وتبهر، حتى في عصور تخلف الفنون الأخرى في هذا الأدب. واليوم نجد الأدب التونسي المعاصر يحتفي بهذا اللون أكثر من احتفائه ببقية الفنون الأخرى.

فقائمة الكتب التونسية تحفل بالكثير من كتب الرحلات التي اهتم بها كبار الكتاب، وأعاروها الكثير من الجدية والكثير من المجهود.

ومن أشهر كتاب الرحلات التونسية المعاصرين محمد السنوسي في كتابيه « الرحلة الحجازية »، و « الاستطلاعات الباريسية »، ومحمد بلخوجة في كتبه « سلوك الابريز في مسالك باريس »، و « الرحلة الفاليرية »، و « الرحلة الناصرية »، والمقداد الورتاني في كتاب « البرنس في باريس »،

ولكل من هؤلاء نزعتهم ومزاجه الخاص في موضوعه وعرض مشاهد رحلاته، والزوايا التي يلتقطها، لكن علي الدوعاجي ينفرد بين كتاب الرحلات التونسية بلون جديد في كتابه الذي سماه « جولة بين حانات البحر المتوسط »، اذ يقول في مقدمته : « سوف لا أحدثكم هنا بما اعتمدتموه في كتب الرحلات من ذكر غرائب المتاحف، ونتائج المعامل، وأعماق البحار، وعجائب الطبيعة، وشواهد الجبال، وأعماق الكهوف. كذلك سوف لا أصف الشوارع والميادين والحدائق والعمارات.. لأن رحلتي إنما كانت للتسلية، ولا أطمع من وراء تدوينها الا تسلية القراء، أما اختياري للعنوان « جولة بين حانات البحر المتوسط » فهو تقرير لحقيقة ما قمنا به في جولتنا على موانئ البحر الزاهر، فإننا لم نر من هذه الموانئ الاحانات ومقاهيها، ولا أحسب الحديث عنها يسثم أحدا أبدا »

لقد بدأ الكاتب هذه الجولة عام 1933، طاف فيها بتوريسكا، ونابلي، وبيره، وأثينا، والدرنيل، واسطنبول، وأزمير، فماذا وجد الكاتب في هذه الموانئ غير ما استبعده من مشاهد الرحلات التقليدية، وكيف صور ما رآه بأسلوبه الساخر الرشيق ؟

لقد التقط في هذه الرحلة صورا انسانية عميقة، وخلع على المشاهد الطبيعية من ذات نفسه ومن حيوية فنه ما جعلها تنبض بمكنوناتها.

من بين الشخصيات الرائعة التي قدمها شخصية السيدة المحبة للاستطلاع الشغوفة بمعرفة كل شيء عن كل شيء، والتي سماها

« مدام المعرفة الكاملة »، وكأنها سترشح نفسها يوما لإدارة هذا الكون، وهي تظهر فجأة في أي مكان، وتنقض على أي تجمع، وتبدأ على الرحلة كل آفاقها، وكأنها الملح لا يغيب عن أي طعام.

والشخصية الثانية شخصية المدرس المولع بتوزيع المعلومات وتصحيح البقائع، والتعقيب على كل شيء، والاعتراض على كل شيء، ولهذا سماه « حامض المعارضه ».

وشخصية مصطفى كمال، الذي جعل من تركيا الشرقية الوقور الضعيفة دولة أوربية قوية، مضحكة.

وشخصية الفتاة مود، التي قامت له بمهمة الدليل في بعض زياراته، فشغلته بجمالها وفتنتها عن التأمل في الأكروبول، وهو يقول عنها: « إنها تنسيك زيارة اللجنة فضلا عن الأكروبول ».

والى جانب التقاطه للشخصيات فهو كذلك يلتقط المفارقات، ويبرز ما فيها من طابع الفكاهة، ويصنع منها لوحات أدبية رائعة عامرة بالحياة، تضارع أنضر لوحات الخيال.

والى جانب الشخصيات الإنسانية التي تبدو وكأنه يتكرها أو يخلع عليها سمات خاصة، نجده يعطي للمدن شخصيات حية متحركة تشبه الشخصيات البشرية.

ها هو يلتقط شخصية مدينة نيس، فيضعها في هذا الإطار الجميل: « مدينة نيس غانية جميلة، ترتدي أزهى فساتين السهرة الثمينة، وفي جيدها عقد من أجمل العمارات والحدائق النظيفة.

نيس مدينة الزهور والغرور ، مدينة الشباب الجذاب المرح ،
والكهولة المثزية .

نيس مدينة البذخ والرفاهية ، مدينة الحب الإبلسي ، مدينة
الشهوة الإنسانية . مدينة القمار والانتحار .

المرور من رصيف الى رصيف آخر عملية يحسب لها ألف حساب ،
والنظر من وجه غادة الى أخرى عملية يحسب لها ألف دقة
قلب .. » .

أما مدينة نابلي فلها شخصية أخرى تتجسد في هذه اللوحة :
« نابلي مدينة جميلة تقع تحت رحمة الله ثم رحمة بركان فيزوف
وهو بركان دائم الغضب ، دائم التدخين ، لا أظنه يدخن السجائر
الإيطالية ، فهي غالبية الثمن جدا .. » .

وأما شخصية اسطنبول فهي موضوعة في إطار السخرية
الليذنة التي وضعها فيها أتاتورك ، يقول المؤلف :

« تضحك وأنت تجول في شوارع اسطنبول ، إذ يمتزك فلاح
تركي قدم للعاصمة يبيع محصولاته ، يرتدي سراويل شرقية ،
وصدرية عليها شملة صوف حمراء ، ويتنعل بلغة صفراء ،
وعلى رأسه كاسكيت سبور من قماش انجليزي .

أو ترى جنازة أجد عباد الله ، وعلى النعش تابوت يكسوه
الكشمير المزخرف وعلى التابوت من جهة رأس الميت حيث كان
يوضع الطربوش أو عمامة الميت تجدد قبعة من القمش الإيطالي .

وتضحك العجوز السافرة، وهي جالسة أمام بيتها بفستانها
الأسود، وهي تدخن النارجيلة في حركات بطيئة، حاملة
بماضيها، حينما كانت في الحريم، بينها وبين الشارع ثلاثة
دهاليز، في كل واحد أغا، لا تفارق عيناه الأبواب والنوافذ.

وبضحك المؤذن وهو يطل من أعلى المئذنة، داعيا الى صلاة
الجمعة، وعلى رأسه قبعة كنصف بطيخة.

انها عادات شرقية استغربت، فاستغربتها، فأضحكني .

وللدردنيل صورة شعرية رائعة، حيث يفصل بين قارة أوربا
وقارة آسيا عشرون مترا من الماء، فكيف تصورها الكاتب وهو
يخوض هذا الشريط المائي؟ « جلست على مقعد في مقدم السفينة
أنظر الى القارتين نظر المتزوج بامراتين، فكنت أرى في زوجتي
اليمنى آسيا الشرق بأسراره ورموزه، بما في الشرق من روح
كبيرة سامية، بما في الشرق من نحل وديانات ومذاهب، الشرق
بقصوره وجواهره ولآله..

وكانت زوجتي آسيا فتاة ممشوقة القامة، سمراء اللون في.
قليل من الصفرة، سوداء الشعر، بعينين نجلاوين ساحرتين...
ترتدي الثياب الدمشقية المطرزة بالقصب والجوهر، عليها رسوم
صينية تتحلّى بأنفس الثواقيت والزبرجد ولاليء من أعماق الخليج
العربي والمحيط الهندي، وشامخات جبال منشوريا، معطرة بعطور
السند.. أمامها القيان يعزفن لها ألحانا شجية، وهي غارقة في
مطالعة الخيام شاعر الشرق، وأمامها منصدة من خشب الأرز

المطعم بالابنوس الأنامي والأصداف والمرجان، وورجيلة من البلور الاسطنبولي، تدخن من غليونها الصيني تبغ شيراز ومقدونيا، وهي هادئة الحركات، لا تقل نظرها عن كتاب الرباعيات الا لتلقي به على الصور المونة بالألوان الصارخة في سجاد بخاري، أو على الآيات الكريمة المكتوبة بخط كوفي على القيشاني الذي يكسو الجدار.

وكنت أرى في زوجتي اليسرى أوربا الغرب بمصانعه وآلاته وعدده ومداخنه التي خلقتها المادة والنظام والمطبعة والعقل الهادئ، تحت سماء ممطرة، على أرض يكسوها الجليد تسعة أشهر في السنة.

وقطار الشرق الذي يقوم يوميا من باريس الى اسطنبول، يسير بسرعة تسعين ميلا في الساعة، يشق جبالا، ويخترق بحورا وأنهارا على جسور وقناطر من فولاذ وإسمنت، وحمولته آلات المدنية والموت الزؤام، من آلات صناعة وازهاق أرواح، من أسلحة بيضاء وحمرء وآلات تلفزة، وصناديق أدوية، وأحدث كتب العلم والحب..

زوجتي أوربا شقراء جميلة، بجسم رياضي، بيضاء اللون، ذات عينين زرقاوين صافيتين، ترتدى فساتين السهرة الرشيقة، منسوجة من حرير خشبي، وجوارب من حرير بلوري، وحذاء من جلد الثعابين الاصطناعي.. جالسة على مقعد من جلد، قوائم من الكروم، في أفخم نزل سويسري، جدران وسقفه من الإسمنت المسلح، وأبوابه ونوافذه من بلور لا ينكسر.. وهي

تسلى بالتفرج على المتزلقين على الثلج. تدير باصبعها زر المذياع
لتسمع الرومبا والفالس، يعزفه تحت بوهيمي، به مائة وستون كمانا.

هذا ما كنت أراه في زوجتي آسيا الكحلاء السمرء،
وزوجتي أوروبا الشقراء البيضاء.. » ..

فهذه لقطات عابرة من جولة الدوعاجي في حانات البحر
المتوسط، التي أراد بها نقل المتعة التي أحسها الى قرائه، واختار
منها تلك المشاهد المسلية والطريفة، لم يكلف نفسه في هذه
الجولة عناء البحث عما وراء المتعة، ولم يكلف قارئه كثيرا
من الجهد في حل طلاسم الرحلة ومعمياتها، بل أورد
الصور الطريفة والرائعة مما رأى، لكن وراء ذلك عمق
نظرة الكاتب، وطرافة التعبير، وجاذبية التشويق، مما لا
يمكن « أن يستثم أحدا أبدا » كما يقول المؤلف.

وبهذا اختط الدوعاجي أسلوبا جديدا في فن الرحلات
في الأدب العربي المعاصر، كان يمكن أن يكون رائدا فيه
لو واصل السير، ومن يدري، فربما يكشف الباحثون التونسيون
عن نصوص ما زالت مخطوطة أو مبعثرة في بطون الصحف من
رحلات الدوعاجي.

وأيا ما كان فإن قارئ هذه الجولة لا يخطيء فيها شخصية
الدوعاجي بما تحمله من فن أصيل، ولوحات رائعة، تكتمل
بها جوانب هذا القصاص الرسام الشاعر، الذي برز في معظم هذه
الفنون، وترك بصماته بقوة على صفحات الأدب التونسي المعاصر.

الفصل الثالث كتب تونسية أخرى

أبو القاسم كرو

في كتابه : « حصاد القلم »

بالأمس تعرفت الى الاديب الكريم، الأستاذ أبو القاسم كرو، في دراسته الممتعة، التي قدم بها أبا القاسم الشابي في حالة من أشعاره، الى العالم العربي الحفي المشغوف بالأدب الأصيل وأعلامه.. فأعجبت به، وحمدت له السعي، وشكرت له الجميل... واليوم أتعرف إليه مزيد تعرف في كتابه الجديد : « حصاد القلم ».

هذا الكتاب كلمات الى العرب في مختلف ديارهم، كتبت في ظروف متفاوتة، فتلقفتها الصحافة والإذاعات العربية، لا لأن فيها جديدا على العرب أو غريبا عنهم فحسب، ولكن لأنها مع ذلك تتميز بالصدق والصراحة وتعبّر في بساطة عن آمال العرب وآلامهم.

وبعض هذه الكلمات يرجع الى سنوات، وبعضها من بنات اليوم، ومنها ما كتب في بغداد ومنها ما كتب في تونس أو ليبيا.

ولكن مهما اختلفت بها المناسبات والميلاد، فإن طابعها لا يتغير لأن أباها واحد، ذو عقيدة ثابتة، وإيمان وثيق بالعروبة والاسلام، يخطو في هذه الكلمات الى هدف، ويخطر على بصيرة : لا تخونه ولا تخدعه.

وهو في سبيل ذلك يحاول أن يبدأ من جديد.. يصوغ الفكرة العربية أناشيد، يوشك أن يطلب الى العرب في كل مكان، أن يرتلوها صلوات يسبحون بها بكرة وأصيلا.

وله قلم يطاوعه في أي ميادينها خاض.. في السياسة أو الاجتماع أو الفن أو الادب، لأنه يهضم ذلك كله، ويخلع عنه طابع العمق المصنوع، وينضو عنه أغلفته الصماء، ويتخذ منه لونا جديدا، وشعارا مبسطا هادئا، يمشي به الى الجماهير العربية الكادحة المظلومة، التي بهظها الاستعمار، وأرهقها الاستغلال، وآذاها الفقر، فألفت حياة متواضعة قانعة راضية، واعتملت في صدرها أحقاد السنين المكبوتة، وقرت على أوضاع مهينة توشك أن تؤيس المصلحين، فتخوفت كل صيحة، وارتابت في كل نصيح، وقعدت عن كل نصرة.

لكن صاحبنا لم يئأس، فنزل الى الميدان، يبدأ مع شعوبنا من أول الطريق، يلقيها مبادئ الوطنية، والدين، والحرية، والمساواة، والعلم، والفن، لينهض كل أولئك بإنسانيتهم نهضة تحررهم من الجمود، واليأس، والحرمان، والفوضى، والغفلة، والاستعمار.

فهو - في حسابنا - فاتح جديد لسجاهل العقل العربي، والوعي العربي، والقومية العربية في آونتها الحاضرة.

ومما يحمد له أنه منذ تلقف الكرة لم ينس المحور الذي يدور حوله ولم يغفل عن المنبع الذي تتفجر منه أمجاد الشرق الجديد المرجو، فهو يصطحب معه في كل خطواته ذلك المبدأ الذي اعتنقه، وآمن به، وسيلة لامتلاك ناصية الزمن..

لم ينس من أين بدأ، وأين يريد أن ينتهي.. من العروبة المسلمة،
والى العروبة المؤمنة بجنسها، وبنفسها.. أولاً وأخيراً..

يرشدها — في صراحة لا تحتل الدوران — الى أن سبيلها الى هذا
المجد المنتظر هو القوة.. والقوة وحدها.. قوة العقيدة، وقوة الخلق،
وقوة العلم، وقوة الرأي وقوة السواعد.

فهي الكفيلة بأن تحقق حقنا، وتزيف كيد المبطيين.
وهو واقعي، يؤمن بالمال، لا على أنه هدف الإنسانية، ولكنه
وسيلتها الى القوة والتحرر والمجد.

... متفائل، يؤمن بمستقبل الشباب العربي وقدرته، على
تحقيق المستحيل اذا وهب الفرصة وفتح له المجال، ونجيت من
طريقه العقبات التي تعوقه عن الهدف، وأوتي من الثقافة والوعي
والثقة بالنفس ما يؤتاه أمثاله من شباب العالم.

والمرأة عنده صاحبة دور إيجابي فعال في حياة العرب الراهنة،
يجب أن تعد لممارسته إعداداً قوياً قائماً على سياسة ثابتة، يتكافأ ومركزها
المخاطر في مجتمع الامة العربية، ما دام الدين لا يعارض في أداء
مهمتها السامية، التي وكلت إليها، على مبدأ المشاركة الكريمة مع الرجل
فيما تصلح له، وفيما يليق بها من سبل الحياة الجديدة المتطورة.

والوحدة العربية — في أكمل صورها — هدف من أهدافه، فهي
التي تحدوننا الى منزلة من السعادة والعزة والحرية الجديرة بالامة
العربية في ماضيها المشرف، وحاضرها العتيد، ومستقبلها المشرق.

وليس الادب وشيعة من وشائج القربى بين العرب في مختلف أمصارهم فحسب ولكنه لبنة قوية بها دعامة الحياة الانسانية، وله في صميم حياة الناس العامة والخاصة مكانة لا يحتلها غيره، ولا يغني عنه من مقومات الحياة شيء آخر.

ولكي يؤدي الادب هذا الدور في حياتنا أداء كاملاً، لا بد أن يتطور ويمتزج بحياتنا الاجتماعية امتزاجاً كاملاً يتفاعل معها، ويؤثر فيها.. ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون إنسانياً يهدف الى السمو بالحياة، والنهوض بانسانيتها.

وللأدب في كل قطر عربي مشكلات عامة، وأخرى إقليمية، يكابد ضغطها الادباء، ويحاولها كل على طريقته.

وقد استوعبت هذه المشكلات من التفات المؤلف الكبير الكثير وله فيها محاولات ومحاولات.

هذه بعض المبادئ المطروحة في صفحات هذا الكتاب، يلمسها القارئ بلا عناء، لأن صاحبها اتخذ إليها طريقاً سهلاً هيناً، وقربها في الأسلوب السائق الميسر، بلا تعمل ولا كلفة. كما سيحس القارئ في صوت المؤلف علوية همسات صديقه الشابي وهممات نفسه الصافية في آلامه وقلقه، وفي آماله وطموحه.

ويتضح في أنفاسه نبرات مهجرية، وترانيم مصرية، وجرس عربي خالص، تتجاوب كلها بالحن الانشودة العربية الكاملة.

وتنبئ عما يقرأ. وأين يقيم بحواسه، وأين يسبح بروحه ووجدانه، وكيف تمثلت آماله وتبلورت في كتابته، فكان صورة متعددة الجوانب للشباب العربي الاصيل.

وهذا الكتاب من قبل ومن بعد معرض للفكرة العربية. تبرز فيه شخصية الشباب العربي الطامح، المترن في طموحه، الواصل بنفسه، المؤمن بغده الزاهر، العامل في دأب على تحقيق مطامحه، غير هيب ولا مبال: أين وقعت قدمه من طريقه.. مع أقدام الناس أم على رؤوسهم، ما دام يسعى لغاية نبيلة، يعيش لها، ويفنى من أجلها، هي إعزاز العرب والتمكين للفكرة الإسلامية من رؤوسهم، تدفعهم وتحررهم وتعصمهم..

ذلك ما لمحتة في سطور الكتاب.. أما وراء السطور فمتروك للقارئ، إذ هو أعمق وأدق وأجدر بالنظر والتمعن. وأحق بأن يقف القارئ عنده متمهلاً.. فإنه لو فعل لظفر من هذا الكتاب بخلاصة لفلسفة الشباب الجاد الهادف الى بعيد.

ويقيني أن العربي المثقف سيجد صورة مقربة ميسرة لآماله الوطنية والاجتماعية والأدبية في كل ثنية من ثنايا هذا الكتاب.

ولست في حل من مزيد القول في الكتاب والمؤلف، ولكنني أرجو أن يكون فيه لشباب العروبة زاد، وأن يتخذوا منه ومن أمثاله عبرة اليوم، وسلاح الغد.

وبعد.. فهل تراني قلت ما كنت أحب أن أقول - أو ما كان ينبغي أن يقال - في الكتاب والمؤلف؟

إن ذلك يستدعيني أن أطيل في الوقوف والتمعن والتقصي .
ولكنني مشفق أن أحجب المؤلف عن القارئ طويلا ، فلأترك هذا
المكان ، ولأخل المؤلف يتحدث الى قرائه ، حديث الصديق للصديق ،
هامسا إليهم همساته المحببة ، أو مجلجل الصوت جلجلته المحببة
كذلك ، فإن للقارئ في كلا اللونين زادا ومتعة .

وما أخرجنا الى من يوقظ فينا كل قوانا .. كلها بلا استثناء .
الطيبة منها والشريرة البناءة والمدمرة على السواء ، ثم ينفذ عنها
آثار السنين ، وأثقال القيود ، وآصار الاستعمار ، ثم يدفعها
في الطريق السوي تعمل .. وتعمل .. وتعمل .

وكتابتنا لم يدخر قوة في هذه السبيل الموفقة إلا بذلها غير
ضنين ولا مخادع .

وحسبنا وحسبه : صديق البذل ، ونبل القصد... (1)

(1) هذا المقال كتبه المؤلف مقدما به كتاب « حصاد القلم » المطبوع في القاهرة
عام 1954 ، وهو تقديم لم يطلبه مؤلف الحصاد وإنما تطوع به الصديق
رضوان ابراهيم بطلب من المشرف على طبع الكتاب . ولم يعبر التقديم عن
فحوى الحصاد بقدر ما عبر عن آراء المقدم الشخصية . « ك »

أبو القاسم كرو :

في كتابه عن عبد الرزاق تربية

سلسلة اعلام المغرب العربي

ان اصدار هذه السلسلة هو عتاب موجه الى الثراء ،
وتذكرة للعرب في المشرق والمغرب ، لأنهم نسوا — بل اهلوا —
حياة هؤلاء الاعلام الذين جاهدوا حتى اوجدوا للمغرب بياضة .
وكونوا له تراثا أصبح ملكا للثقافة الانسانية كلها . ومع ذلك
ظلوا مجهولين حتى في اوطانهم ، بل حتى من معاصريهم .
وعلى الرغم من ان عامة القراء والمثقفين في بلدان المغرب
يعرفون الكثير عن أقطاب الآداب العالمية ، ويعرفون قدرا ليس
بالقليل عن الأدباء المشارقة الا أنهم لا يعرفون القليل أو الكثير
عن اعلام المغرب .

وتريد هذه السلسلة أن تسهم في التعريف بهؤلاء الاعلام .
لأن في التعريف بهم ردا لاعتبار المواطنين المغربيين . واعلاما
بأن في المغرب العربي وبين رجاله من ناضلوا لكي يؤصلوا
للمغرب ثقافة ، ولكي يبنوا له أساسا صلبا من العلم والمعرفة
والأدب والفن .

وهذه السلسلة لا تقتصر على التعريف بالاعلام المعاصرين
وحدهم ، ولا تتناول الاعلام التونسيين فحسب ؛ لكنها تعرف

بالأعلام المعاصرين ، وتذكر بالرواد القدامى للمغرب في أوسع نطاقه الزماني والمكاني *

وفي مقدمة الأعلام الذين عنيت السلسلة بتقديمهم الشاعر القصاص المسرحي ، والصحفي والفنان عبد الرزاق كرباكة ، الذي ولد مع مولد هذا القرن ، وبارح هذه الحياة قبل أن ينتصف هذا القرن *

وحين يقدمه لنا المؤلف يبدأ فيلم بمعالم حياته ، وجوانب شخصيته ، فيحقق تسميته ومن أين جاءت ، كما يحدد مكان ميلاده وزمانه *

ان عبد الرزاق كرباكة ينتمي الى الأصل الاندلسي ، والى مدينة في شمالى مرسية تسمى باسم كرباكة ، وتنسب أسرته الى المعتمد بن عباد ، جاءت الى تونس مع موجة الهجرة التي أجبر فيها عرب الاندلس على أن ينزحوا عن ديارهم فرارا بدينهم وحياتهم *

في هذه الأسرة التى كانت تحتترف بعض الصناعات الصغيرة نشأ هذا الشاعر ، وفي السابعة من عمره التحق بالمدرسة القرآنية ، وفي بداية هذه المرحلة من حياته ذاق مرارة اليتيم ، ففقد أباه ، لكن ذلك لم يثنه عن مواصلة تعليمه فى المدرسة العرفانية ، وكان من أنجب تلاميذ المربي الشهير الشيخ محمد مناشو ، ثم انتقل الى الزيتونة ، لكنه لم يكمل الشوط الى

نهائيته ، اذ تحول الى الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية والادارية والنقابية والاقتصادية ، وأخذ يغامر في الحياة بالطول والعرض حتى غادرها في عام ١٩٤٥ •

وكان لكرباكه مشاركة ملحوظة في عدد غير قليل من الأنشطة الادبية والفنية ، فهو شاعر متفوق ، وزجال بارع ، وكاتب ، وصحفي ، وقصاص ومسرحي ممتاز •

وكان بشعره وأزجاله يعكس الحياة المعاصرة التي يحياها دون تصنع أو اختلاق أو تزوير ، ولهذا كان يعكس التجارب حية نابضة في نسج قوى ، وروعة أخادة •

ولقد انتقل هذا النسج القوى والديباجة المتماسكة الى نثره ، فعنى بالجزالة والأناقة والفنون البلاغية ، مع الارتباط بالواقع ، وان مال الى الرومانسية الحاملة •

وهو في قصصه ومسرحياته فنان محكم الصناعة ، جيد السبك ، واسع الخيال ، وفي هذا السبيل أخذ من التراث المغربي « عيشة القادرة » و « ولادة وابن زيدون » ، فنسجها نسجا جديدا يوشك من يقرأهما أن يحس فيهما بنبض العصر الحاضر •

وكان الى جانب ذلك يكتب قصصا قصيرة ينشرها في الصحف أو يذيعها تحت عنوان « عبرة في قصة » ، ويعالج فيها مشكلات الحياة اليومية ، ومسائل الاجتماع والسياسة ، مثل قصصه « جريمة شهر زاد » ، و « أبو القسط » ،

و « بدعة وحماد » ، وهى معرض للآراء الأصيلة فى شؤون الحياة المعاصرة •

وفى ميدان الصحافة كان كرباكة يشارك فى تحرير عدد من الصحف ، فى مقدمتها جريدة « المضحك » الفكاهية ، التى اصطنع فيها أسلوبه الساخر فى نقد الناس والمجتمع ، وكشف العيوب الاجتماعية ، واثارة المشاعر تجاهها ، وفى عام ١٩٢٠ أصبح رئيسا لتحريرها ، كما أصبح محررها الذى يكتب أشعارها وأخبارها ، وينسق حوادثها ، ويقترح لها الرسوم والصور •

وعندما توقفت جريدة « المضحك » شارك فى تحرير عدد من الجرائد منها جريدة « لسان الشعب » التى كتب فيها مقالاته الأدبية والاجتماعية الجادة ، ثم عمل رئيسا لتحرير « جريدة الزمان » عام ١٩٣٢ ، وفيها تبنى قضايا الطبقة الكادحة وأصحاب الصناعات والمهن اليدوية ، ووقف قلمه وجهوده على حماية هذه الصناعات من المضاربة ومزاحمة السلع الأجنبية لها •

ومن خلال عمله الصحفى اشنق للصحافة شعارا يؤكد دورها الكبير فى قيادة الشعب •

وقد تمثل هذا الشعار فى البيتين التاليين :

اقرا الجريدة راضيا او سبها
لا شئ غير الحق يرضى ربها
شأن الصحافة أن تسير شعبها
نحو الهدى ، لا أن تساير شعبها

أما جهوده في النهوض بفن الغناء لفظا ومعنى وعاطفة فهي جهود موفقة ، ارتفعت بالأغنية التونسية من وهدة الخلاعة والتبذل ، الى الدعوة للعمل والكفاح ، والى الرقى بعواطف الجماهير .

وفي المسرح شارك كركبائه ممثلا وكاتبا منذ عام ١٩١٩ في جمعيات التمثيل ، وفي الفرق الفنية التي شارك في انشائها أو ادارتها مثل « فرقة الهلال » وجمعية « الآداب » و « الجوق الكاملى » ، وأخذ يؤلف للمسرح التونسى روايات من أنواع الملهاة أو المأساة ، من بينها مأساة « أميرة المهدية » ، وغنائية « عيشة القادرة » ، ومأساة « ولادة وابن زيدون » ، وكان أكثرها باللغة الفصحى وبعضها بالتونسية الدارجة .

هذه الجوانب العديدة واللامعة التي تناولها مؤلف الكتاب في سرعة وعمق جديرة بأن تجعل من صاحبها علما من أعلام النهضة الفكرية والفنية في العالم العربى كله ، لا فى تونس وحدها .

وهى جديرة من الشباب العربى بكل حفاوة وتقدير ، وجديرة بأن تجعلهم يتخذون من نضال صاحبها نموذجا للنضال الهادف لبناء الشخصية العربية فى جانب من جوانبها .

على أن مؤلف الكتاب لم يكتف بهذا الاطار العام ، بل تسلل الى خصائص هذه الشخصية ، والى دقائق حياتها ،

فعرض من عناصرها ، ومن نواذرها وأقوال المعاصرين
والمعاصرين للشخصية الشيء الكثير والمتع ، وخصص جانبا
كبيرا من هذا الكتاب الصغير لعرض نماذج من نثر كرباكة ومن
شعره وأغانيه العامة والفصيحة ، تحدد معالم شخصيته ، وتدل
على فلسفة صاحبها واتجاهاته وآرائه في الحياة والناس
والأحداث .

وكأن كرباكة كان يندب حياته وينعى نفسه بهذه الأغنية
الحزينة في وقت مبكر :

بعد موتى عناصر الجسم تتحل تباعا ، وتستحيل رغاما
ثم تجرى المياه فيها فتبتل فيمتصها النبات طعاما
فاذكّرني اذا تكللت بالورد ، وان شئت فاذكّرني دواما
غير انى بالورد أرنو على البعد ففيه هباء جسمي أقاما
وانشقيه فان فيه مزاجا عاطرا كان في فؤادي غراما

. سلام على كرباكة في الاعلام

وتحية لجهود كرو في المزيد من التعريف بأدب المغرب وأعلامه
المناضلين الخالدين .

محمد الفاضل ابن عاشور

في كتابه : « الحركة الادبية والفكرية في تونس »

صاحب هذا الكتاب هو سماحة العلامة المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور مفتي الجمهورية التونسية، وعميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الذي فقدته تونس والعالم العربي في ابريل من عام 1970 .

وكتابه هذا من أوائل الكتب التي عرفت العالم العربي بالحركة الأدبية والفكرية في تونس المعاصرة، إذ هو حصيلة المحاضرات التي ألقاها العالم الراحل في معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية. بالقاهرة، وقد تولى المعهد طبعه ونشره في العالم العربي على أوسع نطاق، وبهذا حظي بما لم يحظ به أي كتاب تونسي من انتشار خارج تونس، وعلى مستوى البلاد العربية كلها.

وهذا السفر الذي تتجاوز صفحاته أربعمئة صفحة يحتوي على قسمين القسم الأول للبحوث والدراسات، والقسم الثاني يحوي طائفة من النصوص الشعرية والنثرية لأعلام الشعراء والخطباء والكتاب والصحفيين والمفكرين التونسيين المعاصرين.

ويعمضي القسم الأول والأكبر في ثمانية فصول متتابعة.

ففي الفصل الأول يمهد المؤلف لموضوعه بالتعريف بالحياة السياسية والاجتماعية في تونس وكيف كانت تعيش قبل الاحتلال وماذا كسب شعبها من اصلاحات تمثلت في إنشاء المدرسة الصادقية وإصلاح جامعة الزيتونة، وافتتاح المكتبات وتشجيع الصحافة والطباعة في عهد الوزير خير الدين، وكيف عصفت الاحتلال بكل ذلك حينما دهم البلاد، واضطر رجال الفكر والأدب الى الانزواء لولا كفاح الأمجاد المؤمنين ببلادهم مثل الشيخ قبادو، وبيرم التونسي، وبوحاجب، والسنوسي، الذين حملوا أعلام الثقافة العربية في مواجهة الاستعمار.

وبمزيد من التفصيل يتحدث الفصل الثاني عن المدرسة «الخلدونية» وارتباطها بحركة التحرر التي شنها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده. والكفاح المرير بين المؤمنين بالثورة الفكرية وبين الاستعمار الذي أراد أن يحيل هذه المؤسسات الى معامل لتفريخ الكتبة وصغار الموظفين، لولا هممة البشير صفر الذي تزعم الحركة الثقافية وحشد لها خرجي الصادقية، ومنها نشأت الجمعيات الثقافية مثل الجمعية الخلدونية.

وكانت الصحافة من وسائل قيام حركة البعث الإصلاحي، وفيها ظهر الثعالبي والخضر حسين وغيرهما.

وقد ساعد على ذلك ظهور الحركة العلمية والتفاعل المستمر بين

مشرق الوطن العربي ومغربه، مما تكشف عن فنون جديدة من الشعر، والنثر الفني والسياسي والعلمي.

ويخصص المؤلف الفصول الثلاثة التالية للحديث عن قداماء الصادقية وأثرهم في الأدب والفكر والصحافة وحركات الشباب وبحلّل مظاهر التطور ونشأة الفنون الأدبية المختلفة والعوامل المؤثرة في ظهورها، والروائع التي أنتجتها وآثارها في نهضة الفكر التونسي الجديد.

وفي الفصل السادس يتحدث عن الإذاعة التي أنشأت استجابة لوعي الشعب وعن كفاحها في سبيل التحرر، وأثرها في الأدب والفن والفكر.

ويخصص الفصل السابع للإصلاحات التي تمت في جامعة الزيتونة وكيف كانت هذه الإصلاحات استجابة لمركز هذه الجامعة وقوة نفوذها في الأمة التونسية.

وبالفصل الثامن ينتهي المؤلف الى « الموقف الحاضر وآثاره » ، فيعالج الأوضاع التي كانت تعيشها تونس في تلك الفترة، والصراع الثقافي بين الاستعمار والقومية، بحيث شكل هذا النزاع بـتـيارا ثقافيا خاصا بعيدا عن الصراع السياسي، والمؤلف يرى أن انتصار تونس السياسي يؤثر تأثيرا عكسيا على الثقافة القومية، لأن الصراع السياسي من وجهة نظره يحصن الثقافة العربية ويمنحها القدرة على مقاومة الاستعمار الثقافي، وعلى العكس فإن المهادنة السياسية تعني افساح المجال لاستقرار الثقافة الدخيلة بامكانياتها الضخمة إزاء الثقافة المحلية الوليدة.

ومن خلال هذه الفصول التي ألممنا بمضمونها في سرعة يعرض المؤلف بمزيد من التحليل والتفصيل واقع الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية والتعليمية في البلاد، ويعرف بخفاياها تعريف العالم الخبير.

وفي هذا كان المؤلف يعكس إحساس أبناء تونس المثقفين بالواقع الذي كانوا يعيشونه، وما فيه من جوانب الصراع الذي يعانيه كل شعب ينجح في اغتصاب حريته من بين أنياب الاستعمار ويواصل نضاله لبناء مجتمع جديد يسعى بوطنه نحو التقدم، ويحاول أن يتمرد على عوامل الجمود.

والمؤلف يرسم له طريق النهضة الأدبية، حينما يؤكد ضرورة الاعتصام بالعروبة، والاندماج في المحيط العربي العام، والتفاعل معه تفاعلا كاملا وذلك بتبادل بعوث الطلاب والأساتذة، وتشجيع الثقافة العربية الأصيلة، ومؤازرة الصحافة والإذاعة والمسرح، والعناية ببعث التراث العربي، ونشر المخطوطات القديمة، والمؤلفات الحديثة، وتشجيع الأقلام الموهوبة والاتجاهات الشابة.

وبكل هذا أفلح المؤلف في تعريف القارئ العربي في الشرق بتونس وواقعها والخطوات التي خطتها في طريق الأدب والفن والثقافة القومية، والأشواط التي بقي عليها أن تقطعها حتى تحمي ثقافتها من التيارات الدخيلة، وتلحق بالركب في البلاد العربية المتطورة، وتأخذ دورها الذي ينتظرها في إعادة صنع الحضارة والتقدم.

لقد كان أبو القاسم الشابي هو العنوان الوحيد الذي تعرف به تونس، لكن هذا الكتاب قدم لنا عشرات من المفكرين والأدباء يقفون في الصف مع أبي القاسم الشابي، وزادنا معرفة بواقع تونس المعاصرة التي تسير بخطوات واسعة الى الأمام. (1)

(1) طبع الكتاب لأول مرة في القاهرة 1956 ثم أعيد في تونس بالنصير .

محمد الفاضل ابن عاشور

في كتابه : « تراجم الاعلام »

مرة أخرى تتأكد هذه الحقيقة المعروضة، وهي أن أزمة الأدب التونسي تتمثل في انزاله، وعدم معرفة الأدباء والنقاد المشاركة بقيمته الفنية وبمبادئ نشاطه، وقد ألمحنا من قبل إلى أن الأدباء التونسيين يحسون بمرارة وعتب على زملائهم الشرقيين، لأنهم لا يتفاعلون، بل ولا يفعلون بما ينتجه أقرانهم من أدباء تونس.

لهذا جند أدباء تونس ونقادها جهودهم لتعريف إخوانهم هنا وهناك بواقع الأدب الذي يعيش في تونس لكي يسدوا الفجوة الكبيرة بين الأدب التونسي وقرائه، ينفرد كل منهم بلون من ألوان التعريف، ولكنهم يلتقون على هدف واحد هو التعريف بهذا الأدب التونسي والفكر التونسي، والثقافة التونسية، والاعلام بمسيرة البلاد وبخطواتها في سبيل التقدم.

منهم من يعرف بالقيمة الفنية لهذا الأدب، ومنهم من يعرف بأعلامه، ومنهم من يجمع انتاجه، ومنهم من ينشر قرائه، وكل هذه خطوات على الطريق لكي يلتحم أدب المشرق بأدب المغرب ويتفاعل معه، ويأخذ منه ويعطيه، شأن كل آداب الاقطار العربية، التي تمارس التأثير والتأثر في سرعة تجاوبها، وعميق قفاعها.

وفي القائمة اليوم كتاب جديد لرائد من رواد التعريف بالثقافة التونسية هو العلامة محمد الفاضل ابن عاشور، وكتابه « نراجم الاعلام ».

لقد تناول في هذا الكتاب ثمانية وعشرين من شخصيات الاعلام المبرزين فعلا، والذين كان لهم أثر مباشر في حياة الشعب التونسي على مدى قرن من الزمان.

من بينهم عشرة من كبار علماء المسلمين هم أحمد الورتاني، والشاذلي ابن صالح، واحمد بن الخوجة، واحمد كريم، ومحمد السنوسي، ومصطفى رضوان، ومحمد المكي، وصالح الشريف وسالم بوحاجب، ومعاوية التميمي.

.. وثمانية من الوزراء هم : محمد خزندار. وخير الدين، والعزيز بوعتور، ومحمد الجلولي، ويوسف جعيط، وطاهر باشا، ومحمد حسين، وخليل بوحاجب.

.. وخمسة من رجال الدولة وكبار موظفيها وهم محمد البشير صفر، ومحمد الأصرم، ومحمد بن الخوجة، والمقداد الورتاني، ومحمد الفكييني.

.. وأربعة من رجال القضاء والافتاء هم الطاهر النيفر، وعمر ابن الشيخ، ومحمد بن يوسف، ومحمد بن الخوجة.
.. وفيهم أديب واحد هو محمد الشاذلي خزندار.

ومن هذا العرض نجد أن المؤلف قد اختار قطاعا معيناً

من الاعلام، هو قطاع القيادات السياسية والادارية والدينية، مما يوحي بأنه وضع حاجزا بين القارىء وبين المجتمع التونسي الحقيقي، ولكن هذا الايحاء ينتفي إذا عرفنا أن المؤلف قد اتخذ من هذه الشخصيات إطارا يعرض من خلاله تحركات المجتمع التونسي نحو الاصلاح والتقدم.

فهو في عرضه لحياة الوزراء يرصد أعمالهم الاصلاحية، ومدى ما قدموه للشعب التونسي من الآراء والأفكار والأعمال، ففي ترجمته لحياة الجنرال محمد حسين يقول إنه كان « مأخوذا بالنزعة الإصلاحية، شديد الغيرة على المصلحة الوطنية.. حقا على الدين يبتزون جانبا من الثروة العامة للبلاد، ثم يلتجئون الى البلاد الأجنبية ».

وفي حديثه عن الوزير خير الدين يقول « نحيث عن وزارته التأسيسيات الحيوية العظيمة التي منها تأسيس مدرسة الصادقية، وتعمير مكتبة الدولة ونظام العدالة، ونظام المحاكم الشرعية، وإصلاح نظام السجون، وتأسيس الخزانة العامة، والإصلاحات البلدية، والتنوير بالغاز، وإسقاط المغارم على أهل الساحل، والمعاهدات الجمركية لحماية الصناعات الأهلية، وتوسيع ساحة الأراضي المبذورة من 60 ألف هكتار الى مليون هكتار.. ».

وكذلك كان حديثه عن الوزير محمد العزيز بوعتور : « لما انتصبت الحماية الفرنسية بتونس تبين أن هذا الطور لا بد له من رجل متقرر الثقة، بعيد عن الريب والمخاتلات، قدير على تصور

الأمر، وتحاشي المشاكل قبل مواجهتها، مستعد لتلقي تاسيسات الحماية بما لا ينقص من كيان الدولة التونسية، ولا يضعف من ذاتيتها لتبقى متهيئة للنهضة؛ فكان من حظ البلاد أن دعي بوعتور إلى هذا المنصب الخطير في ذلك الوقت الخطير».

كذلك يقيس المؤلف مدى نجاح العلماء ورجال القضاء والإفتاء بما يقدمونه من إصلاح ديني، وما يكون في سلوكهم الشخصي والعام من قدوة ومثل عليا.

وفي تقييمه لرجال الدولة يعدد آثار كفاحهم فيما يقدمونه من سلوك وظيفي نظيف، وفي مدى حرصهم على أموال الدولة وسمعتها، ونزاهة الحكم فيها، وفي مواقفهم الصلبة إزاء الاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي.

بهذا يجد القارئ نفسه مع الشعب التونسي، والمجتمع الذي يتأهب للإصلاح والتقدم من خلال هذه الشخصيات المؤثرة في المجتمع التونسي تأثيرا مباشرا.

وبالإضافة إلى هذا فان اهتمام المؤلف بالبيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تعيشها الشخصيات باعتبارها الوعاء الذي أنبت هذه الشخصيات يجعل القارئ يعيش في الصميم من الحياة التونسية خلال قرن من الزمان، وبما يجري فيها من تيارات الإصلاح، ومن عوامل الانتكاس، دون محاباة لشخصية من الشخصيات أو تحامل على الأخرى.

وليست هذه التراجم تاريخا للأحداث والأشخاص فحسب، ولكنها معايشة كاملة لحياة تونس في هذه الفترة، وعلاقتها بالبلاد وبالأحداث العربية والإسلامية والعالمية.

كذلك نرى المؤلف في عرضه للبيئة الخاصة لكل شخصية من هذه الشخصيات، يمهّد لتحليلها، ويعرض مكوناتها أمام القارئ لكي يتعرف على وقائعها وعلى خصائصها البشرية والفنية، وعندئذ تتحول الترجمة من مجرد السرد إلى الإحساس الذاتي بالشخصية والتعاطف معها، تبعا لتعاطف المؤلف وحنوه على أشخاصه. وكان تعاطفه مع الشخصيات العلمية والأدبية كبيرا، وكان أكبر منه تعاطفه مع المعاصرين الذين عايشهم وأخذ منهم وأعطاهم، كما في ترجمته لمحمد الشاذلي خزندار.

وفي كلمة مجملّة نستطيع أن نقول إن هذا الكتاب هو في الظاهر ترجمة للإعلام، وتعريف بهم، لكنه في الواقع إحاطة عامة بحركة المجتمع التونسي كله من خلال حياة هؤلاء الإعلام وسيرتهم.

ومن خلال هذه التراجم نلمح الشيء الكثير من حياة المؤلف وميوله ومكونات شخصيته، فنحن نراه يؤكد في سير أعلامه على العلم وقيّمته الحقيقية، وعلى الحرية وضرورتها للإنسان، والطموح إلى التجديد، والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية، ويتقدم على مادية الغرب المستعمر ويخشى منها على الثقافة العربية.

على أن هناك شخصية تبرز وتتسع حتى تحتوي كل هذه الشخصيات ، وتشكل قدرا مشتركا في مكونات معظم هؤلاء الأعلام، ودقائق حياتهم، هذه الشخصية هي شخصية جامعة الزيتونة، وتأثي على أثرها المدرسة الصادقية ثم الخلدونية، وفي المدارس التي كانت مصنعا لانضاج المفكرين والمثقفين والعلماء والأدباء وكانت المنارات التي اتمدت بها البلاد، والتي عصمت ثقافتها العربية من أن تلدوب في الثقافات الدخيلة على مدى هذه الفترة المخصصة من تاريخ البلاد.

إن كتاب تراجم الأعلام في هذه الفترة من حياة تونس وبهذا العرض الجلي المشوق يعتبر خير تعريف بالفكر التونسي والثقافة التونسية يقدم الى القارئ العربي في شتى الأقطار. اذ يضم في الواقع تعريفها بالأشخاص والمواقع والبلدان والأحداث وواقع الحياة كلها في آن واحد (1).

(1) طبع بتونس 1970 .

محمد الحليوي

في كتابه : « في الادب التونسي »

هذا الكتاب ولو أنه مجموعة متناثرة من المقالات الا أنه يجري في إطار واحد هو الأدب التونسي.

ومنذ البداية تبرز الشكوى من جهل المواطنين بواقع الإنتاج الأدبي في بلادهم، وتجاهل الشرقيين لموقع الأدب التونسي من خريطة الإنتاج الأدبي في العالم العربي، يقول المؤلف في مقدمة كتابه هذا : « ان الأدب التونسي عاش قرونا عديدة يأخذ من الأدب العربي ولا يعطي، أو ظل قانعا بالأدب المصدر من عواصم الشرق دون ان يدخل يوما في حسابه ».

والمؤلف يحدد هدفه من إعادة نشر هذه المقالات في كتاب، بأن هذه الثروة الضخمة من المقالات النائمة في بطون النشريات لما تستثمر بعد، وأن هذا الكتاب جاء ليعين النشء على معرفة حقبة من تاريخ الأدب التونسي المعاصر تمتد الى ثلث قرن هي التي يمكن أن نسميها عصر الشابي، وما كان يستولي على أصحابها من اهتمامات فكرية. والكتاب ينقسم الى أربعة أقسام :

قسم الدراسات الأدبية، وقسم التراجم، وقسم المناقشات، أما القسم الرابع فيخصصه المؤلف للحديث عن القيروان.

وإذا كانت شخصية الشابي وعبقريته تستأثر باهتمام النقاد والمؤرخين، وتكاد تعطر القلم الذي يكتب عنها، فقد بدأ القسم الأول من الكتاب بدراسة لديوان الشابي في طبعته الجديدة. والمؤلف حين يتناول ديوان الشابي لا يحيط بجملته، ولكنه يلقي الضوء على زاوية معينة، ومن خلالها يخرج بمجمل آرائه وأفكاره عن الشابي وشعره.

فهو يركز على القصائد الجديدة التي تنشر في الديوان لأول مرة، بالطبعة الجديدة وهي تسع وعشرون قصيدة، لم تنشر في الطبعة الأولى.. وقد استبعدها الشابي نفسه من الديوان لأنها في رأيه لا تعبر عن أسلوبه أو روحه، بل فيها سذاجة كسذاجة الأطفال.

وهو يحلل محتويات هذه القصائد، ويصنفها الى مجموعات تتحدث عن موضوعات الموت والعدم والقدر، والفلسفة، والطبيعة والغاب، والغربة الروحية، والقلب والحب، والمجتمع، والشعب. ثم يتحدث المؤلف عن أطوار شعر الشابي ويخلص من دراسته بالمقررات التالية :

أولاً - أن الشابي يقف في صف واحد مع زعماء الرومانتيكية أمثال هيجو، ودي فيني، وجيته، وشاتوبريان، وبيرون، ولامرتين، وجبران، ونعيمة، وإيليا أبي ماضي، وإبراهيم ناجي.. وغيرهم، لتوفر العناصر الأصلية للرومانتيكية في شعره.

- أن ألفاظ الشابي وهو ينسقها ويركب منها صورته الشعرية تثير الإعجاب بقوة الشاعرية، لكنها لا تفلق في خلق الإحياءات

النفسية، ومع ذلك فهو في قصائد قليلة يقتصد في الألفاظ .
 يركز على تكوين الجو الإيجابي الملائم مثل قصيدته « الى
 عازف أعمى » التي يقول فيها :

وأدركت فجر الحياة أعمى	وكنت لا تعرف الظلام
فأطبقت حولك الدياجي	وغام من فوقك الغمام
وعشت في وحشة تقاسي	خواطرا كلها حرام
وغربة مابها رفيق	وظلمة ما بها ختام
تشق فيه الوجود فردا	قد عضك الفقر والسقام
وطاردت نفسك الماسي	وفر من قلبك السلام

ثانيا - أن موقف الشابي من الشعب ، وما وجهه إليه من قوارع
 ودمدمات لم تكن انتقاما من الشعب الذي تجاهله ، وإنما هي
 رغبة واضحة وصريحة في الإصلاح ، وتنبؤات بالمستقبل ،
 ودفع لاقتحام الحياة ، وفض مغاليقها وتحطيم الحواجز التي
 تعترض طريق المستقبل.

أما الموضوع الثاني فهو « النقد الأدبي المعاصر في تونس » ، وهو
 عملية رصد لحركة النقد ، وإحصاء لما كتب ، واستعراض لآراء الأعلام
 الذين كتبوها في كتبهم وصحفهم وإذاعاتهم ، وتقييم لهذه الجهود ،
 ومن خلال المقال نلتقي براء الكاتب متناثرة بين ثناياه .

وفي موضوع « الحركة الفكرية في تونس » يستعرض المؤلف
 مظاهر هذه الحركة في وفرة الشعراء والصحف والجمعيات ،
 ونشاط الحركات الفنية والسياسية ، لكن نواقصها كثيرة . تتمثل

ففي اهتمام الصحافة بفصائح المجتمع وخدمة الأقوياء، وقيام الأدب على التهريج والشعوذة والتهافت على الشهرة، وأزمة النشر، وانعكاسها على الأدباء، وتملق بعض الأدباء للجماهير، وتخوفهم من الخروج على المألوف.

ثم يخلص الى أن النهضة لا بد لها من مقومات، هي النشاط المتخلص لتجميع الشباب، وتوجيهه بعيدا عن الخصومات والطائفيات، وانقاذ الشعب من الجهل، بافتتاح المدارس والأندية والمكتبات، وقيام العمل في ظل شعار: العزيمة، والإيمان، والإخلاص.

وفي دراسته لشعر الشاذلي عطا الله يحصر أغراضه في الروحانيات والطبيعة والوطنية، والقومية، واعتزازه بالوطن ورجاله ومعالمه ويميز شعره بمتانة البناء، وسلامة الذوق، واختيار الكلمات.

وفي القسم الثاني « مع أدبائنا الراحلين ».

يلم بحياة الأدباء والشعراء والمفكرين أمثال محمد البشروش الذي برز في الصحافة والقصة واتقان الفرنسية، وصالح السويسي تلميذ المؤيد والأفغاني ومحمد عبده، وداعية الاسلام على أساس الاستمسك بالعروة والدين المطهر، والاقبال على العلوم الحديثة.

أما الشيخ محمد بوشربية فيتتبع حياته العلمية والتعليمية وثورته على المناهج التعليمية ومطالبته بتطويرها، وتشاؤمه ونقمته على الحياة، وطموحه الى تحرير بلاده.

وأما أحاديثه عن عبد الرزاق كرباكة، ومحمد العربي الكبادي فلا يعلو أن يكون مرثيات عاطفية.

وعن محمد الفائز يلم بنشأته واندماجه في الأوساط الأدبية، واشتغاله بالتعليم، ومشاركته في الصحافة والخطابة والأندية، ومطالبته بالإصلاح على أساس العودة الى مجد العرب ، .

وفي ترجمته لأبي الحسن ابن شعبان يتحدث عن انشغاله بالتعليم والأدب، وعن ذوقه الأدبي الذي جعله من فحول الشعراء. أما القسم الثالث فيقوم على مناقشات لبعض القضايا، وفيه تتناثر آراء المؤلف في بعض الشؤون الأدبية والفكرية التي تعجيء بمناسباتها، وتتلخص في :

أولا — الدعوة الى تكوين أدب قومي.

ثانيا — لا سرقة في الشعر ولكن هناك طائفتين من الشعراء : شعراء الاختيار، وشعراء الشخصية، وشعراء الاختيار يستحضرون نماذج معينة وهم يكتبون أشعارهم، فتتوارد فيها المخواطر.

وتجري المناظرات بين المؤلف وبين الكتاب والنقاد حول قيمة التراث والأعلام القدامى، فيتحامل على ابن رشيق ويصفه بأنه جامع آراء، وليس ذا رأى أصيل، ويدافع عن الحريري ومقاماته، ويمجد ابن هانيء وشعره.

وأقوم آراء المؤلف هنا هو الدعوة الى النقد الموضوعي القائم على المبادئ والقواعد، والمعني بالتحليل في ضوء القيم الفنية والنزعة الإنسانية، واعتبار العمل الفني كلاً قائماً بذاته غير قابل للتفتيت. وفي الاستفتاء حول الشعر يرى أن الشعر الجديد سيعود من تلقاء نفسه الى الوزن بشكل أو بآخر، والى القافية ولو بالمزاوجة ،

وسيصير الى انتقاء اللفظ الموحي ، والتعبير بالصور بدل التعبير التقريري.

والثقافة العربية المعاصرة في رأيه تجتاز فترة القلق والحيرة ، وتبشر بالدخول في عهد الابتكار والخلق بعد أن تخطت دور الاعجاب الابله بالغرب ، ولا بد أن تنسم الثقافة الجديدة بالوحدة والقومية والثبات والواقعية والتحرر والانسانية والجمالية.

وهكذا نجد عند تقييمنا لأقسام الكتاب منسوبا بعضها الى بعض أن القسم الأول أهمها وأقيمها ، لما فيه من موضوعات متكاملة ، وآراء أصيلة يليه القسم الثالث لاحتوائه على الآراء والافكار الحرة النابعة من مناسباتها.

أما قسم التعريف بالراحلين فيغلب عليه طابع الرثاء العاطفي ، فلا يلقي الأضواء الكافية على الشخصيات وإن لم يخل من قيمة تعريفية بالأعلام وانتاجهم.

وأما القسم الرابع فهو مقطوعات وحواريات وأشعار تسجيلية قليلة تدور كلها حول القبر وان مسقط رأس المؤلف ، وليس فيه كبير غناء.

ومع ذلك فنحن نسجل بالتقدير هذا الجهد الذي بذله المؤلف من أجل التعريف بمقومات الأدب التونسي وأعلامه ، خدمة للمعرفة والثقافة ، وغيره على الوطن والتراث.(1)

(1) طبع بتونس عام 1969 .

رشييد الذواڊى

فى كتابه : « أعلام من بنزرت »

التربة الأدبية فى تونس تحمل من عناصر الخصوبة ما يبشر بعطاء وفير، كما تحمل من ملامح التجديد ما يوحي بالاستمرار فى تعميق مجرى التيارات الفكرية الأصيلة.

وشباب الأدباء والمفكرين فى تونس يسرون بخطوات ثابتة نحو التأصيل والترسيخ، وتمكين الأساس، والارتقاء بالبناء.

ومع استمرار الإنتاج التقليدي فى الشعر والقصة، ومع ارتفاع مد التجديد فى هذين المجالين فإن الإنتاج الأدبي فى مجال التعريف بالأرض والبشر يتخذ لنفسه مجرى متميزا، يمنح الأساس التونسي قوة وطاقاة على الاحتمال فى معركة البناء.

فالتعريف بالبلدان والأعلام يكاد يزحم عليك الطريق فى كل إقليم وكل بلد من بلدان تونس.

لكل بلد تقاليد ومواسمه وأعياده وطقوسه، ولكل مناسبة ندوة وملتقى لآحياء المعالم والشخصيات والأمجاد.

ولكل مدينة — بل لكل قرية — دورها وأعلامها الذين وهبوا حياتهم لآرائها، وبذلوا نفوسهم لتحريرها، وأقاموا فيها للعلم سرقا، وللفكر منارات.

وعن كل لإقليم وكل مدينة وكل قرية كتاب أو باقة من الكتب ،
تهدى إليك في سلة معطرة ، كما تهدي الزهور والعطور والفواكه والتحف .
وأشهد أنها ليست مطبوعات دعائية أو سياحية ، لكنها دراسات
علمية جادة ، دبرتها أقلام متخصصة ، مؤرخة ومتحمسة في نفس الوقت .
تونس العاصمة أشبه ما تكون بالأم في عرس بناتها ، تبهر بأضوائها ،
وتتبه بمسارحها ومغانيها ، وتتبرج بزینتها ، وتشغل بماتشغل به عواصم
العالم التي تتجدد فيها الحياة كل لحظة ، وحتى المؤسسات التاريخية
والمتحفية فيها تكاد تتجدد مع ما ينجم كل يوم من جديد .

أما عقب التاريخ وجلال العتق فهو هناك : في القيروان ، حيث
يشع جامع عقبة ، ويرقع ضريح البلوي ، وتستريح فسقية الأغالبة ،
وتنتشر الحرف التقليدية في أسواقها ذات الماضي العريق .
وهناك على الطرف الآخر مدن تتمجد بعلمائها وأدبائها ،
مثل قفصة ، كبرى مدن الجنوب الغربي .

وهناك سوسة ، عاصمة الساحل ، وثالث مدن الجمهورية ..

وهناك المنستير ورباطها التاريخي ، وقصرها ومطارها ..

وهناك المهدية عاصمة البلاد القديمة ، وقلعتها الحصينة التي
انطلق منها الفاطميون نحو الشرق .

وهناك .. وهناك ، كل مدينة لها مجد ، وكل مجد له تاريخ .

لكن المدن التي تحتل المكانة الأولى من اهتمام الشعب التونسي
وتقدير الشعوب المحبة للحرية والسلام وإكبارها — هي مدن البطولة ،

وقد احتلت الذروة منها مدينة بنزرت، التي تنال - الى جانب شرف التمجيد في القديم - شرف معارك التحرير الأخيرة التي جرت ضد الغزاة المعاصرين، وآخرها المعركة الكبرى التي كالت بالنصر، وأحرزت شرف التحرير لها ولكامل التراب التونسي، بين عام 1961 وعام 1963، ومن يومها رفعت رأس تونس، ورفعت قدر العرب، ورأس البلاد المناضلة، إذ أضافت الى سجل البلاد المتحررة بلدا جديدا ومجيدا.

فعلام يدل تمجيد التونسيين لمدينهم ومحاولة تخليدها والإشادة بها على تلك الطريقة الفريدة ؟

لقد خرجت تونس من محنة كان ترابها فيها هو المستهدف من الغزو، كان المستعمرون يريدون استيطانها والحاقها بتراب البلاد الغازية، وبنزرها من التراب العربي الأفريقي.

ولهذا تمثلت فرحة الاستقلال والحرية في تمجيد هذه المدن والقرى، واتخذ الوفاء لها شكل الدراسة والبحث عن أمجادها الغابرة ومعطياتها اليوم وغدا، واتخاذها أعلاما على النضال المنتصر، والإشادة ببطولاتها وأبطالها، شكرا لله على هذا النصر، وتوعية للأجيال كي تستمسك بحريتها واستقلالها وتقدها. لا تسمح للاستعمار مرة أخرى أن يندس ترابها أو يعوق تقدها.

من أخص خصائص تمجيد هذه البلاد تسجيل البطولات التي أنجبتها على توالي العصور في ميادين العلم والمعرفة والثقافة والفكر والوطنية.

والكتاب الذي يقدمه الينا رشيد الذوادي اليوم نمط من التمجيد العلمي غير المتعصب ولا المغالي، فكتابه « أعلام من بتزرت » يضم باقة من العلماء الذين أنجبته هذه المدينة على توالي العصور.

والذوادي شاب على قمة الشباب، هادئ الطبع، بعيد عن الأضواء، يعكف على عمله في غير ضجيج، أخلص ولاءه لمهنة التعليم، وأحب مسقط رأسه بتزرت كل الحب، ومن هذين ارتسم له إطار هذا العمل فاتخذ كتابه معرضاً لتحليل الشخصيات التي أنجبها بتزرت، والتي مارست مهنة التعليم، مهنة الأنبياء والرسل، ومن هذا نجد يتحدث عن شخصياته بحب وتعاطف، ويشخص دقائق حياتهم تشخيص الخبير، ويرز بدايات تعليمهم ومنابع ثقافتهم ونضالهم باصرار في سبيل المبدأ، والأضواء التي أفاضوها على بلادهم في ميادين العلم والثقافة والإصلاح والتحرر وإقامة العدل وتنوير البصائر — فلك سمات المعلمين المخلصين لمبادئهم، وتلك هي العناصر التي يحرس كاتب التراجم على إبرازها في شخصياته إذا كان في مثل موقف الذوادي. خاصة إذا كانت شخصياته ممن أنبتهم التراب الذي ما زال يمشي عليه ويتنفس في أجوائه.

وقد يبدو أن الكاتب بهذا التحديد يضيق دائرة بحثه، ويوجد قلمه محتسباً بين أبناء الوطن وأبناء المهنة، فلا تتوالى له شخصيات ذات نشاط يدور حوله موضوع ذو قيمة، وقد لا يجد المراجع التي تسعفه بالقدر الكافي لإدارة البحث.

قد يبدو ذلك صحيحاً من بعض الوجوه، وقد يكون مجرد توقع وإشفاق. نحو كاتب نقرأ له لأول مرة، ولكننا حينما نرافقه

في هذا الكتاب نجده قد اجتاز هاتين السليبتين بثقة واعتداد. فقد تعمق حياة شخصياته، ومنحها من النبض الحيوي ما جعلها تتعامل مع القارئ بشكل يكاد يكون مباشرا، ومنح القارئ فرصة التعرف الكامل على هذه الشخصيات.

والذي منح تراجمه هذه الحيوية وهذا النبض أنها لم تكن مجرد معلومات يسردها عن حياة أبطاله. ولكنها كانت رسدا كاملا للأجواء والتيارات الأدبية والفكرية والسياسية التي أنبتت هؤلاء، ورافقتهم في خضم الرحلة، وسيرت بهم سفن تونس من منبع تاريخها الى مصبه، فجعل منها قطعة نابضة من تاريخ تونس، تسير على الأقدام، وتبطش بالأيدي، وتفكر وتناضل، لتنتقل البلاد وتنتقل بها من عالم الظلام وعالم التخلف الى عالم النور والحضارة.

لقد عرض المؤلف في هذا الإطار شخصيات بنزرتية خالصة، فعاشها على بساط التاريخ منذ القرن الرابع عشر، والتقى بها على أرض الواقع في أيامنا هذه، وأخذ منها وبادلها الفكر والرأي.

بدأ المؤلف لقاء التعارف بيننا وبين أبطاله بمحمد بن قاسم البزرتي المتوفى عام 1391، وانتهى بالهادي زمزم، المتوفى عام 1970، فقدم لنا على مائدة هذا التعارف ست عشرة شخصية، من بينها شقيقه الشاب القصاص الأديب المريني المناضل محمد النوادي، الذي استشهد في ساحة الشرف بقذائف النابالم في معركة الجلاء عن بزرت عام 1961، عن ثلاثة وعشرين عاما.

قد يكون من بين من تولى التعريف بهم حنود مجهولون، ولكنهم جميعا أسهموا في إقامة البناء الثقافي واللغوي والأدبي والديني في واقع تونس الحرة المعاصرة.

من هؤلاء عبد الله البحيري، المعلم والخطيب والقاضي، من أعلام القرن الخامس عشر، ومصطفى بن عبد الكريم، اللغوي المحدث والمفتي والفقيه الذي عاش في القرن السابع عشر، وعلي الشرطي الذي كان من أعلام الدولة الحسينية في القرن التاسع عشر، والذي عاصر الإصلاحات المالية التي قام بها الباي أحمد الثالث، وهجرة الجزائريين الى تونس بعد احتلال الجزائر. وسمع قوله نابليون : « اذا تعود العرب الحرية والعدالة فلن يكون بيننا وبينهم سلام في الجزائر »، وعاصر إصلاحات الوزير خير الدين، وهاجر الى الحجاز، وزار القدس، وأقام في عكا، وشغل بالتصوف، وعمل على نشر طريقة أبي الحسن الشاذلي، كما اشتغل بالسياسة وزامل الأمير عبد القادر الجزائري، حتى أصبح معدودا من قادة الفكر في الشرق.

أما عمر بن الشيخ فقد ولد في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، وتوفي في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين، فأدرك عهد محمود باي، وعاصر ثورة علي بن غداهم، وخروج البايات على الحكم العثماني، وقد لفت نبوغه المبكر كبار الأساتذة، فاختره للتدريس بالزيتونة عقب تخرجه منها، واختاره الوزير المصلح خير الدين عضدا له، وعينه مستشارا للمعارف، كما عينه في لجان تصفية الفساد السياسي، وتولى مناصب الإفتاء والتدريس وكان شديد

الإعجاب بعمر بن الخطاب في سيرته، كما أعجب بالثورات الاجتماعية التي قامت في الدول الإسلامية، ومن بين زعماء الإصلاح كان معجبا بمحمد بن عبد الوهاب، والأفغاني، ومحمد عبده، وكان مهتما بالتاريخ والحديث والأسانيد، ومع أنه لم يترك مؤلفا واحدا الا أنه ترك في الفكر التونسي تيارا مرموقا.

والعربي النجار المتوفى عام 1916 لم يتلق أي نوع من التعليم، ولكنه كان من مشاهير الشعراء الشعبيين، نادى في شعره بالإصلاح والوطنية.

وعلي بوشوشة المتوفى عام 1917 بدأ تعليمه في بنزرت، وواصله في الزيتونة والصادقية، وأتمه في أنجلترا، وكان ثائرا لامعا منذ شبابه، وكان متضلعا في اللغات الأجنبية، وكان امتدادا لحركة خير الدين، لكن عودته من انجلترا الى تونس جاءت مع بداية الاحتلال الفرنسي، فابتعد عن الأعمال الرسمية، وأنشأ أول جريدة غير رسمية، هي جريدة الحاضرة التي ظلت تصدر من عام 1888 حتى توقفت عام 1915 ابان الحرب العالمية وكان ذكاؤه وحيلته واعتداله مما جنب هذه الجريدة أخطار التصادم مع السلطة، وان أنكر عليه المواطنون هذا المسلك.

وادريس الشريف المتوفى عام 1936 عرف بفتاواه المشهورة ضد الاحتلال الفرنسي (1) وعاصر واقعة الزلاج عام 1911، وأحداث

(1) المعروف انه اُفتى ضد التجنيس، واعتبار المتجنس بالجنسية الفرنسية مرتدا عن الاسلام.

مقاطعة الترام عام 1912، وثورة خليفة بن عسكر 1915 - 1919، وتأسيس الحزب الدستوري بقيادة عبد العزيز الثعالبي، وقيام الحركة النقابية بزعامة محمد علي، والحزب الدستوري الجديد بزعامة الحبيب بورقيبة، وقد كانت دروسه وفتاويه ومقالاته وأشعاره تملأ أنهار الصحف في تونس وبلاد المشرق، وقد ترك كثيراً من المؤلفات الاجتماعية والتاريخية والدينية والوطنية واللغوية والصوفية، كما ترك ديوان شعر تناول فيه مختلف الأغراض.

أما سليمان والي المتوفى عام 1961 فقد شهد كل هذه الأحداث كما شهد ظهور الجمعيات الأدبية والتمثيلية، واشتغل بالتعليم والشؤون العدلية في مسقط رأسه، وأسهم في تأسيس الجمعيات الثقافية.

وحمودة بوقطفة المتوفى في نفس العام معلم وكاتب وخطيب سياسي وديني، وشاعر ومتضلع في اللغة، وكان دائم التصدي لكشف أعمال الاستعمار في بنزرت.

ومحمد علي العنابي المتوفى عام 1962 درس في باريس بعد بنزرت وتونس، فحصل على إجازة الآداب من السربون، وإجازة الرياضيات من كليتي العلوم والرياضة، ودبلوم العلوم السياسية من المدرسة الحرة، وعرضت عليه جامعة السربون منصب الأستاذية إذا تخلى عن تونسيته، فرفض، وعاد الى تونس ليمارس نشاطه من خلال التجمعات الثقافية، فأنشأ كثيراً من الأندية الطلابية، وعلى اثر الاستقلال سعى لاشراك تونس في الوكالة الدولية للذرة،

ومثل تونس في مؤتمراتها، وأنشأ في تونس مصلحة الأبحاث العلمية والطاقة الذرية، واختير مديراً لوكالة الطاقة الذرية بتونس.

وكان خميس ترنان الذي توفي عام 1964 من مشاهير الموسيقيين العرب المعاصرين ، تتلمذ عليه خيرة فناني تونس، وقام على حفظ التراث الموسيقي، وهو ملحن موهوب، قدم أعذب الألحان لخيرة المطربين والمطربات، وهو صاحب الفضل في إقبال الشباب التونسي اليوم على المألوف والموسيقى الاندلسية، وقد عاش في خدمة التراث، والتوفر على ابتكار الجديد حتى وهو في السبعين من العمر.

وعلي الخماسي المتوفى عام 1967 عن 91 عاما اشتغل بالتعليم مبكراً، وقام بإنشاء المدرسة القرآنية في بنزرت ليعلم النشء الدين واللغة العربية بازاء التعليم الأجنبي الذي أشاعه الاستعمار ليقضي على لغة الوطن ودينه، وقد اهتم بشتى ألوان الثقافة والعلوم الى جانب التربية، وله مؤلفات دافع فيها عن الأمة العربية ولغتها وتاريخها، وله كتب في الجغرافيا والتاريخ والاجتماع وتاريخ بنزرت، وقد اهتم بتأسيس الجمعيات الخيرية، وجمعيات الطفولة المشردة، ومما يروى عن جرأته السياسية أنه وجه رسالة الى القائد الالماني في الحرب العالمية يطلب اعترافه بحق تونس في الحرية والاستقلال عندما تضع الحرب الدائرة بين الحلفاء والمحور على أرض افريقية أوزارها.

وقد كان محمد الطاهر الخماسي المتوفى عام 1970 متأثراً بمدرسية خير الدين الإصلاحية، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد

الرحمان الكواكبي، وقد تتلمذ على مكنتات تونس وصحنها، وعاش فترة تأسيس الحزب والثورات الشعبية، وكتب في الصحف، واشتغل بالتعليم والعدل والخطابة، وترك بعض المؤلفات الدينية والتربوية والاجتماعية والسياسية.

أما آخر هذه الشخصيات فهو الهادي زمزم الذي توفي في نفس العام عن إحدى وثمانين سنة، لقد عاش في بيئة إسلامية وبعد حصوله على شهادة الزيتونة في القراءات قام بالتدريس فيها، ثم اشتغل بالخطابة والامامة والإصلاح الاجتماعي في قريته وبين مواطنيه، حيث قضى أخريات حياته.

وبعد ..

فهذه باقة من الرجال تشرف بها أمة بكاملها، فكيف إذا كانت تنتسب الى بلدة ليست من كبريات بلدان تونس، لكنها فرضت كبرياءها على التاريخ.

فهؤلاء هم بناءة تونس الحقيقيون، بناءة البشر، أغلى ما وهبت الحياة.

هؤلاء هم معلمو بنزرت مدينة الكفاح والتحرر والسلام، تمجدت بهم وتمجلوا بها.

هم جميعا من بنزرت. وهم جميعا معلمون، نظمهم المؤلف في سلك واحد ليصنع منهم عقدا مضيئا حياته المناضلون الأبطال، وكأنه بذلك يؤدي ضريبة الولاء للمواطنة والولاء للمهنة في وقت واحد.

لقد أفلح في تشخيص كل منهم بملامح أصيلة، ميزته بدقة عن أقرانه، لم تلتبس شخصية بأخرى، ولم تطمس واحدة منها معالم أختها، استل بعضها من غياهب التاريخ، وعاشر بعضها كامل المعايضة، ولكنه تعاطف مع الجميع بعدالة.

وتلك ميزة كاتب التراجم الأصيل، الذي لا تتشابك في أصابعه الخيوط ولا تتعقد، ولا تترك رسالة مسيبة، بل تناسب كل منها الى الموضع المرسوم لها لتؤدي دورها في صنع النسيج الإنساني الرائع، وتكاد تبعث الشخصية من جديد.

وأروع النماذج التي تألق فيها المؤلف شخصيات عمر بن الشيخ، والعربي النجار، وعلي بوشوشة، وقد شد تعاطف القارئ بقوة الى القصص الشهيد محمد الحبيب النوادي، الذي أصبح عليه واجب تقديمه مرة أخرى من خلال ثرائه.

وبالتأكيد هناك شخصيات جديدة برزت من خلال معارك بنزرت الأخيرة ولا بد أن تظفر من المؤلف بلمسة حنان، ليواصل بها تعبده في محراب بنزرت.

إن رشيد النوادي اسم قلما تسمع به كثيرا في زحمة الأدب التونسي لأنه يعمل بلا ضجيج، لكنه بهذا المستوى من كتابة التراجم قد فرض نفسه ككاتب سيرة من الطراز الأول وهو يؤدي للقارئ واجب التعريف بأبطاله الأمجاد في معركة الحياة والتقدم (١).

(١) طبع بتونس عام ١٩٧١ .

رشيد الذوادي

في كتابه « رواد الاصلاح »

رشيد الذوادي من الكتاب التونسيين المعنيين بفن السير والتراجم، يتابع كل نبذة تنجم في حقل الفكر التونسي، فيمهد لها المكانة اللائقة بها في سجل الأدب والثقافة والفكر، الذي أصبح حافلا بالأعلام.

وقد استقبلت المكتبة العربية بحفاوة تجارب الذوادي في مجال التراجم من أمثال كتاب « حسن النوري »، وكتاب « أبطال وشهداء »، وكتاب « أعلام من بنزرت ». وكتاب « أدباء تونسيون ».

أما كتابه الذي نعرضه اليوم وهو كتاب « رواد الاصلاح » فيتميز بأنه رحلة حول خمسة من الرواد، عاشوا في فترات متتابعة امتدت من عام 1820 الى عام 1940، وتمثلت رسالتهم في المحاولة الجادة لإصلاح المجتمع العربي الإسلامي في فترة من أشد فترات حياته قسوة وظلما، فاستطاعوا بعبقريتهم وثورتهم ونضالهم وإصرارهم أن يمزقوا حجب الظلام والجهالة، وأن يصيحوا في وجه الجبروت الاستعماري، وأن يفجروا في نفوس مجتمعاتهم طاقات الثورة، وأن يمشروا بعالم أفضل، فكانوا طلائع الحرية،

وأضاءوا طريق الامة نحو فجر التحرر والاستقلال والنقدم الذي نسلكه اليوم.

وليست شخصيات الذوايدي في هذا الكتاب قاصرة على المحيط التونسي كما عودنا في كتبه السابقة، ولكن دائرة الإصلاح اتسعت أمامه، فجعل معها في أنحاء العالم العربي والاسلامي أينما وجد الإصلاح ورجاله الذين ندين لهم اليوم بما أحرزناه من يقظة، وما سنحرزه غدا من تقدم في مجالات الفكر والحرية والثقافة والسياسة.

خير الدين التونسي

وحين تذكر كلمة الإصلاح في تونس تتداعى الى الذاكرة شخصية خير الدين التونسي، محاطة بهالة من التقدير والإجلال، سواء من المثقفين أو السياسيين أو رجل الشارع.

وخير الدين في وعي الدائرة التونسية المحدودة ليس عبقرية عربية تونسية فحسب، ولكنه أسطورة سياسية وفكرية على النطاق الأمامي.

فهو ظاهرة شاذة بمقاييس عصره وبيئته، وهو شخصية فذة على المستوى العالمي، حيث عاش ومارس حياته بين العشريينات والتسعينات من القرن التاسع عشر في بلد متخلف مهدد بالاستعمار بين يوم وآخر. وحبكا للأسطورة لا بد أن يكون خير الدين من سبي القوقاز، وأن يباع في سوق استنبول، ليستقبله قصر نقيب الأشراف، فيتربى مع ابنه الوحيد، وحينما تحزن الأسرة لفقد وحيدها تتخلص من شبح الذكرى بإعادة بيع رفيق حياته خير الدين، وبالتداول، يصل الى ساحة باي تونس، الذي يرى فيه شخصية غير عادية

فيخصص له المعلمين والمربين، وتسعفه همته، فلا يقتصر على تلقي المبادئ، بل يعكف على فنون الحرب والسياسة، ويلتزم العلماء، ويتقن الفرنسية الى جانب العربية والتركية .

وتونس يومئذ بلد متخلف، لم يبق له من الحضارة سوى هيكل متداع، ولا من الدين الا بعض المظاهر والقشور التي انزوت في الكتائب وأركان التكايا والزوايا، بينما التعليم المدني خاضع للجانبايات الأجنبية، وما يتبع ذلك من فساد الحكم، وانهار الاقتصاد.

لقد أزعج ذلك الباى أحمد باشا مولى خير الدين، فحاول إدخال بعض النظم على هياكل الإدارة، وصادف ذلك اهتمام الدولة العلية على عهد محمود الثاني باقتباس بعض النظم الأوروبية، وتطبيقها في مختلف ولايتها، ومن بينها تونس.

وبمعاونة خير الدين استطاع الباى أن يشجع الثقافة، وينظم الجيش والإدارة، ويخفف الضرائب، ويلغى الرق.

وفي هذه الأثناء ألحق خير الدين بالحاشية، وصحب الباى في زيارته لملك فرنسا، ثم عين أميراً للواء، ووكل إليه بعض المهام العسكرية والاقتصادية الخطيرة، وكلف بإصلاح أوجه الفساد الإداري والانحرافات السياسية في البلاد.

وقد اقتضت بعض هذه المهام أن يقيم في فرنسا ثلاث سنوات متصلة، حيث وافته الفرصة لتوسيع آفاق ثقافته، والتعرف على أعلام أوروبا وبلدانها وأسباب تقدمها.

وتداول كبريات الوظائف . فعين وزيرا للحريية . ثم رئيسا للوزراء ، كما تداولته العقبات التي اعترضت طريقه الإصلاحية . فترك الحكم ، وعكف على تدوين تجاربه في كتاب حال فيه تطور المجتمعات المتقدمة ، وسماه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » .

وظل خير الدين بعيدا عن الحكم سبع سنوات استشرى فيها الفساد ووقع فيها الانهيار الاقتصادي فاستدانت الحكومة بفوائد ربوية باهظة اضطرتها لفرض ضرائب عالية ، مما فجر الثورة الشعبية المشهورة بقيادة علي ابن غداهم .

وخوفا على تونس من تفاقم الأمور حولها ، وانقضا للاستعمار الفرنسي الذي داهم جارتها الجزائر - كلف الباي خير الدين برئاسة اللجنة المالية التي شكلت لتسوية ديون تونس ، فأنقذها من الانهيار الاقتصادي والاستعمار السياسي ، وقام بتوثيق العلاقات بينها وبين الدولة العلية ، فعينه الباي وزيرا أكبر الى جانب رئاسة اللجنة المالية .

واستيقظت سعايات الناقمين على خير الدين ، وعلى الإتجاه الإصلاحية عامة ، فنحي عن الحكم ، وصودرت حريته ، مما جعله يفكر في الهجرة ، وحينئذ استدعاه السلطان عبد الحميد الذي كان قد اطلع على آرائه الإصلاحية في كتابه « أقوم المسالك » ، فعينه رئيسا للجنة الاقتصادية ، ثم عينه صدرا أعظم للدولة العلية ، لكن قلبه ظل معلقا بتونس ، متابعا لأحداثها ، وقد حزن حزنا شديدا عندما علم باحتلالها على أيدي الفرنسيين ، وظل حزينا عليها حتى فارق الحياة .

ولقد كان خير الدين طاقة فكرية ووطنية وإصلاحية جعلته من أعلام القرن التاسع عشر، ووضعت على رأس المصلحين العرب والمسلمين في فترة كانت تموج بالتقلبات العالمية الخطيرة، فكان من حسناته أن أصدر أول دستور في البلاد الإسلامية كلها، هو عهد الأمان. (1)

وكان أعظم تراث فكري وسياسي واجتماعي خلفه خير الدين، بل خلفته هذه الفترة هو كتاب « أقوم المسالك » الذي حلل فيه أحداث العالم الإسلامي على ضوء الحركة التقدمية التي شملت الدول الأوروبية، وجعلها تسبق الشرق بمراحل بعيدة.

وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه صدر عن مصلح عربي مسلم، وحوى أفكارا سياسية تقدمية في فترة مبكرة من حياة الشرق الفكرية المتخلفة.

وتذكرنا سيرة خير الدين بحياة ابن خلدون في عناصر كثيرة مشتركة، من بينها الآراء الثورية الجريئة، والدعوة للانقضاء على التقاليد البالية، وعلى أسباب التخلف التي تحيط بالعالم الاسلامي، كما يتشابهان في إنتاجهما الفكري التقدمي بالنسبة لعصرهما، فقد لفت كتاب خير الدين أنظار العالم كله، وترجم فور صدوره الى العديد من اللغات الأوروبية، وما يزال يجد صداه حتى الآن، ويعتبر من مفاخر الفكر التونسي، كما يعد مرجعا مبكرا

(1) لم يصدره خير الدين ، وإنما صدر بمرسوم من الباي محمد ، وكان خير الدين من دعاة إصداره ومن أعضاء مجلس الشورى الذي جاء به الدستور .

للدراست السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحوله تدار الرسائل والبحوث الجامعية.

واذا كان الدارسون التونسيون يعلقون الأهمية الكبيرة على مقدمة هذا الكتاب وحدها لما حوت من أفكار وآراء ذاتية، وإذا كانوا يرون أن الكتاب نفسه لا يعدو أن يكون مفاومات جغرافية وتاريخية واجتماعية عن البلاد الأوروبية التي زارها فإن بعض الباحثين في المشرق قد كشفوا في صلب الكتاب عن نظريات سياسية عربية أصيلة في الادارة السياسية لم تتوصل إليها أوروبا الا في أوائل القرن العشرين.

في هذا الكتاب ينادي خير الدين بالقضاء على الاستبداد والحكم المطلق، ومقاومة الدكتاتورية، كما يرى أن المبادئ الإسلامية هي أصلح الأنظمة للمجتمع الحر العادل، كذلك يرى أن يجمع العالم الإسلامي بين روح الاسلام وما في المدنية الحديثة من عوامل التقدم كما كان يحبذ النظام الرأسمالي، ويدعو الى التعليم المهني.

وقد ترك خير الدين الى جانب ذلك بذرة الحرية والإصلاح والتقدم التي ما تزال تونس تحمل شعلتها، وما يزال تلاميذه يسرون على دربه في الحرية والاستقلال والتقدم، ولا ينكر أبناء تونس أن آراء خير الدين وما فيها من وطنية، وما استلهموه من مبادئها الإصلاحية قد عصمتهم من الغرق في دوامة التجهيل والتخريب، ومنحتهم حصانة المقاومة ضد الاستعمار الرهيب الذي انتصروا عليه.

بيـرم الخـامـس

أما الشخصية التونسية الثانية في مجال الإصلاح فهي شخصية محمد بيـرم الخامس، الذي عاش فترة ما بين الأربعينات والتسعينات من القرن الماضي، ويعد من أحرار العالم الاسلامي، فلقد نضجت اهتماماته بالسياسة والإصلاح شؤون الحكم في وقت مبكر، وتولى مشيخة بعض المدارس الكبرى وهو ما يزال في شرح الشباب، كما تولى التدريس في جامعة الزيتونة، فبث في تلاميذه روح التمرد والنقمة على الأوضاع السائدة في العالم الاسلامي، ووجه المثقفين الى الإصلاح، وقد رحل في أنحاء الشرق والغرب، واستقر بمصر، حيث أصدر جريدة «الاعلام»، وتولى القضاء وبعض المهام السياسية، وساهم في النهضة الفكرية، وألف في الفلسفة والعلم الشرعي والسياسة، وأبرز مؤلفاته كتاب «صفوة الاعتبار»، وهو موسوعة في السياسة والتاريخ والرحلات ووصف البلدان ومجتمعاتها وسياساتها.

وقد مارس الإصلاح من جذوره، إذ كان يرى أن إصلاح التعليم هو البداية، كما نادى بإصلاح الأخلاق، وتطبيق النظم النيابية.

وهو من أنصار خير الدين ومؤازري دعوته، وقد استعان به خير الدين في تنظيم التعليم والأوقاف، وتولى بعد خير الدين إصلاح القضاء، وتنظيم المستشفيات وحاول إصلاح نظم الحكم.

والتقى في الشرق بأقطاب الفكر والسياسة، أمثال الشريف حسين، ومدحت باشا، وسعد زغاول، وأديب إسحق، وسليم نقاش.

وخلاصة آرائه تتركز في الرجوع الى مبادئ القرآن، وتطهير الدين من البدع، وفتح باب الاجتهاد، والانتفاع بثمرات العلم الحديث، وتجديد أساليب التعليم.

عبد الحميد بن باديس

أما عبد الحميد بن باديس الذي عاش بين عام 1889 وعام 1940 فلم تعرف الجزائر خطيبا يماثله في البلاغة وقوة التأثير في الجماهير. كان من الرواد الذين فجروا الثورات، ودفعوا شعوبهم الى ميادين التقدم، وقد استمسك بعروبة الجزائر في مواجهة الاستعمار الاستيطاني الذي كاد يجتاحها الى الأبد، وبذلك أصبح أبا الجزائر ومعلمها. ولد ابن باديس في قسنطينة بالجزائر، والتحق بالزيتونة في تونس، وفيها تخرج، وقام بالتدريس لطلابها.

ومن تأثر بهم البشير صفر، والثعالبي في تونس، والطاهر الجزائري في دمشق، ومحمد عبده، وجمال الدين الافغاني، وعبد الرحمان الكواكبي، ومحمد إقبال، وقاسم أمين (1) على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم في الإصلاح.

وقد اصطنع في سبيل تحقيق أهدافه الإصلاحية مختلف الوسائل، كفنون الأدب، والصحافة، والخطابة، ولكي تظل الجزائر عربية مسلمة كان لا بد من بعث الحركة الدينية التجديدية، ونشر اللغة العربية في جميع مجالات الحياة.

(1) لا نظن ان باديس تأثر في شيء بقاسم أمين . كما نشك أيضا في انه تأثر بجميع المذكورين .

جمال الدين الافغاني

وأما جمال الدين الأفغاني، فإلى جانب ما هو معروف عنه من معلومات شائعة ركز على دوره الرائد في علاج أزمات العالم الإسلامي. ودعوته إلى التجمع تحت ظلال الجامعة الإسلامية، وكانت سياحاته في جميع أنحاء القارات ذات أثر فعال في النهوض بالعالم الإسلامي، غير أن دوره في مصر، والتقاءه بمحمد عبده، وتأليف جمعية العروة الوثقى، وتعاونهما على إيقاظ العالم الإسلامي وتنقية الإسلام من الخرافات، وإعلان الثورة على الاستعمار والإقطاع - كان من أكبر الأدوار التي لعبها جمال الدين الأفغاني في حياته كلها.

محمد عبده

والحديث عن جمال الدين لا بد أن يستدعي الحديث عن تلميذه وحواريه محمد عبده، لأنهما لعبا دورا مشتركا في حياة الأمة العربية والعالم الإسلامي، بحيث يكمل كل منهما الآخر. غير أن المؤلف أبرز شجاعة محمد عبده، وجرائته في الجهر بآرائه، وإقدامه على التجديد، وحملته على الجمود والرجعية، كما تحدث عن أدواره الدينية والسياسية، وعن مواقفه من إصلاح التعليم، وما لقيه من تكريم الهيئات في مختلف أنحاء العالم، وما صادفه من عقبات في سبيل تحرير الفكر، وتطهير الدين، وتحرير الأساليب الأدبية من بقايا عصور الانحطاط، وتقويم أسلوب الصحافة، وتصحيح أفكار المستشرقين عن الدين الإسلامي، ورد تهجماتهم عليه.

غير أن المؤلف وقع في التباس صغير عند حديثه عن الحركة التجديدية التي قام بها محمد عبده، فقد اشتبه عليه اسم الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، مؤلف كتاب « محمد عبده » في سلسلة أعلام العرب، وعباس محمود. مترجم كتاب « الاسلام والتجديد في مصر »، وهما شخصان مختلفان.

وهكذا يقدم لنا الباحث التونسي رشيد الذواوي في هذا الكتاب نماذج جديدة من أعلام الفكر والإصلاح، تجمعهم نزعة الإصلاح، وإرادة تغيير المجتمع، في فترة حرجية من حياة الأمة العربية والعالم الاسلامي .

تجمعهم كذلك المعاصرة، كما تجمعهم العروبة والاسلام مهما اختلفت بهم الديار، ويثقل ضميرهم الواجب نحو الوطن، والالتزام بحماية الدين.

والقدر المشترك بينهم يتمثل في حرية الرأي، والشجاعة في الجهر بالحق، والحرص على لغتهم والتقاليد الصالحة للمجتمع الاسلامي الواعي.

ولقد بذل المؤلف الكثير من الجهد لسكي يجمع أطراف المعلومات عن هؤلاء الاعلام، سواء في جمع المراجع الكثيرة والمبعثرة في أنحاء العالم أو في تنقية هذه المعلومات مما أدخل عليها تشويه سيرة هؤلاء الاعلام، سواء من الأدعياء أو الحاقدين وبهذا استطاع أن يقدم لنا هؤلاء الاعلام بالصورة اللائقة بهم، وبما بذلوه من جهود مضيئة في سبيل مجتمعاتهم، وبالصورة التي تليق بالمؤلف كباحث ألزم نفسه بأن ينصف هؤلاء المجاهدين من

قائلة السوء. ومن الحملات المغرضة التي وجهت اليهم في حياتهم كثيرا. وبعد رحيلهم أكثر وأكثر.

ولم يكن ذلك بالأمر الهين، فإن كلمة الحق تثقل ضمائر الذين يتحرون فيها وجه الصواب بالجمع والتدقيق والموازنة والتحقيق، حتى تبدو كلمة الحق في المكانة الجديرة بها.

ويبدو من عديد المراجع وأشتات المصادر التي استنطقها المؤلف، ومن الموازنات والتدقيق وتقليب وجوه الرأي، والتحقيقات والتصويبات التي نراها الذوادي أنه يحترم التاريخ، ويحترم قلمه، وقبل هذا وذاك يحترم قارئه. وفي سبيل ذلك يهون كل جهد يبذله الباحث لكي يؤدي واجب الحقيقة، ولكي يكون جديرا باحترام قارئه، وهو الأمر الذي نغبط من أجله الذوادي، ونباركه عليه(1).

(1) نشر المقال في مجلة الفكر عدد ماي 1974 وكان الكتاب قد طبع في تونس عام 1973 .

فهرس الاعلام والجماعات

— ١ —

- | | |
|---------------------|-------------------------|
| ادريس الشريف : | ابراهيم : |
| . 220 | . 174 ، 173 |
| أديب اسحاق : | ابراهيم بورقعة : |
| . 231 | 128 ، 125 |
| اسماعيل حسن : | ابراهيم ناجي : |
| . 62 | . 209 |
| الاغالبية : | أتاتورك : |
| . 215 | . 180 |
| ألبير ممسي : | أحمد أمين : |
| . 78 | . 119 |
| الفريد دي فينيه : | أحمد باشا باي : |
| . 54 | . 227 ، 40 |
| الفريد دي موسى : | أحمد الثالث باي : |
| . 54 | . 219 |
| الفونس دي لامرتين : | أحمد بن الخوجة : |
| . 54 | . 203 |
| أمين الريحاني : | أحمد زكي أبو شادي : |
| . 11 | . 7 ، 101 ، 119 ، 120 ، |
| الامين الشابي : | . 121 ، 130 ، 141 |
| . 141 | أحمد كريم : |
| أمينة بنت مصطفى : | . 203 |
| . 33 | أحمد الورتاني : |
| | . 203 |

ايليا ابو ماضي :
209 .

اولجا فرولونفا :
24 ، 25 ، 37 .
ايبيد نسكى :
25 .

— ب —

البشير الفوراتى :
125 ، 129 .

ابن بطوطة :
77 .

بورقيبة :

انظر : الحبيب .

بيرم التونسى :
198 .

بيرون :
209 .

باننوتشك :
24 .

البرير :
78 .

بروزوروف :
25 .

البشير خريف :
71 ، 72 ، 73 .

البشير صفر :
19 ، 43 ، 44 ، 47 ، 198 ،
203 ، 203 .

— ت —

ابو تميم :
50 .

توريسكا :
178 .

توفيق الحكيم :
67 .

التبريزى :
129 .

التجاني بشير :
131 .

تخوروجيفسكى :
25 .

— ث —

الثعالبي :

انظر : عبد العزيز .

— ج —

- جـاك لندن :
 . 65
- جمال الدين الافغانى :
 . 220 ، 211 ، 198 ، 52
 . 233 ، 232 ، 222
- جميل بوئينة :
 . 107
- جيتـه :
 . 209
- جـبران :
 . 119 ، 127 ، 129 ، 154
 . 209
- ابن جبير :
 . 177
- جلال الدين السيوطى :
 . 74

— ح —

- بـوحـاجـب :
 انظر : سالم .
- الحبيب بورقيبة :
 . 221 ، 81
- الحريـرى :
 . 212
- ابو الحسن الشاذلى :
 . 219
- ابو الحسن ابن شعبان :
 . 212
- حسن محمود :
 . 130 ، 125
- حسن النورى :
 . 225
- الحليـوى :
 انظر : محمد .
- حمودة بوقطفة :
 . 221

— خ —

- الخضر حسين :
 . 198
- ابن خلدون :
 . 9 ، 14 ، 26 ، 105 ، 177
 . 229
- خليفة التليسى :
 . 127 ، 125
- خليفة بن عسكر :
 . 221

حسب الدين :
• 203 • 198 • 41 • 40
• 226 • 222 • 220 • 219
• 230 • 229 • 228 • 227
• 231

دابل بو حاجب :
• 203
الخميري :
• 10
حمس برنان :
• 222

— د —

دي فيني :
• 209

— ر —

الرصافي :
• 62
رفاعة رافع الطهطاوي :
• 46
روسو :
• 154
ابن الرومي :
• 119

الرافعي :
• 119
رشاد الحمزاوي :
• 75
رشيد النوادي :
• 224 • 217 • 214 • 23
• 226 • 225 • 234 • 235
ابن رشيق :
• 212

— ز —

زين العابدين السنوسي :
• 166

زييس :
• 19
الزيات :
• 119

— س —

سليم البرجي :	سالم بو حاجب :
. 72	. 203 ، 198
سليم نقاش :	سانت بيف :
. 231	. 118
السنوسي (محمد) :	سعد زغول :
. 46	. 231
سوكولوفس :	سفيتلانا باتسييفا :
. 25	. 25 ، 9
	سليمان والي :
	. 221

— ش —

الشاذلي عطاء الله :	الشابي ابو القاسم :
. 211	. 53 ، 20 ، 19 ، 9
الشاذلي القليبي :	. 59 ، 58 ، 56 ، 55 ، 54
. 126 ، 125	. 101 ، 100 ، 99 ، 61 ، 60
شتاينبك :	. 107 ، 106 ، 103 ، 102
. 65	. 112 ، 111 ، 110 ، 109
الشريف حسين :	. 116 ، 115 ، 114 ، 113
. 231	. 123 ، 120 ، 118 ، 117
شكسبير :	. 128 ، 127 ، 126 ، 125
. 120	. 132 ، 131 ، 130 ، 129
شهرزاد :	. 148 ، 141 ، 140 ، 133
. 67	. 156 ، 154 ، 153 ، 151
شوينهور :	. 166 ، 164 ، 162 ، 161
. 130	. 208 ، 201 ، 188 ، 168
شوقي ابو شقرا :	شاقويران :
. 131 ، 126	. 209
	الشاذلي ابن صالح :
	. 203

— ص —

صفر :
انظر : البشير

صالح الشريف :
211.203 .
صالح الدين الجمالي :
33 .

— ط —

الطاهر الحداد :
166 ، 53 ، 52 ، 51 .
الطاهر النيفر :
203 .
الطيب التريكي :
36 ، 31 ، 30 ، 25 .

طه حسين :
121 ، 119 ، 11 .
طاهر باشا :
203 .
الطاهر الجزائري :
232 .

— ع —

عبد الرزاق كركاكة :
193 ، 192 ، 191 ، 166 .
194 ، 195 ، 196 ، 211 .
عبد العزيز الثعالبي :
232 ، 221 ، 198 ، 63 .
عبد العزيز قاسم :
29 .
عبد العزيز المسعودي :
49 .
عبد القادر الجزائري :
219 .
عبد المجيد عابدين :
131 ، 126 .

عائشة :
75 .
عامر غديرة :
127 ، 125 .
عبد الله البحيري :
219 .
عبد الله شريط :
128 ، 125 .
عبد الحميد بن باديس :
232 .
عبد الحميد (السلطان) :
228 .
عبد الرحمن الكواكبي :
232 ، 222 .

- عبد الواحد ابراهيم :
23 .
- ابن عربي :
119 ، 129 .
- المريي التجار :
220 ، 224 .
- العروسي المطوي :
19 ، 73 ، 74 ، 125 ، 127 ،
169 .
- عز الدين المدني :
169 .
- العقاد :
118 ، 119 ، 120 ، 121 ،
234 .
- على باش حانية :
47 .
- على البلهوان :
72 .
- على الخماسي :
222 .
- على بو شوشة :
220 ، 224 .
- على الدوعاجي :
4 ، 6 ، 65 ، 66 ، 165 ،
166 ، 167 ، 168 ، 169 ،
175 ، 176 ، 177 ، 178 ،
183 .
- على ابن غذاهم :
219 ، 228 .
- على الورداني :
46 .
- على اليشرطي :
219 .
- عمر بن الخطاب :
220 .
- عمر ابن الشيخ :
219 ، 203 ، 224 .

— غ —

- الغزالني :
129 .
- غيلان :
67 ، 68 ، 69 .

— ف —

- ابن الفارض :
119 .
- الفاطيون :
215 .
- فريد غازي :
انظر : محمد .
- فرواؤفا :
37 .

— ق —

- | | |
|-----------------------|---------------------|
| ابو القاسم محمد كرو : | قاسم امين : |
| 17، 20، 23، 102، 103، | 52، 232 . |
| 109، 110، 111، 113، | ابو القاسم الشابي : |
| 115، 125، 126، 129، | انظر : الشابي . |
| 156، 185، 191، 196 . | |

— ك —

- | | |
|----------------|-------------------|
| كولوديل : | الكعك (عثمان) : |
| 65 . | 19 . |
| لامرتين : | كمال نشات : |
| 118، 209 . | 62 . |
| ليلي بن مامي : | لندن : |
| 77 . | 65 . |

— م —

- | | |
|-----------------------|-------------------|
| محمد بدره : | المازني : |
| 125، 127 . | 119، 121 . |
| محمد بالخوجة : | المؤيد : |
| 46، 177، 203 . | 211 . |
| محمد بيرم الخامس : | مخايل نعيمة : |
| 231 . | 119 . |
| محمد الجلولي : | محجوب ابن ميلاد : |
| 203 . | 19 . |
| محمد الحبيب الذواذي : | محمد الاصرم : |
| 224 . | 203 . |
| محمد حسين : | محمد اقبال : |
| 203، 204 . | 232 . |

- محمد حسين هيكل :
31 ، 119 .
- محمد علي الحوماني :
7 .
- محمد الحليوي :
19 ، 116 ، 117 ، 118 ،
121 ، 124 ، 156 ، 208 .
- محمد الفاضل ابن عاشور :
197 ، 202 ، 203 .
- محمد الفايدي :
218 .
- محمد فرج الشاذلي :
25 ، 32 ، 35 .
- محمد السنوسي :
117 ، 198 ، 203 .
- محمد فريد غازي :
49 ، 50 ، 203 ، 206 .
- محمد الفكييني :
203 .
- محمد الطاهر الخماسي :
222 .
- محمد بن قاسم البنزرتي :
218 .
- عبد الخالق البشروشي :
117 ، 118 ، 124 ، 125 ،
128 ، 211 .
- محمد محي الدين :
63 .
- محمد المرزوقي :
19 ، 25 ، 28 ، 29 ، 25 ،
76 ، 77 .
- محمد عبده :
14 ، 43 ، 47 ، 198 ، 211 ،
220 ، 222 ، 232 ، 233 ،
234 .
- محمد مزالسي :
19 .
- محمد عبد الوهاب :
220 .
- محمد المكى :
203 .
- محمد العربي الكبادي :
212 .
- محمد مناشبو :
192 .
- محمد المنصور :
125 ، 129 .
- محمد العزيز بو عتور :
203 ، 204 ، 205 .
- محمد بن يوسف :
203 .
- محمد علي :
221 .

- مصطفى رضوان :
203 .
- مصطفى بن عبد الكريم :
219 .
- مصطفى الفارسي :
30 .
- مصطفى كمال :
179 .
- معاوية التميمي :
203 .
- المعتمد بن عباد :
192 .
- المعمرى :
119 .
- المقداد الورتثاني :
203 ، 177 .
- ابن منظور :
105 .
- موليير :
65 .
- ميخائيلوفنا :
25 .
- محمود باي :
219 .
- محمد بو العيد :
35 ، 30 ، 25 .
- محمود بيرم التونسي :
166 .
- محمود الثاني (باي) :
227 .
- محمود السعدى :
70 ، 69 ، 67 ، 66 .
- محمود طرثونة :
34 ، 32 ، 31 ، 25 .
- محمود قبادو :
198 .
- مخائيل نعيمة :
209 ، 119 .
- مدحت باشا :
231 .
- مصطفى بدوى :
130 ، 125 .
- مصطفى رجب :
19 .

— ن —

- نابوليون :
219 .
- ناجية ثامر :
37 ، 36 ، 33 ، 25 ، 19 ، 77 .
- نور الدين الحمداني :
23 .
- نييتشه :
130 .
- نظمي خليل :
131 ، 125 .

— ه —

همنجوای :
. 65

هجو :
. 209

الهادی زمزم :
. 223 ، 218

الهادی العبدی :
. 128 ، 125

ابن هانی :
. 212

— ی —

یوسف جعیط :
. 203

فهرس الكتب والمجلات والقصائد والمقالات

— ١ —

- | | |
|-----------------------------|---------------------------|
| ارادة الحياة : | آراء المعري وعقيدته : |
| . 160 ، 152 ، 60 | . 76 |
| أردنا الحياة : | أبريق الشاي : |
| . 36 | . 37 ، 33 ، 25 |
| أرضنا العزيزة : | أبطال وشهداء : |
| . 36 ، 30 | . 225 |
| الاستطلاعات الباريسية : | أبناء الشيطان : |
| . 177 | . 59 |
| الاسلام والتجديد في مصر : | أبولسو : |
| . 234 | . 26 ، 62 ، 101 ، 119 ، |
| أشعة الجمال : | . 120 ، 121 ، 130 ، 141 ، |
| . 76 | . 151 |
| أشعة وظلال : | الاجنحة المنكسرة : |
| . 121 | . 119 |
| الاعتراف : | احلام مشاعر : |
| . 58 | . 154 |
| الاعلام (جريدة) : | ادباء تونسيون : |
| . 231 | . 225 |
| أعلام العرب (سلسلة) : | الادب التونسي : |
| . 234 | . 23 |
| أعلام المغرب العربي (سلسلة) | الادب الشعبى : |
| . 19 ، 17 | . 77 |

- أعلام من بنزرت :
214 ، 217 ، 225 .
- أغاني الحياة :
57 ، 62 ، 102 ، 107 ،
141 ، 142 ، 147 .
- أغاني الرعاة :
163 .
- أغنية الاحزان :
145 .
- الافلاس :
71 .
- اقوم المسالك في معرفة الممالك :
40 ، 228 ، 229 .
- الى طفاة العالم :
60 .
- امراتنا في الشريعة والمجتمع :
52 .
- أمن تذكر جبران بذى سلم :
173 ، 174 .
- اميرة المهدية :
195 .
- أهل الكهف :
67 .
- ايها الحب :
144 .

— ب —

- بدعة وحماد :
194 .
- البردة :
174 .
- برق الليل :
72 ، 73 .
- البرنس في باريس :
177 .
- البضاعة الجديدة :
25 ، 32 ، 34 .
- بودودة مات :
75 .
- بيجها ليون :
67 .
- بين زوجتين :
35 .
- بين الشابى وجبران :
127 .

— ت —

- تاريخ الحروب الصليبية :
74 .
- تحت الفصون :
57 .

- تراجم الاعلام :
202 ، 203 ، 207 .
- التوت المر :
74 .
- التقديم :
45 .
- تونس الجميلة :
57 ، 60 .
- التقرير والايحاء في شعر
الشابي :
130 .
- تونس الشهيدة :
63 ، 64 .
- تمثال من الملح :
78 .

— ث —

- الثقافة :
17 .

— ج —

- جارتى :
170 .
- جولة بين حانات البحر الابيض
المتوسط :
66 ، 178 .
- جريمة شهرزاد :
193 .
- جواب بين النجوم :
65 .

— ح —

- الحاضرة :
43 ، 45 ، 220 .
- حصاد القلم :
18 ، 185 .
- الحركة الادبية والفكرية في
تونس :
197 .
- حصاد الهشيم :
119 .

- حليمة :
74 .
الحمار الذهبي :
26 .
الحياة :
57 .
حياة سيدنا محمد :
64 .
حياة الشبابي :
57 ، 122 .
حياة أبي القاسم الشابي :
128 .

— خ —

- الخيال الشعري عند العرب :
55 ، 100 ، 107 ، 116 ،
131 .
خيال الماضي :
29 .

— د —

- دراسات عن الشابي :
125 .
دموع وعواطف :
76 .

— ر —

- الرائد التونسي :
45 .
راعى النجوم :
65 .
الرحلة الحجازية :
46 ، 177 .
الرحلة الفاليرية :
177 .
الرحلة الناصرية :
177 .
رسائل الشابي :
102 ، 117 ، 123 ، 124 ،
133 .
رسالة باري :
46 .
الركن النير :
170 .
رواد الإصلاح :
225 .
روح القرآن :
64 .

— ز —

- الزمان : 194 .
 الزهرة : 45 .
 زهر الآداب : 105 .

— س —

- ساعات بين الكتب : 118 ، 120 .
 سبيل الرشاد : 45 .
 السد : 66 ، 67 ، 69 ، 72 .
 سر مع الدهر : 60 .
 سر خديجة : 33 .
 السعادة : 154 .
 السعادة العظمى : 45 .
 السكير : 107 .
 سلوك الابريز في مسالك باريس : 177 .
 السياسة الاسبوعية : 119 .
 سيدى سالم : 25 ، 30 ، 35 .
 سهرة منه الليالى : 169 ، 174 .

— ش —

- الشابى حياته وشعره : 18 ، 102 .
 الشابى روح نائرة : 129 .
 الشابى وتجربة الفجر البعيد : 126 .
 الشابى والحياة : 128 .
 شارع الاقدام المخضبة بالدماء : 65 .
 شجون : 57 .

- شرف الدينونفا :
25 .
- شعرنا وشعراؤنا :
57 .
- الشعب في شعر الشبابي :
127 .
- الشعر فاذا يجب أن نفهم منه :
57 .
- شعري :
57 .

— ص —

- صاحب المفازة :
25 ، 29 ، 36 .
- صفوة الاعتبار :
231 .
- الصباح :
23 ، 24 .
- الصباح الجديد :
123 ، 130 ، 157 ، 158 .
- صوت تائه :
147 .
- صفحات دامية :
107 .
- صلوات في هيكل الحب :
162 .
- الصواب :
45 .

— ع —

- عازف أعمى :
210 .
- العالم الادبي :
166 .
- عبرة في قصة :
193 .
- عرقوب الخير :
29 ، 35 ، 36 .
- العروة الوثقى :
233 .
- العمال التونسيون وظهور
الحركة النقابية :
53 .
- ال عمران البشري في مقدمة
ابن خلدون :
119 .
- العواصف :
119 .
- عيشة :
193 ، 195 .

— غ —

- الغريبال :
. 119
غناء البلبيل :
. 33
الغزال الفاتن :
. 144

— ف —

- فرحة الاولاد :
. 25 ، 30 ، 36
فن الشبابى :
. 131
فرقة الهلال :
. 195
فى الادب التونسى :
. 208
فى سبيل الحرية :
. 36
فى المقبرة :
. 107
الفصول :
. 118
الفكر :
. 27 ، 29 ، 34 ، 35 ، 36 ، 71 ، 37

— ق —

- ابو القاسم الشاعر :
. 127
قلب لا يخفق :
. 30
ابو القاسم كما يجب ان يقال
عنه فى حياته وبعد موته :
. 129
قلت للشعب :
. 149
قالت الايام :
. 146
القلم :
. 45
القمح وزيت الزيتون :
. 25 ، 31 ، 34
ابو القطط :
. 193

— ك —

- | | |
|----------------------|--------------------|
| الكتاب (مجلة) : | كفاح الشبابي : |
| . 7 | . 110 ، 102 ، 18 |
| كتاب البعث (سلسلة) : | كيف ندرس الشبابي : |
| . 18 ، 17 | . 126 |

— ل —

- | | |
|-----------------|------------|
| لسان الشعب : | لبت شعري : |
| . 194 | . 153 |
| اللغات (مجلة) : | |
| . 17 | |

— م —

- | | |
|----------------------------|-------------------------|
| ما يجب نحو الشبابي : | المضحك : |
| . 129 | . 194 |
| المثبوع : | المطالعات : |
| . 25 ، 29 ، 36 | . 118 |
| مجرم رغم انه : | مقامات الحريري : |
| . 174 | . 212 |
| مختارات من مقدمة ابن خلدون | مقدمة ابن خلدون : |
| . 11 | . 26 |
| محاولة جعل اطار لترجمة | مكتبة ابن خلدون : |
| الشبابي : | . 9 |
| . 127 | مكتبة الشبابي : |
| مذكرات الشبابي : | . 17 ، 19 ، 102 |
| . 102 ، 132 ، 133 ، 135 | منارة في السنة الكهيب : |
| . 139 ، 138 | . 77 |
| مصرع صالح : | من أغاني الرعاة : |
| . 25 ، 32 ، 35 | . 57 |

ميلاد الشابى :

. 128 ، 126

المنير :

. 50

مولد النسيان :

. 69

— ن —

نشيد الجبار :

. 161 ، 157 ، 123 ، 122

نظرة فى شعر الشابى عامة :

. 130

نفس الشابى :

. 128

النهضة :

. 54

النبي المجهول :

. 59

نجوم الفن (سلسلة) :

. 19

نزهة رائعة :

. 174

نشيد الاسى :

. 148

— ه —

الهيفاء وسراج الليل :

. 47

— و —

وحى الاربعين :

. 120 ، 119

ولادة وابن زيدون :

. 195 ، 193

الوجه الجديد :

. 34 ، 25 ، 24

وجه المستعمر :

. 79

— ى —

يابن امى :

. 150

المدن والاماكن والجمعيات والمنظمات

— أ —

- | | |
|-------------------------|-----------------------------|
| استنبول : | الآداب (جمعية) : |
| . 226 ، 182 ، 180 ، 178 | آسيا : |
| افريقيا : | . 183 ، 181 ، 23 |
| . 23 | الاتحاد العام التونسي للشغل |
| الاكروبول : | . 53 |
| . 179 | أثينا : |
| انجلترا : | . 178 |
| . 220 | الإذاعة التونسية : |
| الاندلس : | . 76 ، 64 |
| . 192 ، 177 | أزمير : |
| اوروبا : | . 78 |
| . 182 ، 181 ، 51 ، 44 | اسبانيا : |
| . 230 ، 229 ، 227 ، 183 | . 46 |

— ب —

- | | |
|-------------------------|------------------------|
| بنزرت : | باريس : |
| . 220 ، 218 ، 217 ، 215 | . 221 ، 182 ، 63 |
| . 224 ، 223 ، 222 ، 221 | البحر الأبيض المتوسط : |
| بيبره : | . 46 |
| . 178 | بركان فيزوف : |
| بيروت : | . 180 |
| . 46 | بغداد : |
| | . 185 ، 74 |

— ب —

- تركيا :
159 ، 51 .
- تونس الفتاة (حزب) :
47 .
- بوزر :
105 ، 54 .

— ج —

- جامع عقبة :
215 .
- جدة :
74 .
- جامعة الازهر :
105 ، 54 ، 14 .
- الجريد :
105 .
- جامعة دار الحكمة (بالقيروان):
105 .
- الجزائر :
228 ، 219 ، 125 ، 7 ، 232 .
- جامعة الدول العربية :
197 .
- جمعية الآداب :
195 .
- جامعة الزيتونة :
انظر : الزيتونة .
- جمعية الاربعين :
43 .
- جامعة لينينجراد :
24 .
- جمعية خرجى الصدقية :
47 .
- جبال منشوريا :
181 .
- الجوق الكاملى :
195 .

— ح —

- الحجاز :
219 .
- الحزب الحر الدستورى :
221 .

— خ —

- الخلدونية :
198 ، 76 ، 73 ، 44 ، 207 .
- الخليج العربى :
181 .

— د —

- | | |
|------------------------------------|------------------------|
| دار المغرب العربى للطباعة والنشر : | الدار التونسية للنشر : |
| . 19 ، 17 | . 24 ، 17 ، 8 |
| الدردييل : | الدار العربية للكتاب : |
| . 181 ، 178 | . 9 |
| دمشق : | دار الكتب الشرقية : |
| . 232 ، 36 | . 17 |
| | دار المعلمين العليا : |
| | . 18 |

— ر —

- | | |
|-----------------------------|-----------------|
| روسيا : الاتحاد السوفياتى : | رباط المنستير : |
| . 62 ، 51 ، 24 ، 9 ، 8 | . 215 |

— ز —

- | | |
|-------------------------|------------------------|
| 55 ، 71 ، 72 ، 76 ، 105 | الزلاج (مقبرة) : |
| 199 ، 198 ، 192 ، 129 | . 220 |
| 223 ، 220 ، 219 ، 207 | الزيتونة : |
| . 232 ، 231 | 54 ، 53 ، 52 ، 41 ، 27 |

— س —

- | | |
|---------------|------------|
| سوريا : | الساحل : |
| . 48 ، 46 ، 7 | . 215 |
| سوسة : | السريون : |
| . 215 | . 221 |
| | السودان : |
| | . 126 ، 62 |

— ش —

- الشباب الاسلامى : . 54
شركة النشر لشمال افريقيا : . 17
الشبان المسلمون : . 106
شمال افريقيا :
انظر : المغرب العربى .
الشركة التونسية للنشر : . 17
شيراز : . 182

— ص —

- الصادقية :
، 41 ، 44 ، 105 ، 198 ،
، 207 ، 220

— ض —

- ضريح البلوى :
، 215

— ع —

- العراق :
، 18 ، 62 .
عكا :
، 219

— ف —

- فرنسا :
، 33 ، 47 ، 78 ، 227 ،

— ق —

- القاهرة :
، 7 ، 9 ، 46 ، 74 ، 141 ،
القدس :
، 197 ، 219

- قرطاج : قرطاجة :
 . 26 ، 15
 القوقاز :
 . 226
 قسنطينة
 . 232
 القيروان :
 ، 213 ، 208 ، 150 ، 35
 . 215
 قفصة :
 . 215

— ل —

- لبنان :
 . 126 ، 46
 ليبيا :
 . 185 ، 125 ، 75

— م —

- متحف باردو :
 . 129
 مصر :
 ، 51 ، 48 ، 46 ، 43 ، 14
 ، 125 ، 121 ، 101 ، 62
 . 233 ، 231 ، 151 ، 130
 مجمع اللغة العربية (بالقاهرة)
 . 197
 المحيط الهندي :
 . 181
 المغرب العربي :
 ، 100 ، 78 ، 20 ، 19
 ، 192 ، 191 ، 177 ، 125
 . 231 ، 196
 مدرسة الحقوق التونسية :
 . 55
 مقدونيا :
 . 182
 المدرسة الصادقية :
 انظر : الصادقية .
 المكتبة العبدلية :
 . 41
 مرسية :
 . 192
 المهدية :
 . 215
 المشرق :
 ، 129 ، 125 ، 101 ، 100
 ، 191 ، 182 ، 181 ، 151
 ، 229 ، 221 ، 200 ، 192
 . 231 ، 230
 المنستير :
 . 215

— ن —

نادى القصة الادبى :

. 74

نبس :

. 180 ، 179

نابلسي :

. 180 ، 178

النادى الادبى :

. 106

فهرست الكتاب

٧	— تقديم بقلم الاستاذ أبو القاسم محمد كرو
13	— مقدمة
21	— الباب الاول : الادب التونسي المعاصر في اللغة الروسية ..
23	الفصل الاول : الادب التونسي في الاتحاد السوفياتي ...
39	الفصل الثاني : التجديد في الادب التونسي المعاصر
82	أهم المراجع
87	ملاحظات وتعليقات بقلم أبو القاسم محمد كرو
97	— الباب الثاني : الادب التونسي المعاصر من خلال مطبوعاته
99	الفصل الاول مع الشبابي
99	تمهيد
103	الشبابي ... حياته وشعره ، تأليف أبو القاسم محمد كسرو
110	كفاح الشبابي تأليف أبو القاسم محمد كرو
116	رسائل الشبابي جمع محمد الحليوي
125	دراسات عن الشبابي من سلسلة مكتبة الشبابي
132	نشر الشبابي في مذكراته
141	شعر أبي القاسم الشبابي في ديوانه أغاني الحياة

141 المرحلة الاولى
148 المرحلة الثانية
156 المرحلة الثالثة
165 الفصل الثاني : على الدوعاجي
169 على الدوعاجي ... القصاص
177 على الدوعاجي ... الرحالة
185 الفصل الثالث : كتب تونسية
185 أبو القاسم كرو في كتابه « حصاد القلم »
191 أبو القاسم كرو في كتابه عن عبد الرزاق كرباكه ، سلسلة أعلام المغرب العربي
197 محمد الفاضل ابن عاشور في كتابه « الحركة الادبية والفكرية في تونس »
202 محمد الفاضل ابن عاشور في كتابه « تراجم الاعلام »
208 محمد الخليوي في كتابه « في الادب التونسي »
214 رشيد الذواذي في كتابه « أعلام من بنزرت »
225 رشيد الذواذي في كتابه « رواد الاصلاح »
237 الفهارس :
237 الاعلام والجماعات
249 الكتب والمجلات والقصائد والمقالات
258 المدن والاماكن والجمعيات والمنظمات

انتهى طبع هذا الكتاب بمطبعة
الاتحاد العام التونسي للشغل - تونس
رجب 1397 / جويلية 1977

رضوان ابراهيم — مؤلف هذا الكتاب — كاتب مصري،
كاد أن يكون الكاتب الوحيد في الشرق الذي عاش الادب
التونسي وممارسة قراءة وعلاقات شخصية مع العديد من
ادبائه حتى امكن له ان يكتب عنه البحوث والمقالات والاحاديث
المختلفة للصحف والمجلات وللادامة العربية ، ثم تخصص
في الترجمة من الروسية الى العربية ، فكان اهتمامه منصرفا
بالدرجة الاولى الى ما يكتب عن تونس واعلامها وادبها في
الكتب والمجلات الروسية .

وله فضل السبق والعناية بما كتب او نشر في روسيا من
دراسات وكتب عن الادب التونسي ورجالته .

وقام رضوان ابراهيم بترجمة اضعف كتاب في روسيا عن
ابن خلدون لنفس المؤلف هو : « العمران البشري في مقدمة
ابن خلدون » ، وتتولى الآن الدار العربية للكتاب طبعه ليصدر
قريبا في سلسلة مكتبة ابن خلدون .

ونظرا لقيمة هذه المقالات ، لا سيما ما ترجمه من الروسية ،
ونظرا لعلاقاتها الوثيقة بحركة التأليف والتطور الادبي في
تونس .

ونحية لكاتبها واعزازا بنضاله الذي استغرق ربع قرن
في خدمة الادب التونسي من المشرق العربي ... رابت ان
تجمع في كتاب — كما كان ينسوي كاتبها — وان تعطى نفس
العنوان الذي اخبره بالسر .

(من التقديم)



الدار العربية للكتاب : المقر الرئيسي : عمارة « وفاء »
شارع غومة المحمودي طرابلس — ص.ب. 1183 — هـ : 47.287
الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية الفرع الرئيسي
23 نهج ليبيا — تونس ص.ب. 1104 — الجمهورية
التونسية هـ : 288.688

التمسك : 0,900 دل — 1.300 د.ت